

الإسلام يتحدى

حميد الدين خان



المختار
الاسلامى

الإسلام يتحدى
مدخل على إلى الإيمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« انما يخشى الله من عباده العلماء »

(فاطر : ٢٨)

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم »

حتى يتبين لهم أنه الحق »

(فصلت : ٥٣)

وحيد الدين خان

الإسلام يتحدى

مدخل على إلى الإيمان

مراجعة وتقديم

دكتور عبد الصبور شاهين

مترجمة

ظفر الإسلام خان

الطبعة السابعة

المختار الإسلامى

للطباعة والنشر والتوزيع

ص . ب ١٧٠٧ القاهرة

This is an Arabic translation of « Ilmé jadeed ka Challenge » by the Indian muslim thinker and reformer : waheeduddin khan (Editor, weekly Aljamiat, Delhi-6, India) published in Urdu (1966) by Academy of Islamic Research & Publications, Nad-watul Ulamaa, Lucknow, India. It has been rendered to Arabic by Mr. Zafarul Islam Khan, revised by prof. Dr. Abdussabur Shaheen of Cairo University and published by Al-Mokhtar Al-Islami P.O.Box 1707. CAIRO.

هذه ترجمة كتاب

((علم جديد كاجيلنج))

كتبه بالأردية الأستاذ وحيد الدين خان ونشره عام
١٩٦٦ « المجمع العلمى الاسلامى » التابع لندوة
العلماء ، لکنهو ، بالهند .

وتمت الترجمة باذن من المؤلف

الطبعة السابعة

١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

جميع الحقوق محفوظة

تقديم الطبعة الأولى

بقلم الدكتور عبد الصبور شاهين

ما أكثر ما يكتب عن الاسلام والمسلمين في مطبوعات هذا العصر في العربية ، وغير العربية ، وما أقل غناء أكثره .

قليل جدا من الكتابات الاسلامية هو الذى يعد اسهاما في معالجة مشكلات عالمنا الاسلامي ، اسهاما جادا مخلصا من أجل عودته ، وتقديمه .

وكثيرا جدا ما نقرأه من تلك الكتابات التقريرية ، أو الرثائية الوعظية ، التي تخطها اقلام ، ان كانت تتاجر بالدين ، فلا غرابة ، في عالم يقوم على المتاجرة حتى بالقيم ، فاما اذا كانت معروفة بالعلم وبالذكاء ، فذلك هو داعي الحسرة والاشفاق في أنفسنا على علمائنا الازكياء .

أيمكن أن نتصور عالم الفكر الاسلامي مجرد أقاصيص تحكى للبهر ، أو مقالات يجتهد أصحابها في تدبيج مقدماتها وسياقاتها ، لننتهي بعد قراءتها الى هز الرءوس ، ولوك عبارات الثناء والاعجاب ؟

هذا على حين يتشاغل كتاب الفلسفات المادية برسم تطلعات العصر ، وعلاج مشكلات التطبيق على مستوى عالمي ، حتى ليحس المرء بعد مطالعة بحث من هذه البحوث بحاجة الى أن ينزوى نفسيا في ركن من أركان اليأس والقنوط ، لأنه غائب تماما عن المعركة الحاضرة !! .

تلك محنة الوجدان والعقل المسلم . الذي ينشد لدى كتابه ومفكره مستوى من المبادرة والجد والأخلاص ، ولونا من الكتابة

المباشرة التي تعيش عصرها وأفكاره وتطلعاته ، فإذا هم لا يزيدون على بضع حكايات الأولياء ، واجترار بضعة خيالات محلقة في سموات التيه ، ومجابهة الواقع الصارخ الملح بما يميحه في وعده الجماهير ، ثم يسرح بها بعيدا بعيدا ، في أحلام الماضي وتصوراتها .

ومن البله أن نظن أن أخبار السلف هدف ثقافي ، يقصد لذاته كمتعة عقلية ، دون أن يكون من وراء ذلك مشروع انهاض ، وخطوة توعية من أجل صنع الحاضر والتأثير في الاجيال القادمة حسب هؤلاء السلف أنهم كانوا أمثلة مسهمة في صنع عصرهم وتوجيه معاصريهم ، ثم مضوا ، عليهم من الله رضوان ، ومن الناس سلام .

وجاء من بعدهم خلف ، أصبح بعد حين سلفا ، بعد أن مضى الى الرفيق الأعلى ، مخلفا كذلك تركة من السلوك ، ومن الكفاح ، هي جزء من تاريخ أمتنا .

وجاء جيلنا ليتوهم ، أو ليراد له أن يتوهم ، أنه مجرد وارث لأجيال سابقة ، عليه أن يستغل تركتها في خلق ملذاته ، فإذا ما جوبه بتحديات عصره لجأ الى المباهاة بترائه ، المباهاة وحدها ، المتمثلة في أكثر الكتابات المنشورة ، التي لا تمل أن تحكى وتحكى ، حكايات في حكايات ، وتقف أحيانا مستعلية من فوق منبر ، لتمطر على الحضور وعظا في وعظ ، دون أن تبلغ في ظن الجماهير أن تهز وجدانا ، أو حتى تحرك قشة .

إن أخص صفات عصرنا هي أنه ينتج من الأفكار بقدر ما ينتج من الأشياء ، وليس من الضروري أن نتطلب من الأفكار المنتجة أن تكون نافعة دائما كالأشياء ، فإن المجتمعات التي تصدر اليها أشياء الحضارة ترى في الأفكار سلعة ينبغي أن تتغير كل يوم ، كما تتغير طرز الأشياء ، ولذلك يقف مثقفونا مبهورين أمام موجات الفكر الواردة من الخارج ، ماذا يأخذون ، وماذا يدعون ؟ بل قل : ماذا يقرءون ، وماذا يترجمون ؟ . . ولا شيء أكثر من هذا . . يكفيهم

أن يستطيعوا ملاحقة الأفكار ، دون أن يكون عليهم أن يواجهوها ، أو ينقدوها ، فهم الى أن يصوغوا نقدا معينا لأحد الاتجاهات الجديدة نسبيا يكون الوقت قد فات ، وتقادم بمرور الزمن ما ينقدون ، وغطت عليه أفكار أخرى أشد لمعانا ، وأكثر جاذبية واشماعا .

ومما لا شك فيه أن العالم الاسلامى هدف ثمين من أهداف - تصدير - الأفكار ، نظرا الى موقعه ، وخطورة موقفه بين الكتل المتصارعة ، أو بعبارة أخرى : مراكز الانتاج ، والهدف من وراء التصدير واحد لدى كل هذه المراكز : أن يبقى هذا العالم مفتقرا اليها ، على اختلافها ، وأن يحال بينه وبين أفكاره الأصيلة ، التى يمكن أن تغنيه عن الاستيراد ، وتحقق له الاكتفاء الذاتى .

ومن المعروف فى دوائر الاقتصاد أن الاحتكار اذا تحقق لمركز انتاجى فى سوق معينة فإن من المتوقع أن يبدأ المنتج فى افساد السلعة ، بتقليل جودتها اعتمادا على الاحتكار المتاح له ، وطمعا فى ربح أوفر .

وسوق الأفكار أخطر أسواق المنتجات ، وأكثرها تقبلا للتزييف والافساد ، ومن ثم حفلت أسواقنا بما هو أشد فتكا من السموم ، وأعظم انتشارا من الهواء ، يتخلل كل خلية ، وينخر فى كل بناء .. أفكار ترتدى أثوابا ، أو تحمل شعارات أو ترفع مشاعل ، ليس الثوب فيها ، أو الشعار ، أو المشعل ، الا قناعا يستر الزيف الخطر .

وليس من الممكن أن نفهم موجات السيطرة الخارجية على مجتمعاتنا الا اذا لاحظنا مثلا تبعية الفتاة المسلمة فى كثير من بلاد الشرق العربى لكل ما يظهر فى أوروبا أو أمريكا من أزياء ، فما ان ترتدى الزى احدى (المانيكان) قصيرا بمقدار سنتيمتر واحد ،

حتى تبادر فتياتنا الى تقصير اثوابهن بمقدار شبر واحد !!

ليس المهم ملاحظة أن تقصر الفتاة أو تطول ثوبها بحكم (الموضة) الشائعة ، فاذا لم تفعل عدت متخلفة ، وانما المهم ملاحظة هذه السيطرة التي توفرت للوك الأزياء ، وأكثرهم صهيونيون ، على فتياتنا المثقفات بخاصة ، حتى كأنهن جميعا أعضاء في جوقة موسيقية واحدة ، وأمامهن (مايستروا) كلما أشار بأصبعه أو بعصاه تحرك العازفون والعازفات في اتجاه العصا ، كالقطيع .

ودلالة هذه التبعية أخطر مما قد يبدو في ظاهر الأمر ، لأن تأثيرها يشمل كل القيم التي يقدسها المجتمع في شخص المرأة ، قيم الحياء ، والانوثة الواعية ، والصدر غير المتعرض لذباب الاعمين ، وقيم التماسك ، والالتزام في تربيتها ، وقيم الجيل الناشئ على يديها ، وهو الذي ننشده لفد هذه الارض ، ومستقبل هذا الدين ، وبكلمة واحدة ، وبلا مغالاة : نحن هكذا محكومون من عمق مجتمعنا للوك الأزياء ، ودولة المائكان .

ومع ذلك ، قد يقال : ان مسألة الزى أقل خطرا من غيرها ، فهي على أية حال مسألة غلاف . . . أما غيرها ، كقضية المعتقدات التي تزيف للأجيال الناشئة ، وجوهرها تحطيم لدينها . .

وقضية الروح المنهزمة أمام انتصارات العلم في غير بلاد الاسلام ، الروح التي تقف متضعضة مبهورة أمام منجزات الانسان الاوروبى أو الأمريكى .

وقضية الحرية الفكرية المعدومة في فلسفة التربية ، حتى أصبح كل هم المدارس انتاج نماذج مصبوبة في بوتقة التبعية والتقليد . . وقضايا أخرى كثيرة ، كلها أهم من قضية المبنى جيب ، أو الميكروجيب .

وبرغم ذلك لا نكاد نلمح أدنى فاصل بين هذه القضايا جميعا ،

فالمصنع المنتج واحد ، وهدف التصدير واحد ، والمستهلك واحد
أيضا ، هو الانسان المسلم .

والمشكلة بالاضافة الى هذا كله أن أكثر كتابنا أصبحوا يرون
في قيام هذه الحالات شيئا مألوفا غير جدير بالمناقشة ، أما زهدا
في الدنيا ، وأما يأسا من الاصلاح ، وأما تعودا على المشاهدة
اليومية ، كما يتعود المدمن تأثير المخدر . وكأنهم المعنيون بقول
الشاعر :

ومن يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

واقول : (أكثر كتابنا) . لأن هناك (قلة) نصبت أقلامها للذود
عن المستقبل ، والدفاع ضد التيار المخرب ، متحملة في ذلك عنت
الفساد وسلطانه ، ومتحدية في المجتمع مراكز استيراد الأفكار ،
وعناصر اللامبالاة ، وهؤلاء القلة لا تكاد - والحمد لله - تخلو منهم
أرض الاسلام ، يكتبون بكل لغة ، ويحاربون في كل معركة ، إيماننا
منهم بوحدة المقاتلين أمام الخطر الزاحف .
ومن هؤلاء القلة مؤلفنا هذا ، الذي يدخل اسمه لأول مرة حقل

اللغة العربية ، بنشر ذلك الكتاب : (الاسلام يتحدى) ، وإن كان
لاسمه رنين مدو في شبه القارة الهندية ، باعتباره ثالث اثنين ،
يتولون قضية الاسلام المعاصر في وجه الزحف الفكري : أبو الأعلى
المودودي ، وأبو الحسن الندوي ، ووحيد الدين خان .

والحق أن علماء باكستان والهند المسلمين قد اتيح لهم أن
يتصلوا اتصالا مباشرا بمصادر المعرفة الحديثة ، حتى أصبحوا من
أعلامها ، وهم في هذا يضارعون أكثر علمائنا العرب اتصالا بثقافة
الغرب ، مع فارق جوهري ، في رأينا ، وهو أن الأولين الذين
نشير اليهم لم يفرقوا أنفسهم في المعرفة الأكاديمية ، لتستولى من

بعد على عقولهم وأقلامهم ، وليصبحوا مجرد ناشرين ، أو مفسرين ،
أو حتى معلقين ، على ما يقدمون من فكر الغرب وعلومه .

لقد وقف هؤلاء عمالقة في وجه التيار ، وانغمسوا في مشكلات
الجماهير ، وحاولوا أن يقدموا لهم تصوراتهم من أجل المستقبل ،
ومن أجل تحريك الثورة الفكرية في كيان الإنسان المسلم ، فهم في
الحقيقة كتاب ثوريون ، ذوو أصالة ووعي وإيمان .

وليس من السهل أن نقول : أنهم جميعا يمثلون طريقة واحدة
في الأداء ، برغم أن هدفهم واحد ، فان لكل منهم أدائه الخاص ،
وطريقته الفذة التي عرفت بها الجماهير المسلمة .

وحسبنا أن نقرأ هذا الكتاب الجديد ، لنذكر أنه يمثل عقلا ،
وثقافة ومنهجاً ، يختلف بها مؤلفه عن جميع من عرفنا من الكتاب
المعاصرين .

ولعل من المناسب أن أورد هنا ما كتبه المؤلف في صحيفته
(الجمعية الأسبوعية) في عدد ٧ من فبراير ١٩٦٩ ، موضحاً الدور
الذي يحاول أن يقوم به ، قال :

« ان المشكلات التي يواجهها الاسلام في هذا العصر ، منها ما هو
علمي ، يوجه اليه بلغة العلم ومصطلحاته ، ولذلك كان لزاماً أن نضع
اجاباتنا في مواجهة هذه الحملات المسعورة بنفس المصطلحات العقلية
والعلمية التي يستخدمها المعارضون للدين . ولا زال هذا الميدان ،
منذ أمد طويل مجالاً لنشاطي واهتمامي ، حتى كان آخر ما كتبت :
(الاسلام يتحدى) .

« والميدان الثاني لنشاطي هو ما نسميه بميدان بناء الأمة
الاسلامية وتعميرها ، والعمل على نهضتها ، وعلينا في هذا المجال
أن نكشف العلل ، ونمحص الأسباب السياسية والاجتماعية التي

أدت الى سوء أحوال المسلمين ، ثم وضع خريطة للمستقبل ، بعد الوقوف على أسباب النكسة التى أصابتنا ، وتقوية الشعور القومى لدى المسلمين (فى شبه القارة الهندية) ليربط بين مختلف أنشطتهم فيجعلها مجموعة معنوية متكاملة ، وحثهم على مواصلة الجهد لتكون منهم أمة قوية جامعة فى العالم .

« وبكلمة أخرى ، نحن نصبو الى بعث الأحلام التى رآها أسلافنا خلال كفاحهم وتحقيقها ، لاعلاء شأن الأمة المسلمة ، وهى الأحلام التى لم تتحقق ، لسبب أو لآخر .

« وهذه هى المهمة الفكرية التى تضطلع بها صحيفتنا (الجمعية الأسبوعية) ، ويمكننا أن نقول بحق : ان هذه المهمة قد أصبحت أكبر ميزة خاصة لجريدتنا فى المجال الصحفى ، فى هذا العصر ، على حين أصبحت الصحافة الإسلامية علما على الرثاء ، بل ان آخر ما تستطيعه هذه الصحافة هو مجرد التعليقات السياسية على الأحداث العامة ، وتقديم بعض المعلومات الطريفة التى يتشوق اليها العامة من القراء . ففى هذا المناخ الصحفى تعتبر (الجمعية الأسبوعية) الصحيفة الوحيدة التى تعمل على إحياء وتقوية الشعور القومى لدى المسلمين ، باحثة عن مواطن الخطأ فى كفاحهم الحضارى ، ونحن لا نجد كلمات نشكر الله بها ، على أنه - سبحانه - اختارنا بمشيئته لسد هذا الفراغ » .

فالرجل كما نرى صاحب دعوة ، يريد ابلاغها الى ضمير الأمة المسلمة بلاغا يحركها نحو أهدافها ، ويوحدها أمام الأخطار ، وهى دعوة ذات شقين ، أحدهما يستنفد العمر كله ، ولكنه يعمل لتحقيق كليهما بوسائله المتاحة : أن يكتب كتبا ، وأن يسخر مجلة أسبوعية والواقع أن كتابه هذا يعتبر تحقيقا لحلم طالما راود كتاب العقيدة والمدافعين عنها ، فقد كانت محاولات السابقين للبرهنة

على وجود الله ، وإثبات الرسالة ، وما يتصل بهما من حقائق
ميتافيزيقية - وقد وقفت عند جهود علماء الكلام ، باستخدام
الأقيسة المنطقية ، التي بليت لطول مالاكتها الألسن ، وأصبح
مجرد التحدث بها داعية الى الملل منها ، بل ان لغتها لم تعد
مفهومة للشباب الاسلامي ، الذي يعيش في هذا العصر ظروفًا
تتغير من يوم لآخر ، وتطالعه ثقافات ذات جدلية ماهرة ، ومناهج
علمية تجريبية لم يعد العقل يقنع بدونها .

لقد أصبح كل شيء موضع شك . وبذلك سقطت القضايا
القائمة على المسلمات المنطقية لأنه لا شيء في العقل الحديث بمسلم
منطقيا الا وله نقيض منطقي يمكن أن يتحمله العقل . أما التجربة
فهى الدليل الذى لا يدفع على قضيتها ، وما ينتج عن التجربة ليس
مسلمًا منطقيًا ، ولكنه حقيقة نسبية موضوعية ، وهذا شأن العلم ،
ومن هنا كان لابد من تغيير المناهج الكلامية ، لاشباع رغبات متجددة
في اليقين ، تريد أن تؤسس موقفها على أرض من المعرفة الجديدة
التي اخترقت الآفاق ، وقاست أبعاد النجوم ، وتغلغلت في أسرار
المادة ، حتى حطمتها واستخرجت منها طاقات لا حدود لها .
واذا قيل : ان قضايا علم الكلام هى قضايا الغيب المطلق
المحجوب الأسرار ، ولا يعقل ان يكون للتجربة دور في معالجتها ،
تذكرنا في رد هذا الراى ما قاله عربى يعيش على فطرته ، وينطق
على سجيته ، دون أن يكون قد ألم بشيء من منطق أرسطو :

« البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ، فسماء ذات
أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل كله على
الله اللطيف الخبير » ؟؟ .

وكلمات هذا الأعرابى الصق بالمنهج التجريبى ، القائم على
الملاحظة ، وأقرب الى التأثير فى النفس ، وأقدر على اقناع العقل .
من أية صيغة قياسية - ما فى ذلك شك .

لقد أصبح سيئاً للغاية أن ينطق رجل الدين أمام الناس ، أو أمام الطلاب بقضايا متقدمة ، قال بها الأولون ، دون أن يحاول مزج المعرفة التقليدية بالجديد ، وأكثر ما تتجلى هذه المعرفة التقليدية في علم التوحيد أو الكلام ، أو مباحث العقيدة ، على اختلاف المصطلحات ، حيث يصر بعض الأساتذة على حكاية النزاع بين المعتزلة وأهل السنة ، والرق بين الأشاعرة والماتريدية ، ووجهة نظر الخوارج والشيعة ، والخلاف بين الجبرية وغيرهم ، وتناقض ما بين العقل والنقل أو تساندهما ، وكل ذلك دائر في حلقة مفرغة بعيدة عن مجال تفكير الشباب المتحول ، لأن هذا الكلام كله قد أدى وظيفته على خير وجه ، حين كان جزءاً من صراع عصره حول المفاهيم والقيم ، فلما مضى عصره أصبح جزءاً من تاريخ الفكر ، لا أساساً من أسس النقاش الحي النابع من التجربة المعاشة .

ولذلك يعجز هذا الكلام عن اقناع ملحد حديث بخطئه ، لأن أسباب الحاده ليست من موضوعات الكلام ، فالجدل الحديث لا يتناقش حول الجوهر والعرض ، ولا حول القدم والحدوث ، وإنما هو يتناقش حول حتمية المادة، ووجود المادة الواقعية والمادة العقلية والعلاقة بين المادة والحركة ، حين ينتهى كل موجود مادي في حقيقته الى حركة ، والاحتمالات الرياضية لتأثير الصدفة في نشأة الكون ، وامتداده ، وحتمية التطور . وحقيقة الوجود في ضوء الإدراك الجديد لنسبية الظواهر الكونية ، وأهمها الزمان، ذلك البعد الرابع الذى كشفه اينشتاين ، والتوقعات العلمية لوجود عوالم أخرى غير عالمنا ، في سمائنا ، وفي السماوات الأخرى ، التى يدركها العلم ، أو يحس بوجودها ، ويحاول معرفة شيء عنها الخ .

فاذا لم تكن هذه القضايا الجديدة هى محور النقاش في قاعات الدرس الجامعى . الذى يصوغ عقول الشباب فمعنى ذلك أن جامعاتنا تعمل في فراغ ايدىولوجى ، وتخرج للمجتمع نماذج خربة ،

واهنة أو مشوشة أو يائسة من جدوى العقيدة في بناء المجتمع الجديد ، نماذج تحس في أعماقها بالجفاف الروحي ، فهي لم تظفر بأرضية من الفكر الديني تقف عليها مطمئنة في مواجهة رياح التغيير العاصفة ، أما لأنها محرومة من هذا اللون من الدراسة ، وأما - وهو الاخطر - لأنها غير مقتنعة بما عرض عليها من موضوعاته . وينتهي الأمر بهذه النماذج الى أن تتبعثر في الفراغ ، وتحس باللامبالاة تجاه مسائل العقيدة ، لأن أسلم الطرق الاتبالي ، فالهرب أسلم المسالك .

والغريب أن هذه الحال قد طفحت على سطح المجتمع منذ أوائل القرن التاسع عشر ، حين بدأ اللقاء والاصطدام بين ثقافتى الشرق والغرب يواجه مبعوثينا الى أوروبا ، على عهد محمد على - في مصر ، وتعرضت أعمال روائيه ، منذ ذلك العهد ، وحتى يومنا هذا ، لتصوير التمزق الفكرى ، الذى يعانيه هؤلاء المبعوثون ، من أمثال : تخليص الأبريز - لرفاعة الطهطاوى ، وعلم الدين - لعلى مبارك ، وحديث عيسى بن هشام - لمحمد المويلحى ، وقنديل أم هاشم - لىحى حقى ، وعصفور من الشرق - لتوفيق الحكيم ، ومليم الأكبر - لعادل كامل فانوس ، أى أن المشكلة ثائرة وملحة من قديم ، دارت حولها روايات قيمة . ومع ذلك لم يبحث لها المفكرون الدينيون عن حل ، ولم يعرضوا لها بمناقشة لاستكناه أسبابها ، على حين اكتفت الأعمال الروائية بالتقاطها وتصويرها . والخطر بهذه السلبية الى تفاقم ، والخراب الى استفحال ، والضحية دائما هو الانسان المسلم .

اليس غريبا أن يكون بعض عتاة الملاحدة في مجتمعاتنا ممن يمتون الى أسر ذات اتصال بالدراسة الدينية ؟!! وان تنشر مجلة أسبوعية أن احدى المانيكان تمثل جامعة الأزهر الشريف ، ثم تأتى بصورتها فاذا هى ترتدى ما ترتديه بنات باريس (١) !! ودعك من أن

(١) انظر العدد الصادر من جريدة أخبار اليوم فى ٢٩ من نوفمبر ١٩٦٩ .

تكون احداهن فتاة غلاف ، تنشر لها صورة عارية ، أشبه بصورة السابحات الفاتنات ، وهى من بنات العلماء ؟ (١) انهم جميعا ، وأضرابهم ، نتاج هذا الانفصام بين الفكر الدينى وقضايا العصر ، بحيث لم يأخذ هذا الفكر شكل ثقافة حية تجمع بين المعرفة والسلوك ، أى أن هناك عجزا شائنا فى الثقافة المستخدمة للاقناع ، على حين استطاعت الثقافات الأخرى أن تجتازهم لمعسكرها ، لأنها صادفت فراغا فتمكنت ، بصرف النظر عن جدية الأشخاص أو هزليتهم وتفاهتهم ، وأحد أسباب هذا الانفصام أيضا أن من يتولون سدانة الفكر الدينى لم ينهضوا لمواجهة تحدى العصر ، ربما لأنهم فعلا غير فاهمين لرسالاتهم ، الا على انها استحضار لماض أثرى لا علاقة له بحاضر ، وربما لتوهمهم أنه لا تحدى أصلا ، بل كل شئ هادىء على الجبهة !! والدنيا بخير والحمد لله !! . . فالمشكلة من هذه الواجهة أزمة فى الشعور الذى يؤدى حين يكون سويا الى الأرق المنتج ، والقلق الخلاق ، فأما حين لا يكون هناك شعور فان الدين يتحول عند بعض رجاله الى باب سخرى للواجهة والارتزاق ، وعند بعضهم الى سلبية قاتلة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولست انكر أن محاولات جادة قام بها بعض العلماء القلقين على مصير الانسان ، فى الشرق والغرب ، من أجل البرهنة على وجود الله على أساس علمى ، ولكن قضية الدين ليست هى قضية (وجود الله) فحسب لا وراء فى أن الايمان بوجود الله سبحانه أساس ومنبع ولكنه يستتبع الايمان بقيم أخرى ومبادئ ، دعا اليها الرسل . وحثت عليها الأديان ، وأهمها ضرورة الايمان بوجود كائنات غير الانسان ، دل عليها الدين وسماها (الملائكة) الملهمين الخير ، وكائنات أخرى غير الانسان والملائكة دل عليها الدين ، وسماها الجن ، ومنهم (الشياطين) - النازغون بالشر ، وضرورة الايمان بالغيب ، وباليوم الآخر . وما يتصل به من جنة ونار ، وحساب ،

(١) أخبار اليوم ٢٥ من أكتوبر ١٩٦٩ .

وثواب وعقاب ، بل ما يسبق ذلك من قيامة ، هى فى حقيقتها دمار
للدنيا ، وتحطم للكواكب والنجوم ، وضرورة التزام شريعة الله ،
التي جاء بها الرسل ، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، متى
صح الايمان بوجود الله ، مالك الملك ، ومنزل التشريع بالحلل
والحرام ، وفى كلمة واحدة : ضرورة اقرار ما علم من الدين
بالضرورة .

وهكذا نجدنا امام كل مترابط ، لا يمكن انفصام اجزائه ، الا على
طريقة بنى اسرائيل ، الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .
ولقد وجد فى المجتمع الاسلامى فعلا هذا الصنف من الناس ،
الذين يحدثونك بأنهم مؤمنون بالله ، وكفى ، ولا داعى لمطالبتهم
بأكثر من هذا !! وهم يواجهون من يدعوهم الى الالتزام بأوامر الله
ونواهيه : بأن الهدف من هذا هو تزكية النفس ، وعدم اذاء العباد
فاذا تحقق هذا الهدف بوسيلة أخرى كالثقافة مثلا كان فى ذلك
غنى عن الالتزام بالتكاليف ، لأن هذه هى روح الدين !! . وغاب
عنهم ، أو تجاهلوا ، ان العبادة فى حقيقتها ثمرة الايمان بالله ،
وتأكيد لعبودية الانسان له ، وان الله سبحانه قد اختار لعباده أن
يخاطبوه ويقدموه بكيفية معينة ، لا خيار لهم فيها ، بصرف النظر
عن تحقيق مصلحة معينة لهم من العبادة أو عدم تحقيقها : (وما
خلقنا الجن والانس الا ليعبدون) (١) فمصلحة الانسان العليا فى أن
يرضى خالقه بانفاذ أمره ، والتزام طاعته .

فهذا صنف من الناس يجترىء من الدين بما لا يقتضيه تكلفه :
أن يقول : آمنت بالله - فحسب ، وهو يستعمل مسألة تسليمه
بوجود الله - جل وعلا - ذريعة الى التحلل والانعتاق من سائر
قضايا الدين ، والصدود عنها ، وهو أمر ينبغى أن يلحظ على أنه
من صميم أزمة الدين فى أنفس المثقفين المعاصرين ، لأن الثقافات
الاحادية قد اتخذت لنفسها خطة لثيمة ، فحواها أن دعوة المسلم
الى الكفر تلقى نفورا فى المجتمع الاسلامى ، ويكاد يكون من المحال

(١) الذاريات ٥٦ .

احراز تقدم فيه باعتناق هذه الدعوة ، ولذا ينبغي ان تكون الخطوة
- أولا - تجريد شخص المسلم من الالتزام بالتكاليف ، وتحطيم
قيم الدين الأساسية في نفسه ، بدعوى العلمية والتقدم ، دون
مساس بقضية الالهية مؤقتا ، لأنها ذات حساسية خاصة ، وبمرور
الزمن ، ومع ألف المسلم لهذا التجريد يسهل في نهاية الأمر تحطيم
فكرة الالهية أساسا في عقله ووجدانه - وإذا بقيت افتراضا ، فلا
ضرر منها ، ولا خطر ، لأنها حينئذ لن تكون سوى بقايا دين ، كان
موجودا ذات يوم بعيد .

وهكذا يحكم أعداء الاسلام مخططاتهم ، ويدبرون لتدمير الدين
ومبادئه ، ابتداء من أبسط السنن والواجبات ، وانتهاء الى قضية
القضايا : وجود الله ذاته .

فاذا افرد بعض العلماء مسألة وجود الخالق بالعلاج العلمى
فقليل منهم - فيما أعلم - من تصدى لعلاج هذه القضايا جميعا ،
وبخاصة هذا الكتاب . (الاسلام يتحدى) . واحسب أنه من هذه
الناحية سوف يصبح - متى بلغ عمق المجتمع - دستور الاقناع
الدينى ، أو كما يعبر العنوان الفرعى الذى تخيرناه له : (مدخلا
علميا الى الايمان) .

وقد كان المؤلف منطقيا مع عصره الى أبعد الحدود ، فاذا كان
أقطاب الالحاد فى الفلسفة الحديثة قد وضعوا لضحاياهم مدخلا
علميا الى الكفر ، فلا مناص من أن يحاول هو بحسه الصادق ،
ووعيه بحاجة المسلمين - وضع مدخل علمى الى الايمان ، يعتبر
أساسا لعلم كلام ، أو علم توحيد جديد . وهذا هو الاعتبار الذى
كان من وراء الحماس المخلص ، بذله مترجم الكتاب الأستاذ ظفر
الاسلام خان نجل المؤلف ، واقتضانى أن أعكف شهورا تبلغ سنوات
على مراجعته ، وتحقيق نصوصه الدينية .

ولذلك سوف نجده يعرض (قضية معارضى الدين) بكل حيـدة وأمانة ، حتى لا يتهم من أول لحظة بمخالفة المنهج العلمى ، ثم يبدأ فى مناقشتها معتمدا فى الأساس على الانتاج الفكرى الغربى ، من باب (وشهد شاهد من أهلها) (١) ، مرجئا مسألة استخدام الآيات القرآنية أو الاحاديث النبوية فى آراء الأعداء قبل الأصدقاء .

ولا يتبادرن الى ذهن القارئ أن المؤلف رجل دين متحمس ، يبشر بدعوة الاسلام بأسلوب جديد ، أنه مفكر مصلح يعمل بالصحافة ، رئيسا لتحرير مجلة (الجمعيت الأسبوعية) وما عرضته هنا هو نتيجة تأمل واهتمام مؤرق بمشكلات الشباب المسلم ، حتى أصدر كتابه هذا عام ١٩٦٦ ، وما زال وفيا لقضيته ، مجاهدا فى سبيلها .

ولئن كنا قد ألمحنا قبل بضعة أسطر الى بعض ملامح منهجه ، فإن تنظيم هذا المنهج قد اقتضاه أن يضع قضاياها فى ترتيب منطقى :

فهو قد وضع كتابه علاجا للمشكلات العقيدية التى تواجه البشر ، ولما كان المتوارد على مسرح الأحداث ، مبدأ الدين ، ومبدأ الالحاد ، وكان هو من معسكر الدين - وجب عليه أن يدلف الى هدفه من خلال دعاوى الخصوم ، حتى لا يتهم بتجاهلها ، فعرض فكرة معارضى الدين وبين أسسها البيولوجية والنفسية والتاريخية . ومعنى ذلك أنه يعرض جوهر فلسفات ثلاثة : الداروينية ، والفرويدية ، والماركسية ، وهى المبادئ التى قادت فى مجموعها قطمانا من البشر فى وادى الالحاد ، وانكار وجود الله ، وتأليه المادة .

فاذا بدأ بمناقشة هذه المبادئ سلك نفس السبيل التى سلكتها . فاستقى أدلته من الطبيعة ، ومن البحوث النفسية ، والتاريخية .

(١) يوسف ٢٦ .

وإذا كان أعظم قضايا الدين . بعد الإيمان بالله ، الإيمان باليوم الآخر ، حقيقة غيبية . لا مرأى فيها ، وكانت أهم دعاوى الاتحاد قائمة على انكار هذا اللقاء مع الخالق - فان اثبات إمكان الآخرة ، بالأدلة الطبيعية ، والبيولوجية والتاريخية - هو أيضا من الأدلة القاطعة بصحة الدين ، وبوجود الله ، ومن ثم نجده متألقا في تبيان الحاجة الى الآخرة نفسها ، وأخلاقيا ، وسلوكيا ، حتى اذا استقر في وعى القارئ ضرورة الآخرة كان ذلك طريقا الى اقرار ضرورة الإيمان بالله من جانب آخر . فالآخرة اذن قضية وبرهان في آن .

والمؤلف لا يكتفى في هذا الباب بدليل واحد ، بل هو يقدم بحوثا قيمة في ضرورة الآخرة من الناحية الكونية ، ويسوق شهادات تجريبية ، وبحوثا نفسية وروحية ، تؤكد هذه الضرورة ، كيما يزيد القارئ ثروة في المفاهيم ، ويفسر له آفاق الاقتناع .

ويأتى بعد ذلك دور الرسالة ، وهى الدليل التاريخى على الحقيقتين السالفتين . لأن الرسل هم الذين دلوا عليهما ، قبل أن يخطو الإنسان هذه الخطوات الجبارة في ميدان العلم والتجربة .

ومن الضروري ان نلفت النظر هنا الى أن المؤلف لا يعنى بكلمة (الدين) الا ما عناه الحق سبحانه بها في قوله : (ان الدين عند الله الاسلام) (١) ، فاذا تناولنا قضية الرسالة فمقصده قطعاً رسالة الاسلام ، وكتابتها المعجز : القرآن .

ويعقد في هذا الباب عدة فصول يتحدث فيها عن اعجاز القرآن التاريخى ، والعلمى ، ويورد لمحات كثيرة عن تنبؤات القرآن ، وما تضمنته آياته من حقائق لم يكشف عنها الا في العصر الحديث ، في الفلك ، وطبقات الأرض وغيرهما .

(١) آل عمران ١٩ .

فاذا انتهى من اثبات هذه الصفة العلوية للقرآن ، وأكد به الحقيقة الأولى ، وهى وجود الله ، عقد بابا خاصا بعلاقة الدين بمشكلات الحضارة ، فتناول فى جانب منه مشكلات التشريع ، وعناصره الأساسية ، وتحديد الدين لمفهوم الجريمة ، وعلاقة القانون بالأخلاق ، وبالفرد ، وبالعدل .

ولا يفوته أن يتحدث عن بعض مشكلات الحضارة الحديثة ، كمشكلة المرأة ، والتمدن ، والملكية ، مقارنة فى كل ذلك نظام الإسلام بنظامى الحكم المعاصرين : الرأسمالية والشيوعية .

ويأتى أخيرا حديثه عن مستقبل هذا العالم الإسلامى ، وما ينشده أبنائه من أهداف سامية ، وما ينبغى أن يكون لهم من رسالة فى العالم الحائر ، بين مذاهب الألحاد الواهية المتهاولية ، ودين الفطرة الذى جعله الله ختام الأديان ، وجعل نبيه خاتم المرسلين ، مبينا كيف أدى الألحاد فى المجتمعات الأوروبية الى التحلل ، والتمزق الأسرى ، وتكون طبقات من المجرمين والشواذ ، وانتشار أعصى الأمراض النفسية والعصبية ، جزاء الحرمان من الايمان بالله ، خالقنا ومالكنا ، ويختار لختام كتابه كلمة قبسها عن الأستاذ أ. كريسى موريسون ، اذ قال :

ان الاحتشام ، والاحترام ، والسخاء ، وعظمة الأخلاق ، والقيم والمشاعر السامية ، وكل ما يمكن اعتباره نفحات الهية - لا يمكن الحصول عليها من طريق الألحاد ، فالألحاد نوع من الأنانية حيث يجلس (الانسان) على كرسى (الله) .

- « لسوف تقضى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين » .
- « سوف يتحول النظام الى فوضى » .
- « سوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتمسك » .
- « سوف يتفشى الشر فى كل مكان » .
- « انها لحاجة ملحة أن نقوى من صلتنا وعلاقتنا بالله » .

فهذا هو منهج الكتاب في ايجاز شديد ، وهو منهج يشدني الى ملاحظة هامة أحب أن أضعها بين يدي القارئ . ذلك أن خطوات هذا المنهج ، بنفس الترتيب تكاد تكون طبق الأصل من كتاب أخرجه من قبل مترجما عن الفرنسية ، هو كتاب « الظاهرية القرآنية » ، للمفكر الجزائري مالك بن نبي ، وهي ملاحظة غريبة في المنهج ، لا تنصرف الى مادة الكتابين ، لأن المؤلفين مختلفان في عقليتهما ، وثقافتهما ، وطريقة معالجتهما لهذه القضايا الدقيقة ، حتى أني أكاد أقطع بأن المحاولتين من حيث المصادر والمادة والأسلوب متباعدتان تماما ، أحدهما عن الأخرى ، بعد ما بين الجزائر والهند ولم يحدث أن التقى الرجلان في صعيد واحد ، فيما أعلم . وتفسير هذا التوافق ينحصر في توارد الأفكار على مشكلة واحدة .

بيد أن ذلك لا يمنعني من أن أقرر أن كلا الكتابين صادر عن نفس الاحساس بضرورة وضع منهج جديد للاقتناع الديني ، وكلاهما توافرت فيه المنهجية الحديثة ، وموضوعهما مشترك كذلك ، والروح الكامنة في مضمونها روح ناثرة ، مؤمنة .

وحسب الشباب المسلم من هذه الملاحظة دليلا على أن روح الاسلام طاقة لا يمكن أن تخمد ، وستظل تصنع المعجزات ، برغم التفوق المادي الذي حققته مجتمعات الملاحدة المعاصرين .

نعم . . ان هذا التوافق العجيب بين مفكرين من اكابر مفكرينا يكاد أن يكون من بدائع الروح الخالدة ، روح الاسلام ، وأقول : الخالدة ، لأن الروح طاقة ، والطاقة لا تفنى ، وذلك وعد الله : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (١) .

والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .
وصلى الله على محمد خاتم النبيين .

ديسمبر ١٩٦٩

عبد الصبور شاهين

تمهيد

الموضوع الذي سندرسه في الصفحات التالية ليس بجديد بالنسبة الى اللغة الاردية . ولكن المؤلف يشعر بأنه لا يزال ناقصا ، رغم الجهود الطيبة التي بذلها بعض الكتاب .

والعصر الحديث يسمى : « عصر الالحاد » ، لانكاره الدين . . وهذا الالحاد ليس محض ادعاء . بل يرى أصحاب نظريته أنها طريقة بحث ودراسة ، اهتدى اليها الانسان ، بعد التطور الحديث في ميادين العلم المختلفة ، وهذه « الدراسة التطورية » لا تهدف الى اثبات نظرية ما أو انكارها ، وانما هي منهج خالص في البحث ، أثبت لأصحابه أن الدين باطل ، ويمكن أن نفهم هذه الطريقة الجديد قى ما قاله ت. ر. مايلز :

« ان الدراسة الجديدة هي تكنيك ومنهج ونمط معين لمواجهة الأسئلة ، وهي لا تستهدف وضع اجابات قطعية . وهو - من هذا الوجه - تغير هام طرا على الفلسفة في النصف الأخير من هذا القرن ، ولسوف يبقى هذا التغير مستمرا ، دون أمل في توقفه على المدى (١) البعيد » .

ولابد لباحثينا اذا ما أرادوا البحث في العلوم الحديثة ، دفاعا عن الدين ، الا يغيب عن أذهانهم هذا التفسير ، سواء اعتبرناه تفسيراً علمياً محضاً توصل اليه المفكرون المحدثون ، أو اعتبرناه مجرد ملجأ جميل ، ركنوا اليه ، حين اخفقوا في البحث عن التفسير المادى للكون ، بعد انكار الدين .

وعلى سبيل المثال : أن الأعمال التي قام بها علماءنا لاثبات النبوة ، تفترض مقدما أن العصر الحديث يدعى : أن محمدا صلى الله عليه وسلم « كان نبيا كاذبا » ، فيبدؤن في جمع كميات كبيرة

من المواد التي تثبت أن محمداً كان : (نبيا صادقا) ومغزى القول :
(كان محمد نبيا كاذبا) هو أن هناك أنبياء آخرين صادقين ، على حين
يشك الإنسان الجديد في المبدأ نفسه ، فهو لا يؤمن بالنبوة أصلا .
فأما « النبي الكاذب » False prophet فهو اعتراض قديم جاء به
اليهود والنصارى ، الذين يؤمنون بأنبيائهم ، وينكرون نبي الإسلام
وأما العقل الحديث ، فلا يبحث عما إذا كان محمد نبيا « صادقا
أو كاذبا » ، وإنما يبحث عن منبع كلامه النبوى ، وينتهى ، اعتمادا
على المناهج المعروفة ، الى أن مصدر هذا الكلام الغريب هو
« اللاشعور » . . وهو يرى أن التعبير عن كلام اللاشعور بالوحي
والإلهام يصلح أن يكون استعارة جميلة ، ولكنه يستحيل اعتباره
واقعا حقيقيا .

ولذا فإن مهمتنا لا تنتهى عند اثبات صدق نبوة رسول السلام
بل علينا أن نضطلع بالبحث عن الوحي والإلهام ، ونثبت أن الوحي
ينزل على أناس معينين ، من بينهم نبي الإسلام .

كان هذا موقف من يتصدى لنقد الفكر الحديث ، دون فهم
موقفه من القضية . وهناك نوع آخر من علمائنا يدركون موقف
الفكر الحديث من قضية الدين . ولكنهم ، لشدة تأثرهم بالفكر
الحديث ، يرون أن كل ما توصل اليه أئمة الغرب يعد من (المسلمات
العلمية) ، ومن ثم تقتصر بطولتهم على إثبات أن هذه النظريات ،
التي سلم بها علماء الغرب ، هي نفس ما ورد في القرآن الكريم ،
وكتب الأحاديث الأخرى . وهذه الطريقة في التطبيق والتوفيق بين
الإسلام وغيره ، هي نفس الطريقة التي تتبعها شعوب الحضارات
المقهورة تجاه الحضارات القاهرة . وأية نظرية تقدم على هذا النحو
يمكنها أن تكون تابعة ، ولكنها لا يمكن أن تكون رائدة . ولو خيل
الى أحدنا أنه يستطيع أن يغير مجال الفكر في العالم بمثل هذه
المحاولات التوفيقية ، ليشرق على البشرية نور الحق ، فهو هائم
ولا شك في عالم خيالى ، لا يمت الى الحقائق بسبب ، فإن تغيير

الأفكار والمعتقدات لا يأتي من طريق التلفيق ، بل عن طريق الثورة الفكرية .

وهذه الحالة تورطنا بصورة أكبر عندما تتعلق المسألة بجانب أساسي وهام من أفكار الدين ، فلا بأس بأن يقوم أحدنا بتفسير جديد لظاهرة « الشهاب الثاقب » التي وردت في القرآن ، حين يجد كشفاً في علم الفلك الحديث ، ولكننا لو قبلنا نظرية كلية شاملة ، وذات علاقة بالمشكلات الأخرى التي تثار حول الدين ، فسوف يكون لذلك تأثير عميق وكلي في هيكل الفلسفة الدينية نفسه .

وأوضح مثال في هذا ، هو تلك الجماعة من علمائنا الذين قبلوا « نظرية النشوء والارتقاء » ، لأن علماء الغرب أعلنوا اقتناعهم الكامل بصدقها ، بعد دراساتهم ومشاهداتهم . . واضطروا ، بناء على هذا ، إلى تفسير جديد للإسلام في ضوء النظرية الجديدة ، وحين احتاجوا إلى لباس جديد ، قاموا بتفصيل ثوب الإسلام مرة أخرى ، ولكنه ثوب مشوه المعالم ، لا أثر فيه من روح الإسلام ، التي ضاعت مع الأجزاء المقطعة في عملية التلفيق الجديدة .

إن نظرية النشوء والارتقاء تستهدف إقرار فكرة التطور بصفة مستمرة بحيث تبلغ الحياة أوجها عند النهاية . وبناء على هذا : لابد من أن تحدث الأحوال السيئة في الماضي ، لا في المستقبل ، ويروق لهذه النظرية حياة الخلود في الجنة ، ولكنها لا تقبل الخلود في نار الجحيم . ولذا أدعى العلماء المسلمون ، الذين قبلوا هذه النظرية ، أن الجحيم ليست مكاناً للعذاب ، وإنما هي مركز للتربية والتزكية ، فالحياة تواصل مسيرتها في مواجهة الصعاب والمشكلات . والذين لم يستطيعوا مواصلة مسيرتهم بسبب عوائق الذنوب ، سوف يمرون بأحوال الجحيم الصعبة ، حتى يواصلوا رحلتهم التطورية خلال الحياة القادمة . ومن هنا ترى هذه الطائفة أن قوانين الملكية - مثلاً - في الإسلام ، ليست إلا « أحكاماً مؤقتة » ، فإن هذه القوانين لا تتفق ونظرية التطور الاجتماعي .

ويمكن فهم نوعية الأعمال التى قام بها بعض علمائنا من
المثاليين المذكورين ، فهى أعمال ناقصة ، رغم الجهود التى بذلت فى
صوغها . ولا يدعى المؤلف أن محاولته تخلو من النقائص . ولكنه
يقول : ان المحرك الحقيقى لمحاولته هو شعوره بأن عملا من هذا
القبيل كان لابد أن يكون .



ان الطريقة التى يتبعها الكتاب للدفاع عن الدين ذات وجهين :
فكرية وتجريبية ، وبعبارة أخرى : فلسفية وعملية ، ان صح
التعبير . وقد راعى المؤلف الطريقة الثانية ، وهى التجريبية أو
العلمية . والسبب فى ذلك أن مكتبتنا تزخر بمجلدات ضخمة من
الكتب التى وضعت على المنهج الأول ، على حين يوجد نقص شديد
فى الكتب من المنهج الثانى .

واننى لأشعر بأن المضمار الفسيح الذى هيأته الدراسات
العلمية الحديثة لاثبات الدين ، هو تصديق لما جاء فى القرآن ، فى
سورة النمل : « وقل الحمد لله ، سيريكم آياته فتعرفونها » . وهذا
الكتاب محاولة لاستغلال الامكانيات الجديدة لصالح الدين بطريقة
منظمة



وهذا الكتاب ليس دراسة موضوعية ، بل هو دراسة ذاتية ،
بناء على التقسيم الجديد للكتب . وهذا الواقع ، كما يرى العقل
الحديث ، هو ، من تلقاء نفسه ، صوت ضد الكتاب ! فكيف يمكن
الاعتماد على دراسة ذاتية ، قدمها عقل يستهدف اتجاهها معيناً ؟
وجواباً على هذا الاعتراض ، الذى قد يشار ، لنقل هنا عبارة
للمستشرق النمساوى المسلم محمد أسد فى مقدمة أحد كتبه :

« ان هذا الكتاب لا يستهدف مسحاً محايداً للمسائل بل هو عرض لقضية هي قضية الاسلام في مواجهة الحضارة الغربية » (١)

وعلى الرغم من الأحكام التي قدمها علم النفس حول امكان أن يكون المرء محايداً في أبحاثه ، أو لا — فأننى أسلم — نظرياً — بأنه لابد لكل مؤلف أن يبذل قصارى جهده ، لكي يكون محايداً ، من أجل الوصول الى نتيجة ما ، وهذا هو ما يقصده كل كاتب أمين . لكن هذا الكاتب نفسه ، عندما يجلس الى مكتبه — فى الواقع — لا نجده باحثاً عن الحقيقة اثناء كتابته ، بل يكون قد توصل الى أحكام محددة المعالم .

وهناك طريقة أخرى ، هي أن يسرد المؤلف قصة بحثه بجميع مراحلها ، غير أن اعتبار مثل هذا الكتاب محايداً لا يعدو أن يكون قناعاً مزرکشياً تختبئ تحته أهداف المؤلف . فليس هناك من كاتب يبدأ دراسته عندما يبدأ الكتابة ، وإنما هو يعرض نتائج بحثه فى كتابه . فالكتاب إنما يكون ذاتياً أو موضوعياً ، بالنظر الى طريقة ترتيبه للموضوعات ، ولا علاقة لهذا الترتيب بحياد البحث أو موضوعيته .

لقد وردت كلمة « الدين » كثيراً فى هذا الكتاب ، وليس لأحد أن يغالط فى هذا الموضوع . فان الكتاب يدور حول موضوع عام ، ولذلك كان لاستعمال الكلمة العامة أهميته . أما ذهن المؤلف . فإنه لا يقصد بالكلمة شيئاً وهمياً . وإنما يعنى (الدين) المعتمد عند الله تعالى الآن ، وهو دين الاسلام . وأنا حين أطالب مواطنى هندا بمراعاة القانون ، فليس معنى ذلك أنه تكفيه مراعاة قانون ما ، أو أى جزء من دستور الهند ، وإنما عليه مراعاة ذلك القانون الذى يعتبر دستور البلاد الرسمى ، وهكذا ، فالمراد بالدين العملى اليوم

هو الاسلام ، مع انه من الممكن اطلاقه على أى شىء عرف في التاريخ بذلك الاسم ، ولكن الدين الذى يجلب رضا الله تبارك وتعالى ، والذى يكفل لمعتقيه نجاة الآخرة ، هو الاسلام لا غير .

لقد تعرضت لسؤال بعد محاضرة ، ألقيتها في إحدى الجامعات ذات مرة ، وكنت اشرت في محاضرتي الى مقال لفرويد ، فوقف استاذ في علم النفس ، أثناء فترة الأسئلة . وقال : « انت اشرت الى مقال لفرويد ، تأييدا لنظرية دينية ، على حين يعارض (فرويد) معارضة كاملة تلك النظرية التى تمثلونها » .

ومن الممكن اثارة هذا السؤال ، حول هذا الكتاب ، على نطاق أوسع . . فهناك اقتباسات كثيرة وردت فيه ، ومن الجائز الا يوافق أصحابها على النتائج التى توصلت اليها . وعلى سبيل المثال : الاقتباس الذى ورد في آخر الباب الخامس « دليل الآخرة » . ولكن هذا الاعتراض غير ذى موضوع ، لأن المؤلف لا يدعى أن هذه الشخصيات تؤيد قضاياها . . وبكلمة أخرى ، لم يقل المؤلف . أن هذه القضية ، أو تلك ، صادقة لأن فلانا يصدقها أو يؤيدها . وعلى العكس من ذلك ، فان جميع هذه الاقتباسات قد استعملت توضيحا لدليل أو قضية ، فقد يعبر المؤلف عن قضية معينة بألفاظه تارة ، وقد يستعير ألفاظ الآخرين حتى يتبين الموضوع ، تارة أخرى .

والاتجاهات التى تمثلها هذه الاقتباسات ليست بآراء ذاتية لأصحابها ، وانما هى كشوف علمية ، يمنحها الملحدون معانى مختلفة ، أما نحن فقد جمعناها حين شعرنا أنها في صالح الدين . وأما الاقتباسات التى تؤيد الدين صراحة ، فأكثرها لعلماء يدينون بالمسيحية ، ولا عجب ، فهم يشاركوننا في كثير من العقائد السماوية .

وواضح من عنوان الكتاب ، أنه يهدف الى اثبات احقية الدين امام الفكر المادى الجديد . وهذا الاثبات يتخذ لنفسه اسلوبين : أولهما . أن نستدل بأن الدين ليس (ماديا) ، بل فوق المادة ، وبناء على ذلك ليس للعلوم المادية أن تعترض طريق الدين . وقد أصبح هذا الاستدلال فى غاية القوة ، حيث أن العلماء قد اعترفوا فى هذا القرن : « بأن العلوم المادية لا تعطى الا علما جزئيا عن الحقائق » . ومغذاه أنه ، بناء على اعتراف هذه العلوم نفسها ، هناك حقائق أخرى ، لا تستطيع العلوم المادية الوصول اليها ، ومنها حقائق الدين . ويعتبر كتاب « ج.و.ن. سوليفان » خير محاولة فى هذا الموضوع ، وسوف نستعرضه فى الباب السابع من هذا الكتاب .

وأما الطريقة الأخرى لاثبات حقائق الدين ، فهى اتباع نفس الطرق العلمية التى يتبعها العلماء الملحدون لاثبات معتقداتهم ، وقد ركز المؤلف أهمية أكثر على هذا الجانب . . فهو يرى : أنه لابد من اتباع نفس أساليب الاستدلال التى يستغلها الملحدون ، حتى يمكن اثبات احقية الدين .

وهناك ناحية أخرى لابد من توضيحها هى أن الأسلوب الذى سلكه الكتاب قد يكون غريبا على بعض الأذهان ، من علماء الدين . وإذا كان الأمر كذلك . فانى أقول : أنه لابد من مراعاة حقيقة ، هى أن هذا الكتاب لا يستهدف تفسير الدين ، بل هو وليد ضرورة كلامية ، فالأسلوب الذى يسلك عند تفسير الدين أمام أصحاب الفطرة الدينية المؤمنة ، غير الأسلوب الذى يستخدم عندما يكون الحاضرون ممن يزعمون أن الدين خدعة وأضحوكة وتخدير للشعوب ، فكلما أردنا مواجهة الأسئلة التى تثار ضد الدين ، كان لابد من تغيير لهجتنا ولفتنا ، بتلك التى يستغلها الأعداء ، حتى نستطيع أن نقف أمام العواصف ، وعلينا ألا ننسى أن طريقة الكلام وأسلوبه قد تغيرا بتغير الزمن ، وذلك علينا أن نأتى بعلم كلام جديد لمواجهة تحدى العصر الحديث .

وقبل أن أختتم هذا الحديث أرى لزاما على أن أعترف بجميل زميلين من الرفاق - مهديا اليهما هذا الكتاب - وهما من الشخصيات اللمعة التي عرفت بخدمة الاسلام في الربع الأخير من هذا القرن .. وهما : مولانا أبو الأعلى المودودي ، ومولانا السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي . فالفضل يرجع الى الأستاذ المودودي في أنه كان المحرك الذي حثني - بطريقة غير مباشرة - على أن أضحي بحياتي لخدمة الاسلام منذ خمسة عشر عاما ، في أدق مرحلة من مراحل حياتي .. وأما الأستاذ الندوي فهو "ي حملني على القيام بهذا العمل .. فجزاها الله خير جزاء .

وحيد الدين خان

لكنّاؤ - الهند

في ٢٦ أغسطس ١٩٦٤

* * *

الباب الأول

قضية معارضى الدين

« تعتبر التطورات العلمية التى حدثت فى القرن الماضى « انفجارا معرفيا » Knowledge Explosion فى وجه جميع الأساطير الانسانية عن الآلهة والدين كما تفجرت الأفكار القديمة عن المادة ونسفت بمجرد تفجير الذرة » . . هذه هى قضية العلم الحديث الموجهة الى الدين كما يقول البروفيسور جوليان هكسلى (١) . وتعتبر الصفحات التالية ردا على هذا التحدى ، فلقد كشفت أضواء العلم الحديث عن حقائق الدين ، ولم تنجح من أية ناحية فى الاساءة اليه . بل أن جميع ما وصل أو سيصل اليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق لما أسماه الاسلام : « بالحقيقة الأخيرة » قبل أربعة عشر قرنا من الزمان :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » (٢) .



والدين ، كما يزعم الملحدون من العلماء : شىء لا حقيقة له ، وهو مظهر للغريزة الانسانية الباحثة عن حقائق الكون ، والتى تحاول تفسيره . ان هذه الغريزة الانسانية فى ذاتها شىء مستحسن ، ولكن المعلومات والوسائل المحدودة قد انتهت بأجدادنا الى اجابات غير صحيحة ، وهى التى تحتويها الآن أفكارهم عن الاله والدين . أما اليوم ، وبعد ما توفرت لدينا الوسائل العلمية ، وأصلحت المعلومات

(١) Hindustan Times, Sunday Magazine, Sept. 24, 1961

(٢) فصلت ٥٣

الحديثة شيئاً كثيراً من معتقداتنا الاجتماعية والحضارية ، فقد حان الوقت لنعيد النظر في جميع ما وصل اليه أجدادنا من أفكار .



ويذهب الفيلسوف الفرنسي « أوجست كونت » - الذى نشأ فى النصف الأول من القرن التاسع عشر - الى أن تاريخ تطور الفكر الإنسانى ينقسم الى ثلاث مراحل :

الأولى : المرحلة اللاهوتية (Theological Stage) وهى التى فسرت الأحداث فيها باسم الإله .

والثانية : المرحلة الميتافيزيقية : وفيها فسر الإنسان الأحداث باسم « عناصر خارجية » لا يعلمها ، ولكنه لا يذكر اسم الإله .

والثالثة : المرحلة الوضعية (Positive Stage) التى أخذ الإنسان يفسر فيها الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة ، يمكن ادراكها بالمطالعة ، أو بالمشاهدة العلمية . وفى هذه المرحلة لا تذكر « الأرواح والالهة والقوى المطلقة » . ونحن ، بناء على هذا ، نعيش فى المرحلة الثالثة التى تسمى فى الفلسفة الحديثة بالوضعية المنطقية (Logical Positivism) . أن نظرية « الوضعية المنطقية » أو

التجريبية العلمية (Scientific Empiricism) لم تعرف كحركة علمية إلا خلال العقد الرابع من القرن الحاضر ، ولكنها ، كفكرة ، نشأت قبل ذلك بسنين طويلة ، وعلى ظهر هذه الفكرة نجد أسماء كبار العلماء والفلاسفة من أمثال : هيوم ، وميل ، الى برتراند رسل ، وقد أصبحت هذه الفكرة اليوم ، بفضل العدد الكبير من المؤسسات العلمية التى تقوم بدور فعال فى الدعاية لها ، من أهم الحركات العلمية الحديثة . ويقول أحد الباحثين :

« كل معرفة حقة مرتبطة بالتجارب ، بحيث يمكن فحصها أو اثباتها ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة » (١) .

وبناء على هذا يدعى معارضو الدين أن التطور الذى بلغ به الانسان اليوم أعلى مستوى من الانسانية ، وهو نفى للدين من تلقاء نفسه . . . والسرف فى ذلك أن الافكار المتطورة الحديثة تؤكد أن « الحقيقة » ليست إلا ما يمكن فحصه وتجربته علميا . وقد قام الدين على « حقيقة » لا سبيل الى مشاهدتها وفحصها علميا . وبعبارة أخرى : أن التفسير اللاهوتى للاحداث والوقائع لا يمكن اثباته بالوسائل العلمية ، فهو باطل لا حقيقة له . ويترتب على هذا القول بأن : « الدين تفسير زائف لوقائع حقيقية » ، ذلك أن علم الانسان القديم المحدود لم يقدم التفسير الحقيقى للاحداث ، على حين أن القانون العام للتطور أتاح لنا أن نبحت عن الحقائق بالوسائل التجريبية الصحيحة .

ويمكن أن نقول هذا الكلام بأسلوب آخر : أن موقف علماء الأديان القديمة أشبه برجل يكتب « شيكا لا رصيد له فى المصرف » فهم قد صاغوا عبارات ليس وراءها حقائق علمية ، فعبارة (الحقيقة العليا غير المتغيرة) صحيحة نحوا ، ولكن ليس لها أى أساس علمى (٢) .

« لقد أثبت (نيوتن) أنه لا وجود لاله يحكم النجوم . وأكد (لابلاس) بفكرته الشهيرة أن النظام الفلكى لا يحتاج الى أى أسطورة لاهوتية . وقام بهذا الدور العالمان العظيمان (دارون) و (باستور) فى ميدان البيولوجيا . وقد ذهب كل من علم النفس المتطور والمعلومات التاريخية الثمينة التى حصلناها فى هذا القرن

Dictionary of Philosophy, N.Y., p. 285.

(١)

Religion and the Scientific Outlook, p. 20.

(٢)

بمكان الاله ، الذى كان مفروضا أنه هو مدير شئون الحياة الانسانية والتاريخ » (١) .

لقد قامت قضية معارضى الدين على أسس ثلاثة :

الأساس الأول : بطل هذا الانقلاب فى البيولوجيا هو (نيوتن) الذى عرض على الدنيا فكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة ، تتحرك فى نطاقها الاجرام السماوية ، ثم جاء بعده آخرون فاعطوا هذه الفكرة مجالا علميا أوسع ، حتى قيل : أن كل ما يحدث فى الكون من الأرض الى السماء خاضع لقانون معلوم ، سموه « قانون الطبيعة » . فلم يبق للعلماء ما يقولون ، بعد هذا الكشف ، غير أن الاله كان هو المحرك الاول لهذا الكون . وضرب (والتير) مثلا فى هذا الصدد : أن الكون كالساعة يرتب صانعها آلاتها الدقيقة فى هيئة خاصة ويحركها ، ثم تنقطع صلته بها . ثم جاء (هيوم) فتخلص من هذا الاله الميت ، وعلى حد قوله : « لقد رأينا الساعات وهى تصنع فى المصانع ، ولكننا لم نر الكون وهو يصنع ، فكيف نسلم بأن له صانعا » ؟

لقد جلى التطور العلمى للانسان كثيرا من سلسلة الأحداث التى لم يشاهدها من قبل . فهو لم يكن على علم بأسباب شروق الشمس وغروبها ، حتى زعم أن هناك قوة فوق الطبيعة تجعلها تشرق وتغرب . وها قد عرفنا اليوم أن شروق الشمس وغروبها يحدث لدوران الأرض حول نفسها ، وبذلك انتهت ضرورة القول بهذه الطاقة تلقائيا ، بعدما عرفنا الأسباب المؤدية الى هذه الحركة الكونية : « فاذا كان قوس قزح مظهرا لانكسار أشعة الشمس على المطر ، فماذا يدعونا الى القول بأنها آية الله فى السماء » .

من أجل هذا كله ، وغيره ، قال هكسلى :

(١) Religion Without Revelation, N.Y., 1958, p. 58. (١)

« اذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها الى أسباب فوق الطبيعة » (١) .

والأساس الثاني : وقد ازداد العلماء يقينا بعد البحوث العلمية في ميدان علم النفس ، حين توصلوا الى نتائج تثبت أن الدين نتاج اللاشعور الانساني ، وليس انكشافا لواقع «أرجمي» . ويقول عالم كبير من علماء النفس :

«God is nothing but a projection of man on a cosmic screen» .

« ليس الاله سوى انعكاس للشخصية الانسانية على شاشة الكون » . وما عقيدة الدنيا والآخرة الا صورة مثالية للاماني الانسانية ، وما الوحي والالهام الا اظهار غير عادى لأساطير الأطفال المكبوتة .

(Childhood Repression) (٢) .

* * *

ويرى علم النفس الحديث أن العقل الانساني مركب من شيئين هما : (الشعور) ، وهو مركز الأفكار التي تخطر على قلوبنا في ظروف عادية ، و (اللاشعور) وهو مخزن الأفكار التي مرت بنا ونسيناها ، ولا تظهر الا في احوال غير عادية ، كالجنون والهستيريا . وهذا القسم الثاني اكبر بكثير من الأول . ويمكن أن نمثل لهما بجبل من الجليد ، فلو قسمناه تسعة أجزاء لكان منها ثمانية في جوف البحر ، ولظهر جزء واحد على السطح .

اكتشف فرويد بعد جهد طويل أن اللاشعور قد يقبل أفكارا في الطفولة ، وتؤدي الى أعمال غير عقلية ، وهذا ما يحدث بالنسبة

Religion Without Revelation, N.Y., 1958. p. 58.

(١)

Iqbal Review, April 1962.

(٢)

الى العقائد الدينية : فان فكرة الجحيم والجنة ترجع الى صدى الامانى التى تنشأ لدى الانسان ابان طفولته ، ولكن لم تسنح له الفرصة لتحقيقها ، فتبقى دفينه فى اللاشعور ، ثم يفرض اللاشعور بدوره حياة اخرى يتيسر له فيها تحصيل ما كان يتمناه . شأن الرجل الذى قد لا يظفر بما يحب فى الواقع فيحصله فى المنام . وهكذا خرجت عقدة التفرقة بين الصغير والكبير (Father complex) من الجرائم الاجتماعية ، فصاغوا منها نظرية على مستوى الكون والسماء .

ويقول رالف لنتون :

« ان عقيدة القادر المطلق الظالم فى نهاية الامر ، الذى لا يرضى الا بالطاعة الكاملة والوفاء ، كانت اول ما أنتجه نظام المجتمع السامى لقد خلق هذا النظام جبروتاً غير عادى . وكانت لنتيجته ان شريعة موسى خرجت بقوائم ضخمة مفصلة عن المحرمات فى كل مجال من الحياة الانسانية . وقد آمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين كانوا يتقبلون احكام آبائهم العمياء ويطيعونها . وما التصور الالهى (اليهودى) الا خيال مثالى لأب سامى . مع شىء من المبالغة والتجريد فى الأوصاف والطبقات » (١) .

والأساس الثالث : لقضية معارضى الدين هو . (التاريخ) يقولون . ان القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالانسان ، فلم يكن فى استطاعته ان يفلت من السهول والأعاصير والطوفانات والزلازل والأمراض ، فواجه (قوى فرضية) يستفيثها ، لتنقذه من البلايا النازلة ، وهكذا ظهرت الحاجة الى شىء يجتمع الناس حوله ، ولا يتفرقون ، فاستغل اسم (الاله) الذى تفوق قوته قوة الانسان ، ويهرع الجميع الى رضاه .

يقول محرر دائرة معارف العلوم الاجتماعية تحت اسم
« الدين » .

« وبجانب المؤثرات الأخرى التى ساعدت فى خلق الدين . فان
اسهام الأحوال السياسية والمدنية عظيم جدا فى هذا المجال . ان
الأسماء الالهية وصفاتها خرجت من الأحوال التى كانت تسود على
ظهر الأرض . فعقيدة كون الاله « الملك الأكبر » صورة أخرى
للملكية الانسانية ، كذلك الملكية السماوية صورة طبق الأصل
للملكية الأرضية . وكان الملك الأرضى القاضى الأكبر ، فأصبح الاله
يحمل هذه الصفات ، ولقب « بالقاضى الأكبر الأخير » الذى يجازى
الانسان على الخير والشر من أعماله . وهذه العقيدة القضائية التى
تؤمن بكون الاله محاسبا ومجازيا لا توجد فى اليهودية فحسب ،
وانما لها مقامها الأساسى فى العقائد الدينية ، المسيحية
والاسلامية » (١) .

« لقد خلق العقل الانسانى الدين ، واتم خلقه ، فى حالة جهل
الانسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية » . ويضيف جوليان
هكسلى الى هذا قوله :

« فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الانسان وبيئته » (٢) .
ويقول أيضا :

« ان هذه البيئة قد فأت أوانها أو كاد ، وقد كانت هى
المسئولة عن هذا التعامل ، فأما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها
فلا داعى للدين » ، ويضيف : « لقد انتهت العقيدة الالهية الى
آخر نقطة تفيدنا ، وهى لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات ، لقد

Encyclopaedia of Social Sciences, 1957, Vol. 13, p. 233. (١)

Man in the Modern World, p. 130. (٢)

اخترع الانسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين ، جاء
بالسحر ، ثم بالعمليات الروحية ، ثم العقيدة الالهية ، حتى
اخترع فكرة (الاله الواحد) . وقد وصل الدين بهذه التطورات
الى آخر مراحل حياته . ولا شك أن هذه العقائد كانت في وقت
ما جزءا مفيدا من حضارتنا ، بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم
ضرورتها ، ومدى افادتها للمجتمع المحاضر المتطور » (١)



وترى الفلسفة الشيوعية أن الدين (خدعة تاريخية) ، وهى
تركز الأسباب فى عوامل اقتصادية ، لأنها تنظر الى التاريخ فى ضوء
الاقتصاد ، وهى ترى أن العوامل التاريخية التى خلقت الدين هى
النظام البورجوازي الاستعماري القديم . وهذا النظام القديم يلقي
اليوم حتفه . فلندع الدين أيضا يذهب معه .

يقول فيلسوف الشيوعية انجلز :
« أن كل القيم الاخلاقية هى فى تحليلها الأخير من خلق الظروف
الاقتصادية » (٢) .

فالتاريخ الانسانى هو تاريخ حروب الطبقات التى امتص فيها
البورجوازيون دماء الفقراء ، وقد كانت الغاية من وضع الدين
والاسس الاخلاقية حماية حقوق البورجوازيين .

ويقول البيان الشيوعى : (Communist Manifesto)
« ان الدستور والأخلاق والدين كلها خدعة البورجوازية ،
وهى تتستر وراءها من أجل مطامعها » .

ويقول لينين فى خطاب له القاه فى المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب
الشيوعى فى أكتوبر سنة ١٩٢٠ :

Ibid. p. 131.

(١)

Anti Duhring Moscow, 1954, p. 131.

(٢)

« اننا لا نؤمن بالاله ، ونحن نعرف كل المعرفة ان ارباب الكنيسة والاقطاعيين والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الاله الا استغلالا ، ومحافظة على مصالحهم . اننا ننكر بشدة جميع هذه الاسس الاخلاقية التي صدرت عن طاقات وراء الطبيعة ، غير الانسان ، والتي لا تتفق مع افكارنا الطبيعية ، وتؤكد ان كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال ، لصالح الاستعمار والاقطاع ، ونعلن ان نظامنا لا يتبع الا ثمرة النضال البروليتارى ، فمبدأ جميع نظامنا الاخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقة البروليتارية » (١) .

كانت هذه هى قضية معارضى الدين ، التى يزعم بعض العلماء الجدد بناء عليها ما يمكن تلخيصه ، فى كلمة استاذ امريكى فى طب الأعضاء :

« Science has shown religion to be history's crueliest and wickedest hoax » .

« لقد أثبت العلم ان الدين كان اقسى وأسوأ خدعة فى التاريخ » (٢) .

ولسوف ننظر فى مدى صحة هذه القضية على أسس علمية فى الباب الآتى ، ان شاء الله .

Lenin, Selected Works, Moscow 1947, Vol. II, p. 667. (١)

Quoted by C.A. Coulson, Science & Christian belief, p. 4. (٢)

الباب الثانى

نقد قضية المعارضين

عرضنا فى الباب الأول قضية المعارضين ، الذين يزعمون أنه لا داعى لأن يبقى الدين فى عصرنا الحاضر . والحقيقة أن هذه القضية لا تقوم على أساس ، وسوف نتناول فى الأبواب الآتية ، أفكار الدين الأساسية ، واحدة واحدة ، لننظر فى مدى حقيقتها ، كما كانت قبل العصر الحديث .

واليكم نقدا عاما لقضية المعارضين :

أولا - حقيقة الطبيعة :

لنتكلم أولا فى الدليل الذى يعرض باسم البيولوجيا ، وهو أن الحوادث تحدث طبقا (لقانون الطبيعة) فلا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث الها مجهولا . أن أحسن ما قيل فى هذا الصدد ما قاله عالم مسيحى : « Nature is A Fact, Not An Explanation » .

« ان الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيرا (له) » . لأن ما كشفتم ليس بيانا لأسباب وجود الدين ، فالدين يبين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التى تدور « وراء الكون » وما كشفتموه هو الهيكل الظاهر للكون . ان العلم الحديث تفصيل لما يحدث ، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع ، فكل مضمون العلم هو اجابة عن السؤال : « ما هذا ؟ » ، وليس لديه اجابة عن السؤال : « ولكن لماذا ؟ » . وأن التفسير الذى نحن بصدده هنا يتعلق بالأمر الثانى .

لنفهم هذا من مثال بسيط . فالكتكوت يعيش أيامه الأولى ، داخل قشرة البيضة القوية ، يخرج منها بعد ما تنكسر مضغة لحم ،

كان الانسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه ، ولكننا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه في اليوم الحادى والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت ، يستعمله في تكسير البيضة ، لينطلق خارجا منها ، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة .

هذه المشاهدة ، كما يزعم المعارضون ، أبطلت الفكرة القديمة القبائلة : بأن الاله يخرج الكتكوت من البيضة ، إذ قد رأينا يقينا أن قانونا لواحد وعشرين يوما يحدث هذه العملية . والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا الا على حلقات جديدة للحادث ، ولا تكشف عن سببه الحقيقى ، فقد تغير الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن تكسير البيضة ، بل عن (القرن) ؟ ان السبب الحقيقى سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التى جاءت بهذا القرن ، العلة التى كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج الى هذا القرن ليخرج من البيضة ، فنحن لا نستطيع ان نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) الا أنه « مشاهدة للواقع على نطاق أوسع » ، ولكنه ليس تفسيرا له .

يقول البروفسور (سيسل بايس هامان) ، وهو أستاذ أمريكى فى البيولوجيا .

« كانت العملية المدهشة فى صيرورة الغذاء جزءا من البدن تنسب من قبل الى الاله ، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيمائيا ، هل أبطل هذا وجود الاله ؟ فما القوة التى أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلا مفيدا . . ؟ ان الغذاء بعد دخوله فى الجسم الانسانى يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتى ، ومن المستحيل ان يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض . فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التى خلق بها الحياة » (١) .

كان الانسان القديم يعرف أن السماء تمطر ، لكننا اليوم نعرفه كل شيء عن عملية تبخر الماء في البحر ، حتى نزول قطرات الماء على الأرض ، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع ، وليست في ذاتها تفسيراً لها، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين ؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية ؟ والحقيقة أن ادعاء الانسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون - ليس سوى خدعة لنفسه ، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة .

ويضيف العالم الأمريكي سيسيل قائلا :

«Nature does not explain, she is herself in need of explanation.»

« أن الطبيعة لا تفسر شيئاً (من الكون) ، وإنما هي نفسها بحاجة الى تفسير » .

فلو أنك سألت طبيباً : ما السبب وراء احمرار الدم ؟

لأجاب : لأن في الدم خلايا حمراء ، حجم كل خلية منها $1/700$ من البوصة !

— حسناً ، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء ؟

— في هذه الخلايا مادة تسمى (الهيموجلوبين) وهي مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأوكسجين في القلب .

— هذا جميل . ولكن من أين تأتي هذه الخلايا التي تحمل الهيموجلوبين ؟

— انها تصنع في كبدك .

— عجيب ! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم

والخلايا والكبد وغيرها ، بعضها ببعض ارتباطا كليا وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة ؟

— هذا ما نسميه بقانون الطبيعة .

— ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا ، ياسيدى الطبيب ؟

— المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيمائية .

ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائما الى نتيجة معلومة ؟ وكيف تنظم نشاطها ، حتى تطير الطيور في الهواء ، ويعيش السمك في الماء ، ويوجد انسان في الدنيا ، بجميع ما لديه من الامكانيات والكفاءات العجيبة المثيرة ؟

— لا تسألنى عن هذا ، فان علمى لا يتكلم الا عن : (ما يحدث) وليس له ان يجيب : (لماذا يحدث ؟)

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون . ولا شك انه قد أبان لنا عن كثير من الأشياء التى لم تكن على معرفة بها ، ولكن الدين جواب لسؤال آخر ، لا يتعلق بهذه الكشوف الحديثة العلمية ، فلو ان هذه الكشوف زادت مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الانسانية بحاجة الى الدين ، ان جميع هذه الكشوف « حلقات ثمينة من السلسلة » ، ولكن ما يحل محل الدين لابد ان يشرح الكون شرحا كليا وكاملا . فما الكون على حاله هذا الا كمثل ماكينة تدور تحت غطاءها لا نعلم عنها الا انها (تدور) ، ولكننا لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر ونروس كثيرة ، يدور بعضها ببعض ، ونشاهد حركاتها كلها . هل معنى هذا اننا قد علمنا خالق هذه الماكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلها ؟ هل يفهم منطقيا ان مشاهدتنا هذه اثبتت ان الماكينة جاءت من تلقاء ذاتها ، وتقوم بدورها ذاتيا ؟ لو لم يكن هذا الاستدلال

منطقيا فكيف اذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون - أنه جاء تلقائيا ، ويتحرك ذاتيا ؟ . .

لقد استغل البورفسيور هرير (A. Harris) هذا الاستدلال حين نقد فكرة داروين عن النشوء والارتقاء ، فقال :

« ان الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسر عملية (بقاء الأصلح) ، ولكنه لا يستطيع ان يفسر حدوث هذا الأصلح (١) :

ثانيا : اللاشعور ودليل علم النفس :

لنعالج الآن الدليل الذى يقدمه علم النفس والقائل بأن الاله والآخرة قياس الشخصية الانسانية وأمانيتها على مستوى الكون : ولست بمستطيع ان أدرك نقطة الاستدلال فى هذا الدليل . ولو اننى أدعيت - بدورى - أن الشخصية الانسانية وأمانيتها موجودة فعلا على مستوى الكون فلست أدري ما عسى ان يبطل ادعائى هذا من منطق المعارضين ؟!

نحن نعرف أن مادة (الجنين) التى لا تشاهد الا بالمنظار تنبىء فى ذاتها عن انسان طوله ٧٢ بوصة ، وأن (الذرة) التى لا تقبل المشاهدة تحتوى نظاما رياضيا كونيا يدور عليه النظام الشمسى ، فلا عجب اذن أن يكون النظام الذى نشاهده على مستوى الانسان فى الجنين ، وعلى مستوى النظام الشمسى فى الذرة موجودا أيضا ، وبصورة اكمل على مستوى الكون . أن ضمير الانسان وفطرته ينشدان عالما متطورا كاملا ، فلو كان هذا الأمل صدى لعالم حقيقى فلست أرى فى ذلك أى ضرب من ضروب الاستحالة !!

(١) لا شك فى قول العلماء : ان الذهن الانسانى يحتفظ بأفكار قد تظهر فيما بعد فى صورة غير عادية . ولكن سوف يكون قياسا مع الفارق ان نعتمد على هذه الفكرة كى نبطل الدين . فهو قياس

Revolt against Reason, A. Lunn, p. 133.

في غير محله ، وهو يعتبر استدلالا غير عادى من واقع عادى . فهو أشبه بمن يشاهد مثالا يصنع صنما فيصرخ : هذا هو الذى قام بعملية خلق الانسان .

ومن معاييب الفكر الحديث أنه يستنبط من حادث عادى دليلا غير عادى ، فهذا الدليل لا وزن له من الناحية المنطقية ، ولو افترضنا أن رجلا يسير في شارع أخذ يهذى بكلام غريب نتيجة لأفكار مختزنة في ذهنه ، فهل يمكن أن نستغل هذا الحادث في البحث في كلام الأنبياء ، وهو الكلام الذى يكشف سر هذا الكون . . ؟ سوف يكون هذا الاستدلال غير علمى ، وغير منطقى وسوف يدل على أن صاحبه يفتقر الى القيم حتى يستطيع التفرقة بين كلام رجل الشارع وكلام الأنبياء ، فلا يدعى أن هذا الهذيان هو المسئول عما جاء به الدين .

فالقيم تتغير ذاتيا بتغير الأوضاع ، ومن الخطأ الظن بأنها لا توجد الا عند أصحاب الفكر الحديث .

ولنتخيل أن رهطا من سكان بعض النجوم هبط الأرض ، وهم يسمعون ، ولكنهم لا يقدرّون على الكلام ، ولنتصور أنهم يذهبون فيبحثون عن الأسباب المؤدية الى تكلم الانسان ، وبينما هم في طريقهم الى هذا البحث هبت الرياح ، واحتك غصنان ، أحدهما مع الآخر ، فنتج صوت ، وتكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح ، وإذا بهم يعلن كبيرهم : لقد عرفنا سر كلام الانسان ، وهو أن فمه يحتوى على فكين من الأسنان ، فإذا احتك الفك الأعلى بالأسفل صوت ! ولا شك أنه إذا احتك شيء بالآخر يحدث صوتا ، ولكن هذا الواقع لا يكشف عن سر الكلام الانسانى ، كما لا يصح تفسير أسرار النبوة بكلام غريب - كهذيان رجل الشارع ، في حال الجنون أو الهستيريا .

(ب) واللاشعور الانسانى - من الوجهة العلمية - فراغ في

أصله ، لا شيء فيه قبل مولد الانسان ، وانما يستقر فيه عن طريق الشعور ما يشغله الآن ، لأن (اللاشعور) ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التي شاهدها الانسان في حياته ، ولو مرة ، ومن المستحيل أن يختزن حقائق لم يعلمها من قبل ، والذي يثير الدهشة أن الدين الذي جاء على لسان الانبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أى زمان ، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات ، فمن أين يأتى بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم الى العلم بها ؟

ان الدين الذي جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة - الطبيعية ، والفلك ، وعلم الحياة ، وعلم الانسان وعلم النفس والتاريخ والحضارة والسياسة والاجتماع وغيرهما من العلوم ، وكل حديث في التاريخ الانساني مصدره (الشعور) ، فضلا عن اللاشعور ، لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة . اما الكلام النبوى فانه برىء ولا شك من كل هذه العيوب ، رغم اتصاله بجميع العلوم ، ولقد مرت قرون اثر قرون ، أبطل فيها الآخرون ما ادعاه الأولون ، وما زال صدق كلام النبوة باقيا على الزمان ، ولم يستطع أحد أن يدل على باطل جاء به ، وكل من حاول ذلك أخفق .

واليكم مثالا من هذا القبيل اعتمد عليه فلكى كبير ، حتى ادعى انه كشف غلطة علمية في القرآن الكريم .

يقول (جيمز هنرى بريستد) :

« لقد راج التقويم القمري في الدنيا لكثرة تداوله في غرب آسيا ولغلبة الاسلام سياسيا بوجه خاص ولقد مضى محمد (صلى الله عليه وسلم) بالاختلاف بين التقويم القمري والشمسى الى أقصى حد من العبث يمكن تصوره ، حتى أنه أبطل اضافة الشهور الكبيسة (Intercalary months) ان السنة القمرية المزعومة تشتمل

على ٣٥٤ يوما ، وتقل احد عشر يوما عن السنة الشمسية . وهكذا تزيد السنة القمرية سنة واحدة كل ٣٣ سنة ، وثلاث سنين في كل قرن فلو حل رمضان في يونيو في هذه السنة فسوف يحل بعد ست سنين في ابريل . »

لقد مضى ١٣١٣ عاما منذ الهجرة (١) ، حيث أن قرننا (الميلادى) هو بمثابة مائة سنة وثلاث سنين في تقويم المسلمين ، وقد سجل تقويمهم واحدا وأربعين عاما زائدا في هذه المدة من قرننا . وقد ألغت كنيسة اليهود الشرقية هذه السخافة واختارت طريقة اضافة الشهور (Intercalation) لتجعل تقويمها مثل التقويم الشمسى وهذا هو السبب في أن غرب آسيا يعانى حتى الآن لعنة هذه الطريقة القديمة - التقويم القمري (٢) . »

لسنا هنا بصدد مناقشة الفرق بين التقويم القمري والشمسى ، ولكن لابد من توضيح أن ما نسبته المؤلف الى رسول الاسلام هو في الحقيقة غفلة شديدة ترجع الى المؤلف نفسه ، ولم يمنع القرآن الكريم اضافة (الشهور الكبيسة) ، وانما حرم النسيء (التوبة : ٣٨) ، ومعناه في اللغة : (التأخير) ، ومنه (نساء الدابة) عن الحوض لى تشرب الأخرى . ومعناه في الاصطلاح : (تأخير شهر وتقديم شهر آخر عليه) .

لقد كان من بين العادات الكريمة التى دعا اليها ابراهيم عليه السلام العرب تحريم أربعة أشهر لا قتال فيها ولا جدال ، وهى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وقد كان العرب يسافرون في هذه الأشهر بكل حرية ، لى يؤدوا فريضة الحج والعمرة ، وحين دب الفساد فى بعض القبائل ، اخترعوا بدعة

(١) كان ذلك فى عام ١٩٣٥ م .

Time and its Mysteries, N.Y., 1962, p. 56.

(٢)

(النسيء) ، وهى أن يضعوا شهرا غير حرام محل الشهر الحرام ،
كان يجعلوا صفر فى مكان المحرم ، وذلك لكى يحاربوا قبيلة يلزم
قتالها فى الشهر الحرام . وهذه هى البدعة المقيتة التى وصفها
القرآن الكريم بأنها : (زيادة فى الكفر) .

وقال العلماء : ان الشهور الكبيسة كانت رائجة فى العرب
وكانوا يضيفون عدد الشهور فى السنة للتقويم .

وقال مفسر للقرآن الكريم فى هذا الموضوع ، وهو مولانا شبير
احمد العثمانى فى تفسيره :

« ان بعض القبائل تضيف الشهور الكبيسة كل ثلاثة أعوام
ليستقيم التقويم القمري ، ولا يدخل هذا العمل فى النسيء) .

ان ما قاله رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم فى عهد الظلام لم
يكن من الجهالة ، ولا يدخل قطعا فى نطاق ما أورده (جيمز هنرى
بريستد) طعنا عليه ، ولو كان كلامه صلى الله عليه وسلم صادرا
عن الشعور أو اللاشعور لوقعت فيه أخطاء ، ما من ذلك بد .

ثالثا : الاستدلال بالتاريخ والاجتماع :

ان الذين يستدلون بالتاريخ أو الاجتماع خطوهم الأساسى انهم
لا يدرسون الدين من وجه صحيح ، ولهذا يبدو لهم الدين شيئا
غريبا ، ومثال ذلك أن ترى شيئا مربعا من زاوية منحرفة فيترأى
لك مثلثا . أن الخطأ الذى يقعون فيه هو أنهم يتناولون الدين على
أنه « مشكلة موضوعية objective problem فهم يجمعون فى سلة
واحدة كل ما أطلق عليه اسم (الدين) ، من رطب ويابس ، فى أى
مرحلة من التاريخ ، ثم يتأملون فى ضوء هذا المحصول حقيقة الدين !
ان موقفهم ينحرف من أولى مراحلهم ، فيبدو لهم الدين - جراء

هذا الموقف الفاسد - عملا اجتماعيا ، لا كشفا لحقيقة ، ومن المعلوم أن لكل ما يكشف عن حقيقة من الحقائق مثلا أعلى ، ولا بد عند البحث من هذه الحقائق أن ندرس مظاهرها وتاريخها في ضوء مثله الأعلى . أما الأمور التي تأتي بها أعمال اجتماعية فليس لها مثل أعلى . وبقاؤه رهن بحاجة المجتمع إليها .

والدين يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فليس من الممكن البحث عن حقائقه ، كما يبحث عن تطورات فنون العمارة والنسيج والحياسة والسيارات ، لأن الدين علم على حقيقة يقبلها المجتمع أو يرفضها ، أو يقبلها في شكل ناقص ، ويبقى الدين في جميع هذه الأحوال حقيقة واحدة في ذاتها ، وانما يختلف في أشكاله المقبولة ، ولهذا لا يمكن أن نفهم حقائق (الدين) بمجرد فهرسة مماثلة لجميع الأشكال الموجودة في المجتمعات باسم الدين .

ولنأخذ - على سبيل المثال - لفظ (الجمهورية) . فهي قيمة سياسية لنظام خاص بالحكم ، وفي ضوء هذه القيمة نستطيع أن نحكم على بلاد بأنها جمهورية ، أو بأنها ليست كذلك . لكننا لو ذهبنا نبحث عن معاني (الجمهورية) في النماذج السياسية التي توجد عبر القارات ، ويلتصق بها لفظ (الجمهورية) ، ثم زعمنا أن كل هذه البلاد قائمة (على أسس جمهورية) . فسوف تصبح كلمة « الجمهورية » بلا معنى . ففي هذه الحالة ستختلف (جمهورية) الصين عن (جمهورية) الولايات المتحدة الأمريكية ، وستعارض « جمهورية » إنجلترا « الجمهورية العربية المتحدة » ، كما أن (جمهورية) باكستان ستصطدم (بالجمهورية) التي تلتزم بها الهند . فإذا تأملنا كل هذه المشاهدات في ضوء (فلسفة التطور) فإن هذه الكلمة سوف تفقد معناها حتما ، لأن فرنسا التي أنجبت النظام الجمهوري سوف تبرهن على أن (الجمهورية) بعد (نشوئها وارتقائها) تتمثل في ديكتاتورية ديحول العسكرية .

وهذا النهج فى التناول يؤدى الى نتيجة غريبة ، هى انه لا حاجة الى (الاله) فى الاديان !! اذ يوجد مثال لهذا فى تاريخ الاديان وهو مثال البوذية ، التى تخلو تماما من فكرة (الاله) . ومن ثم آمنت جماعة من الناس بضرورة البحث عن دين مجرد من الاله ، ولو أننا سلمنا بالفكرة القائلة بأن شيئاً مثل (الدين) لابد من للانسان ، لحاجته الى الوعى الخلقى والتنظيم الاجتماعى . فلا داعى اذن للاله أن يوجد ، وربما قيل : « ان الدين الذى يصح لهذا العصر يلزم أن يكون مثل البوذية ، فان اله العصر الحاضر هو (مجتمعه وأهدافه السياسية) ، ورسول هذا الاله هو (البرلمان) الذى يوجه الشعب الى ما يرضيه ، ومعابد هذا الاله العصرى ليست المساجد أو الكنائس القديمة ، وانما هى المصانع الكبيرة والسدود العظيمة » (١) .

ان لهؤلاء الباحثين الاجتماعيين المزعومين قدرة كبيرة على خلق هذه الأفكار الجديدة ، التى تنتقل من (دين الاله) الى فكرة (الدين بغير الاله) . وذلك ناشئ عن الطريق المعوجة التى سلكها بحثهم وهم يغمضون أعينهم عن جميع النواحي العلمية الأخرى التى تلقى ظلالاً من الشكوك حول جداولهم الارتقائية . ومثاله أن علماء الاجتماع والانسان قد توصلوا بعد أبحاثهم الفنية الدقيقة الى أن (نظرية الاله) شكل ارتقائى لفكرة تعدد الآلهة ، غير أن هذا الارتقاء ضل طريقه واتجه الى طريق غريبة ، وحرر العلماء كما شوش أمره على نفسه ، بارتقائه الباطل من فكرة تعدد الآلهة الى فكرة الاله الواحد .

ان فكرة تعدد الآلهة كانت تحمل قيماً اجتماعية مؤداها أن يعيش مؤمنو الآلهة المختلفة فى سلام باعتراف متبادل ما بينهم » ولكن فكرة الاله الواحد أبطلت حتماً هذا الامكان ، بخلقها نظرية

الدين الاعلى (Higher Religion) ونتيجتها ان بدأت حروب ضاربه
لا نهاية لها بين شعوب الدنيا ، وهكذا سعت فكرة الاله الواحد الى
حتفها بظلفها ، بارتقائها في اتجاه مناقض ، وهذا هو قانون النشوء
والارتقاء « (١) .

ولكننا - فعلا - قد تركنا الواقع الحقيقي في هذا الجدول ،
فالتاريخ المعلوم يثبت ان اول رسول معلوم كان سيدنا نوحا عليه
السلام ، وكان يدعو الى الله الواحد . كما ان تعدد الآلهة
(Polytheism) ليس في درجة واحدة ، وانما معناه : ان يشرك
الانسان مع الاله الأكبر آلهة اخرين . يقربونه اليه ، ويشفعون له .
وفي وجود هذه الحقائق تتحول نظرية النشوء والارتقاء الى ادعاء
لا دليل عليه .



وفكرة (ماركس) هي أكثر نظريات هذه المجموعة عبثا ، فهي
تقول : ان الأحوال الاجتماعية هي التي تقوم ببناء الانسانية وتكملها
ومن ثم كان العصر الذي وجد فيه الدين عصر الاقطاع والراسمالية
وهو عصر الانتهازيين اللصوص ، كما ان الأفكار الدينية والأخلاقية
التي تولدت في هذا العصر تحمل نفس الطابع الانتهازي الاستعماري .

والحق ان هذه الفكرة ليست لها قيمة من الناحية العلمية ،
كما انها عند التحليل العلمي والتجربة العملية لا طريق الى
تصديقها .

فالفكرة الماركسية تنفى بشدة ارادة الانسان ، وهي تحيل
الأحداث الى تأثير عوامل الزمن الاقتصادية ، ومعنى ذلك ان
الانسان لا شخصية له ، فهو يصاغ في مجتمعه ، كما يصاغ
الصابون في المصنع ، ولا طريق امامه كي يشق افكارا وطرقا جديدة ،

Man in the Modern World, p. 112.

(١)

وانما هو ينطلق مفكرا على النهج الذى سمحت له به حياته الاقتصادية ، فاذا كانت هذه القضية صحيحة ، فكيف تمكن كارل ماركس - وليد النظام الرأسمالى - من أن يفكر ضد العوامل الاقتصادية الرائجة فى عصره ، هل صعد القمر لكى يبحث فى احوال الارض ؟

وبعبارة أخرى : لو صح أن الدين وليد عصر مخصوص فكيف لم تكن الماركسية وليدة النظام الاقتصادى لعصرها ؟؟؟ . واذا لم نسف هذا الوضع فيما يتعلق بالماركسية فكيف نسيغه بالنسبة الى الدين ؟؟؟ الحق أن هذه الفكرة عبث مثير لا يحمل على ظهره أى دليل علمى أو عقلى .

هذا وقد اتضحت أخطاء هذه الفكرة بالتجارب العملية .
وحسبنا روسيا ، هنالك حيث سادت الماركسية نصف قرن من الزمان ، أدعت روسيا خلاله أن احوال البلاد المادية قد تغيرت تماما ، وأن النظام الزراعى ، والمبادلة ، وتقسيم الأموال ، قد جرت على أسس غير استغلالية ، ولكننا وجدنا حين مات ستالين أن قادة الروس أنفسهم قد أقرروا بأن الظلم والفساد كانا رائجين فى عهده ، وأنه كان يستغل الشعب كما يستغله الحكام فى البلاد الاستعمارية . ولو وضعنا فى اعتبارنا واقع الرقابة الشديدة على الصحف ووسائل الاعلام ، وهى التى تمكن بها ستالين من أن يذيع على العالم أن عهده هو عهد العدل والانصاف ، فلا ريب أن هذه الرقابة موجودة هناك اليوم أيضا ، ومن هذا نستطيع أن نفهم أن الأمور تجري وراء ستائر الدعاية الجميلة على ما كانت عليه فى عهد ستالين . وان كان المؤتمر العشرون (١٩٥٦) للحزب الشيوعى الروسى قد أفشى مظالم ستالين ، فلا غرابة أن يجيء المؤتمر الأربعون للحزب الشيوعى بإفشاء أسرار حكام روسيا اليوم (١) .

(١) وقد أكد هذا عزل خروشوف والحوادث التى تلتها فى روسيا فى أكتوبر

ان هذا النظام الذى استغرقت تجربته نصف قرن من الزمان
ليدلنا على أن الانسان لا يتغير بتغير نظام الزراعة والمبادلة المزعوم ،
ولو كان العقل الانسانى تابعا للنظام الاقتصادى فلماذا نجد الظلم
والفساد والاستغلال فى نظام روسيا الشيوعى ؟

ان قضية العصر الحاضر لا تعدو أن تكون « سفسطة علمية
scientific sophism ذلك أن علماء هذا العصر يعالجون قضاياهم فى
ضوء العلم الحديث ، غير أن هذه المعالجة لا تجدى نفعا ، لأنها
قائمة على العلم المحض وحسب ، على حين لابد من اعتبار أشياء
أخرى ، ومثال ذلك : أن نشرع فى دراسة علمية لأشياء علمية
ناقصة ، فسوف تؤدي هذه المطالعة العلمية الى نتائج غير علمية ،
ناقصة ، باطلة .

لقد عقد فى دلهى فى يناير ١٩٦٤ مؤتمر دولى للمستشرقين ،
اشترك فيه ألف ومائتان من العلماء من جميع أنحاء العالم ، وقدم
أحدهم فى هذا المؤتمر بحثا يدعى فيه مآثر كثيرة لمسلمى الهند ليست
من عمل المسلمين ، وانما هى من عمل الملوك الهندوس . وضرب
لذلك مثلا بمنارة قطب فى دلهى المنسوبة الى الملك قطب الدين أيبك ،
على حين بناها الملك الهندوسى سامودرا جوبت قبل ٢٣ قرنا ، وقد
أخطأ المؤرخون المسلمون فنسبوها الى الملك قطب الدين . ويستدل
هذا البحث بأن فى المنارة المذكورة بعض أحجار قديمة نحتت قبل
عصر الملك قطب الدين . .

وهذا - كما يبدو - استدلال علمى ، اذ أن بعض أحجار
المنارة فعلا من الصنف الذى ذكره العالم ، ولكن هل كفى مشاهدة
بعض أحجار المنارة للبت فى أمر بانيها ، أو أنه لابد من نواح أخرى
كثيرة لنشاهدها فى هذا الصدد . ومن هنا فان هذا التفسير لا
يصدق على منارة قطب - ككل . هذا تفسير . وهناك تفسير آخر ،
هو أن هذه الأحجار القديمة التى يوجد بعضها فى المنارة . انما جاءت
من أنقاض ابنية قديمة ، كما هو معروف فى كثير من الأبنية التاريخية

الحجرية . ولا مناص من أن نقبل هذا التفسير الثانى حين نشاهد منارة قطب الدين فى ضوء طابعها المعمارى ورسومها وتصميمها . والمسجد الناقص بجوارها ، والمنارة الثانية التى لم تكمل ، ثم ننتهى الى أن التفسير الأول ليس الا قياسا خاطئا قائما على المغالطات .



وهذا امر قضية المعارضين ، فانهم نظروا الى حقائق ناقصة وجزئية ، لا تصل بعضها بالموضوع مطلقا ، واعتقدوا أن الدراسة العلمية الحديثة قد أبطلت الدين ، على حين اننا لو نظرنا الى الواقع بجملة وتفصيلا فسوف نصل الى نتيجة تختلف عن الأولى كل الاختلاف .

والدليل الذى يقنعنى بصدق الدين هو أن عقولا مثالية منا - بعد أن تركت الدين - قد أخذت تهذى بكلمات لا حقائق وراءها ، وتعمه فى تيه الظلام ، ذلك أن الانسان بعد أن يفقد أساس (الدين) لا يجد أساسا آخر لافكاره . والأسماء التى تأتى فى قوائم المعارضين أكثرها من عقولنا الكبيرة ولكنهم بعد أن تخلوا عن الدين راحوا يكتبون ضروبا من اللغو غاية فى الإهمال والتمزق ، حتى أننى أتخبر - أحيانا - فلا أفهم كيف صدرت هذه الكلمات عن قلم رجل من العلماء ؟ . وأن السجل الذى أنتجه هؤلاء ليشتمل على خرافات وأراء متناقضة ، واعترافات بجهل الحقيقة ، كما يشتمل على أدلة أشبه بالسفسطة . فبطولة هؤلاء تكمن فى أنهم أغمضوا أعينهم عن الحقائق الظاهرة ، وشادوا قناطر خيالية من الادعاء ، كما تتمثل فى استدلالهم بالشاذ من الأمور . وذلك من سمات القضايا الباطلة ، أما القضايا الصحيحة فانها تقوم على أسس علمية ثابتة ، لا على الشواذ .

وتتجلى حقيقة الدين وسفسطة قضية المعارضين أكثر من ذلك حين نطالع صورة الحياة الانسانية فى ضوء الدين ، انها صورة جميلة

لطيفة ، تتوافق مع أفكار الانسان السامية ، كما يتوافق الكون المادى مع القوانين الرياضية ، بعكس تلك الصورة التى يرسمها المعارضون ، فهى صورة جد قبيحة ، وهى لا تتفق أبدا مع الذهن الانسانى ، وانظر الى ما يقوله برتراندرسل :

« والانسان وليد عوامل ليست بذات أهداف ، ان بداه ونشوءه وامانيه ومخاوفه ، وحبه وعقائده ، كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضى اتفانى فى نظام الذرة ، والقبر ينهى حياة الانسان . ولا تستطيع اية قوة احياءه مرة أخرى . ان هذه المجهودات الطويلة ، والتضحيات ، والأفكار الجميلة ، والبطولات العبقريّة ، كلها سوف تدفن الى الأبد مع فناء النظام الشمسى . ان الكفاح الانسانى كله سوف يدفن حتما مع أرض تحت انقراض الكون ، ولو لم تكن هذه الأفكار قطعية فانها أقرب ما تكون الى الحقيقة ، حتى أن اية فلسفة تحاول انكارها ستلقى فناءها تلقائيا » (١) .

ويكاد هذا الاقتباس أن يكون خلاصة الفكر المادى ، فالكون فى ضوء هذا الفكر المادى - يكاد يفقد أهدافه ، ولا يبقى غير الظلام الحالك ، الظلام الذى تتلاشى فيه معايير الخير والشر ، حتى أن إبادة الناس بالقنابل لا تعد ظلما ، لأنهم سوف يلقون حتفهم على اية حال يوما ما . أما الفكر الدينى فهو فكر الضوء والأمل . والموت والحياة مرتبطان فيه بأهداف معينة ، وكل القيم والأفكار الانسانية السامية تجد لها مكانا فيه ، وان كان بعض العلماء بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره ، يطمئن الى أنه قد توصل الى الحقيقة فان تصديق العقل الانسانى للفكر الدينى دليل قطعى على أنه هو الحقيقة التى طالما بحثت عنها الفطرة الانسانية . وعندئذ لا نجد أساسا واقعا لانكار قيمة الفكر الدينى ، هذا هو «المقياس» العلمى

الذى يشير اليه الرياضى الاميركى البروفيسور (ارل تشستر ريكس) قائلا :

اننى استخدم فى ابحاثى ذلك المقياس العلمى المسلم ، الذى يستخدم فى ترجيح احدى فكرتين مختلفتين أو أكثر ، عن حقيقة واحدة . وهو المقياس الذى نرجح بناء عليه الفكرة التى تفسر المسائل المتنازع فيها بطريقة أكثر بساطة وسهولة . لقد استخدم العلماء هذا المقياس لاختيار احدى نظريتي بطليموس وكوبرنيك : كانت الأولى تزعم أن الأرض هى مركز النظام الشمسى ، على حين أكدت الثانية أن النظام الشمسى هو مركز الأرض . وكانت نظرية بطليموس غاية فى التعقيد حتى رفضها العلماء « (١) » .

ولا بأس من الاعتراف بأن هذه الأدلة لن تقنع بعض الناس ، فان أبواب عقولهم المادية موصدة دون أى كلام — مهما يكن علميا — عن الاله أو الدين . ومن المؤكد أن موقفهم هذا ليس لأن استدلالنا ضعيف ، وانما هو راجع الى تعصبهم المقيت ضد الأفكار الدينية ، ولقد صدق عالم بريطانيا العظيم سير جيمس جينز — الذى يعتبر ولا شك أعظم علماء العصر الحديث — حيث قال فى كتابه الشهير (عالم الأسرار) :

« أن فى عقولنا تعصبا يرجح التفسير المادى للحقائق » (٢) .

وذكر (ويتكر شامبرز) فى كتابه (الشهادة) Witness حادثا كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول فى حياته . ذكر أنه بينما كان ينظر الى ابنته الصغيرة استلقت اذناها نظره ، فأخذ يفكر فى أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق ، كهذه الأذن . بمحض اتفاق ، بل لابد أنه وجد نتيجة ارادة مدبرة . لكن (ويتكر شامبرز)

The Evidence of God, p. 179.

(١) .

Mysterious Universe, p. 189

(٢) .

طرد هذه الوسوسة عن قلبه ، حتى لا يضطر ان يؤمن — منطقيا —
بالذات التي أرادت فدبرت ، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل
هذه الفكرة الأخيرة .

ويقول الأستاذ الدكتور (تامس ديودباركس) بعد أن يذكر هذا
الحادث :

« اننى أعرف عددا كبيرا من أساتذتى فى الجامعة . ومن
رفقائى العلماء الذين تعرضوا مرارا لمثل هذه المشاعر ، وهم يقومون
بعمليات كيماوية وطبيعية فى المعامل (١) .

لقد أجمع علماء هذا العصر على صدق نظرية النشوء والارتقاء
.. وقد بدأت هذه النظرية تسود فعلا جميع فروع العلوم الحديثة
فكل مشكلة تحتاج (الها) فى تفسيرها توضع مكانه هذه النظرية
بغير تردد .

هذا جانب من النظرية ، وأما الجانب الثانى — وهو الجانب
المظلم منها — الذى يقرر (فكره التطور العضوى Organic Evolution
الذى استنبطت منه فكرة الارتقاء ، فقد بقى الى يوم الناس هذا
بلا براهين ، وبلا أدلة علمية !! حتى قال كثير من العلماء : « أنهم لا
يؤمنون بهذه النظرية ، الا لانه لا يوجد أى دليل لها سوى الايمان
بالله مباشرة » .

وكتب سير آرثر كيث يقول :

« ان نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل الى
اثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها الا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك

هو (الايمان بالخلق الخاص المباشر) ، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه » (١) !!

أننى أقر هنا بعجزى عن اقناع أولئك الذين ينطوون على التعصب الأعمى للتفسير المادى ، بحقية الدين ، ولهذا التعصب جذور عميقة ، كما يقول عالم أمريكى : « أن كون العقيدة الالهية معقولة ، وكون انكار الاله سفسطة لا يكفى ليختار الانسان جانب العقيدة الالهية . فالناس يظنون أن الايمان بالله سوف يقضى على حريتهم ، تلك الحرية العقلية التى استعبدت عقول العلماء ، واستهوت قلوبهم ، فأية فكرة عن تحديد هذه الحرية مثيرة للوحشة عندهم (٢) .

وبناء على هذا يدعى جوليان هكسلى أن فكرة النبوة « هى اظهار للتفوق بطريقة شاذة لا يمكن احتمالها » ، إذ أن معنى الايمان بنبى أن تؤمن بكلامه على أنه كلام الاله ، ثم نمثل - طوعا أو كرها - لكل ما يأمر به .

ولكن اذا كان الانسان مخلوقا وليس خالقا ، عابدا وليس معبودا . فكيف يستطيع أن يقضى على الحقائق بمجرد افكار نبئت فى عقله ؟ . . اننا لا نستطيع أن نغير الحقائق ، وانما نستطيع أن نعرف - أو تؤمن بها - فحسب . واذا كنا لا نحب أن تكون حاقبتنا عاقبة النعمة ، فأفضل خيار لنا أن نسلم بالحقيقة قبل أن تفوت الفرصة نهائيا .

ان كفرنا بالحقيقة لن يسىء الى قضيتها ، ولكن الخسران كله سوف يكون من حظنا فى الآخرة .

Islamic Thought, Dec. 1961.

(١)

George H. Blount, The Evidence of God, p. 130.

(٢)

الباب الثالث

طريقة الاستدلال العلمى

ان قضية العصر الحاضر ضد الدين هى قضية طريقة الاستدلال اعنى الطريقة الجديدة التى كشفها العلم الحديث بعد التطورات فى ميادينه العديدة، بحيث لم تعد تقف امامها دعوى الدين وعقائده . هذه الطريقة الجديدة هى معرفة الحقيقة بالتجربة والمشاهدة، على حين تتصل عقائد الدين بعالم ما وراء حواسنا ، ولا يمكن اخضاعها للتجربة . (فالدين كله مبنى على قياس واستقراء) (١) ، وهذا هو ما يجعله باطلا ، لأنه ليس له اساس علمى .

وقضية العصر الحاضر باطلة ، لأنها لا تقوم على اساس علمية ، فالطريقة الجديدة لاتنفى وجود أشياء لم تجرب مباشرة ، كما لاتنفى قياس أشياء لم نشاهدها على أشياء شاهدناها تجريبيا وهو ما يسمى « قياسا علميا » ، ويعتبر كالتجربة المباشرة ، فالتجربة لاتعد حقيقة علمية لمجرد أنها شوهدت : كما أن القياس ليس باطلا لمجرد أنه قياس . فامكان الصحة والبطالان موجود فيهما على السواء .

كان الناس فى القديم يصنعون السفن الشراعية من الخشب . اعتقادا منهم ان الماء لا يحمل الا ما يكون اخف منه وزنا ، وحين قال بعضهم : ان السفن الحديدية سوف تطفو على سطح الماء كالتى من الخشب . أنكر الناس عليه مقالته واتخذوه هزوا ، وجاء نحاس فالقى بنعل من حديد فى دلو مملوء بالماء ليشهد الناس على أن هذه

(١) ومثاله أن أصحاب الدين اذا أرادوا اثبات وجود الاله لا يقدرّون على ذلك باستعمال التلسكوب ، ولكنهم يستدلّون بأن نظام الكون وروحه العجيبة تدلّان على أنه يوجد عقل الهى وراءها . وهذا الدليل لا يثبت وجود الاله مباشرة وإنما هو يثبت قرينة تستلزم الإيمان بالله بعد الإيمان بها .

القطعة الحديدية - بدل أن تطفو على سطح الماء - استقرت في القاع . كان هذا العمل تجربة . ولكننا جميعا نعتقد اليوم أنها كانت تجربة باطلة، فلو كان النحاس قد ألقى بطبق من حديد لشاهد بعينه صدق ما قيل من طفو السفن الحديدية .

في بداية القرن العشرين كنا كذلك نملك تلسكوبا ضعيفا ، فلما شاهدنا السماء بهذا المنظار وجدنا أجراما كثيرة كالنور، فاستنبطنا أنها سحب من البخار والغاز ، تمر بمرحلة قبل أن تصبح نجوما . ولكننا حين تمكنا من صناعة منظار قوى ، وشاهدنا هذه الأجرام مرة ثانية ، علمنا أن هذه الأجرام الكثيرة المضيئة هي مجموعة من نجوم كثيرة شوهدت كالسحب ، نتيجة البعد الهائل بينها وبين الأرض .

وهكذا نجد أن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتي العلم القطعيتين وأن العلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة . لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواسعة النطاق ، ولكن الأشياء التي نلاحظها بهذه الوسائل كثيرا ما تكون أمورا سطحية، وغير مهمة نسبيا . أما النظريات التي يتوصل إليها بناء على هذه المشاهدات فهي أمور لا سبيل إلى ملاحظتها ، والذي يطالع العلم الحديث ، يجد أن أكثر آرائه « تفسير للملاحظات » وأن هذه الآراء لم تجرب مباشرة ، ذلك أن بعض الملاحظات يحمل العلماء على الإيمان بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعيا ، فأى عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو دون الاعتماد على الفاظ مثل : « القوة » Force و « الطاقة » Energy ، و « الطبيعة » Nature

« قانون الطبيعة » Law of Nature ، وما إلى ذلك ولكن هذا العالم لا يدري ما « القوة والطاقة والطبيعة وقانونها » ، فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة ، لكى يبين عن علل غير معلومة . وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الالفاظ ، تماما كرجل الدين ، لا يستطيع تفسير صفات الاله ، وكلاهما يؤمن - بدوره - بعلى غير معلومة .

يقول الدكتور (الكسيس كاريل) :

« ان الكون الرياضى شبكة عجيبة من القياسات والفروض ، لا تشتمل على شىء غير « معادلة الرموز » ، الرموز التى تحتوى على مجردات لا سبيل الى تفسيرها » (١) .

والعلم الحديث لا يدعى ، ولا يستطيع أن يدعى ، أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة ، فالحقيقة أن « الماء سائل » . ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة . ولكن الواقع أن كل « جزيء » من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية ولو أننا بأقوى ميكروسكوب فى العالم ، غير أنها ثبتت لدى العلماء لايمانهم بالاستدلال المنطقى .

ويقول البروفيسور ا.ى. ماندير :

« ان الحقائق التى نتعرفها مباشرة تسمى الحقائق المحسوسة Percieved Facts ، بيد أن الحقائق التى توصلنا الى معرفتها لا تنحصر فى « الحقائق المحسوسة » ، فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ، ولكننا عثرنا عليها على كل حال ، ووسيلتنا فى هذا السبيل هى الاستنباط ، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه « بالحقائق المستنبطة » : Inferred Facts والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين ، وإنما الفرق هو فى التسمية ، من

حيث تعرفنا على الأولى مباشرة ، وعلى الثانية بالواسطة ، والحقيقة دائما هى الحقيقة ، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط » (٢) .

ويضيف ماندير قائلا :

« ان حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف

Man The Unknown, p. 15.

(١)

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر ؟ . . هناك وسيلة وهي الاستنباط أو التعليل . وكلاهما طريق فكري ، نبتدىء به بواسطة حقائق معلومة ، حتى ننتهى بنظرية : ان الشيء الفلانى يوجد هنا ولم نشاهده مطلقاً « (١) .

وهنا نتساءل . كيف يصح الاستنباط المنطقى لأشياء لم نشاهدها قط ؟ وكيف يمكن أن نسمى هذا الاستنباط بناء على طلب العقل : حقيقة علمية ؟ ويجب ماندير بنفسه على هذا السؤال :

« ان المنهج التعليلى صحيح ، لان « الكون » نفسه عقلى . فالكون كله مرتبط بعضه بالآخر ، حقائقه متطابقة ، ونظامه مجيب ، ولهذا فان أية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها - هي دراسة باطلة . ويقول ماندير فى هذا الصدد :

« ان الوقائع المحسوسة هي اجزاء من حقائق الكون ، غير ان هذه الحقائق التى ندركها بالحواس قد تكون جزئية ، وغير مرتبطة بالآخرى . فلو طالعناها فذة مجردة عن اخواتها فقدت معناها مطلقاً فاما اذا درسناها فى ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناها مباشرة أو بلا مباشرة ، فاننا سندرك حقيقتها » .

ثم يأتى بمثال سليم يفسر ذلك فيقول :

« اننا نرى ان الطير عندما يموت يقع على الارض ، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ، ويتطلب جهداً ، ونلاحظ أن القمر يدور فى الفلك ، ونعلم أن الصعود فى الجبل أشق من النزول منه . ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لاحداها بالآخرى ظاهراً ، ثم نتعرف على حقيقة استنباطية - هي « قانون الجاذبية » . وهنا

A.E. Mander, Clearer Thinking, London, p. 46.

(١)

ترتبط جميع هذه الحقائق ، فنعرف للمرة الاولى أنها كلها مرتبطة احداها بالأخرى ارتباطا كاملا داخل النظام وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة فلن نجد بينها أى ترتيب ، فهي متفرقة ، وغسير مترابطة ، ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صورة منظمة للحقائق « (١) » .



ان قانون « الجاذبية » لا يمكن ملاحظته قطعا ، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل فى ذاته قانون الجاذبية ، وانما هى اشياء أخرى ، اضطروا لأجلها - منطقيًا - أن يؤمنوا بوجود هذا القانون .

واليوم يلقي هذا القانون قبولا علميا عظيما ، وهو الذى كشف عنه نيوتن لأول مرة ، ولكن . . ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية ؟ . . هاهو ذا نيوتن يتحدث فى خطاب ارسله الى (بنتلى) فيقول :

« انه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا احساس وهى تؤثر على مادة أخرى ، مع انه لا توجد أية علاقة بينهما » (٢) .

فنظرية معقدة غير مفهومة ، ولا طريق الى مشاهدتها ، تعتبر اليوم بلاجدال ، حقيقة علمية !! لماذا ؟ . . لانها تفسر بعض ملاحظاتنا فليس بلازم اذن ان تكون الحقيقة هى ما علمناه مباشرة بالتجربة ، ومن ثم تمشى الى القول بان العقيدة التى تربط بعض ما نلاحظه ، وتفسر لنا مضمونه العام - تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة! .

يقول البروفيسور ماندير :

« القول باننا عرفنا الحقيقة يعنى : اننا عرفنا معناها ، وبعبارة

Clearer Thinking, p. 51.

(١)

Works of W. Bently, III, p. 221.

(٢)

أخرى : أننا بحثنا عن وجود شيء ، وعن أحواله ، ففسرناه ، وأكثر عقائدنا تدخل في هذا النطاق ، فهي في الحقيقة : « تفسيرات للملاحظة »

ويستطرد ماندير فيتكلم عن « الحقائق الملحوظة » :

« عندما تذكر « ملاحظة » فإننا نقصد شيئا أكثر من المشاهدة الحسية المحضة ، فمعناها : « الملاحظة الحسية » و « التعرف » بما يشمل جانب التفسير » (١) .

نظرية التطور العضوي :

هذه هي القاعدة العلمية التي على أساسها وافق العلماء على حقيقة نظرية (التطور العضوي) كما قال ماندير : « لقد ثبت صدق هذه النظرية ، حتى أننا نستطيع أن نعتبرها « أقرب شيء إلى الحقيقة » (٢) .

ويقول سمبسن في هذا الصدد :

« أن نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة أخيرا وكلها ، وليست بقياس ، أو (فرض بديل) صيغ للبحث العلمي (٣) .

ويعتقد محرر دائرة المعارف البريطانية (١٩٥٨) : أن نظرية الارتقاء في الحيوانات « حقيقة » ، وأن هذه النظرية قد حظيت بموافقة عامة بين العلماء والمثقفين بعد داروين .

وقال ر. س. لل :

« ظلت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد ، يوما بعد يوم ،

Clearer Thinking, p. 56.

(١)

Ibld., p. 113.

(٢)

Meaning of Evolution, p. 127.

(٣)

بعد داروين ، حتى أنه لم يبق لدى المفكرين والعلماء شك في أن هذه هي الوسيلة المنطقية الوحيدة التي تستطيع أن تفسر عملية الخلق وتشرحها « (١) .

هذه النظرية التي أجمع العلماء على صحتها ، هل لاحظها أحدهم أو جربها في معمله ؟ . . والجواب : لا ! فذلك ضرب من المستحيل ، أن مزعومة الارتقاء معقدة ، وهي تتعلق بماض بعيد جدا ، حتى أنه لا سؤال عن تجربتها وملاحظتها . وهي على ما أكدته (لل) في كلمته السابقة : « وسيلة منطقية » لتفسير مظاهر الخلق ، وليست بملاحظة واقعية . وأرى أن هذا هو السبب الذي دفع « السير آرثر كيث » - الذي يعتبر محاميا متحمسا لنظرية الارتقاء - أن يسلم بأن هذه النظرية ليست بملاحظة أو تجربة ، وإنما هي مجرد عقيدة . ومن كلماته : « ان نظرية الارتقاء « عقيدة أساسية في المذهب العقلي » (٢) . وعرف أحد المعاجم العلمية نظرية داروين بأنها « نظرية قائمة على تفسير بلا برهان » (٣)

فما الذي يجعل شيئا غير ملاحظ وغير قابل للتجربة « حقيقة علمية » ، يذكر (ماندير) أسباب ذلك فيقول :

١ - هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .

٢ - في هذه النظرية تفسير لكثير من الوقائع ، لا يمكن فهمها إلا من طريقها .

٣ - ولم تظهر بعد نظرية تناسب وتوافق الحقائق بهذه الدقة (٤) .

Organic Evolution, p. 15.

(١)

Revolt against Reason, p. 112.

(٢)

Ibid, p. 111.

(٣)

Clearer Thinking, p. 112.

(٤)

فاذا كانت هذه الأدلة كافية لتصبح نظرية الارتقاء حقيقة علمية
فهى كذلك موجودة فى جانب الدين على وجه أتم وأكمل . والقول
بصدق نظرية الارتقاء وإبطال الدين فى نظر الذهن العلمى لا يعنى
مطلقا أن قضية المعارضين هى قضية الاستدلال العلمى ، وإنما هذه
القضية تتعلق « بالنتيجة » ، فلو أثبت نفس الاستدلال أمرا « طبيعيا
محضا » فسيقبله المعارضون ، وسيرفضونه لو أثبت أمرا الهيا -
لأنه غير مرغوب فيه عندهم .



مشكلة تعيين حقائق الأمور :

وبهذا لا ينبغى القول بان الدين هو « الايمان بالغيب » ، وبأن
العلم هو الايمان « بالملاحظة العلمية » ، فالدين والعلم كلاهما يعتمد
على الايمان بالغيب . غير أن دائرة الدين الحقيقية هى دائرة «تعيين
حقائق الامور » نهائيا وأصليا ، أما العلم فيقتصر بحثه على المظاهر
الأولية والخارجية ، فحين يدخل العلم ميدان تعيين حقائق الأمور
تعيينا حقيقيا ونهائيا - وهو ميدان الدين الحقيقى - فإنه يتبع نفس
طريق الايمان بالغيب . الذى يتهم به الدين . ولا بد من هذا
السلوك فى « الميدان الثانى » ، كما قال سير آرثر ادنجتن : « أن
عالمنا فى العصر الحاضر يعمل على منضدتين فى وقت واحد : أحدهما
المنضدة العامة التى يستعملها الرجل العادى ، التى يمكن لمسها
ورؤيتها . وأما الأخرى : فهى « المنضدة العلمية » ، وأكثرها فى
الفضاء ، وتجرى فيها الكترونات لا حصر لها ولا تشاهد » ،
ويستطرد سير آرثر ادنجتن قائلا : « وهكذا نجد لكل شئ صورة
ذات وجهين ، أحدهما : (ملحوظ) ، والاخر : (صورة فكرية)
لا سبيل الى مشاهدتها بأى ميكروسكوب أو تلسكوب » (١) .

أما الوجه الأول فيشاهده العلم ، ويشاهده لمدى بعيد جدا ، ولكنه لا يستطيع أن يدعى أنه يشاهد الوجه الآخر . وطريقة العلم الحديث أنه يقدم رأيا عن شيء بعد مشاهدة مظهره . وأما «الميدان الثاني» فهو ميدان معرفة حقائق الأشياء وتعيينها ، و «العلم» في هذا الميدان هو البحث عن حقائق غير معلومة ، بوساطة حقائق معلومة .

وعندما يجتمع لدى عالم من العلماء قدر مناسب من «الحقائق الملحوظة» فإنه يحس بضرورة وضع نظرية أو فرض علمي . وبعبارة أدق . ضرورة فكرة اعتقادية ووجدانية ، تقوم بتفسير الملاحظات ، وربط بعضها ببعض ، فإذا نجحت هذه الفكرة الاعتقادية في تفسير الحقائق تفسيرا كاملا عدت حقيقة علمية ، رغم أنها لم تلاحظ قط كما لوحظت الحقائق الأخرى التي نعرفها بالمشاهدة ، أو بالملاحظة العلمية .

ومعنى ذلك أن العالم يؤمن بوجود شيء غائب بمجرد ظهور نتائجه وآثاره ، فكل حقيقة يؤمن بها تكون دائما (فرضا) في أول أمرها ، إلى أن تكشف حقائق جديدة تدعم صدقها ، فنزداد يقينا بها . حتى نبلغ حد اليقين : وإذا لم تؤيدها الملاحظات اللاحقة تخليتها عنها . ومن أمثلة هذه «الحقائق» : حقيقة «الذرة» التي لا سبيل إلى إنكارها ، رغم أنها لم تشاهد قط بالمعنى المعروف ، ولكنها تعتبر أكبر حقيقة علمية كشفت في هذا العصر . وهذا هو السبب الذي دفع أحد العلماء أن يعرف (النظريات) العلمية بالألفاظ التالية :

«Theories are Mental Pictures, That Explain Known Laws»

« النظريات صور ذهنية تفسر القوانين المعلومة » .

حقيقة النظريات العلمية :

أن الحقائق التي تعرف في العلم باسم «الحقائق الملحوظة» ،

ليست بحقائق شوهدت فعلا ، وانما هي تفسيرات لبعض المشاهدات لأن المشاهدة الانسانية لا يمكن أن توصف بأنها (كاملة) ، ولذا فان جميع هذه التفسيرات تعد «اضافية» ، ومن الممكن ان تتغير بتطور الملاحظة .

ويقول البروفيسور سوليفان بعد نقد وجهه الى النظريات العلمية :

« هذا العرض للنظريات العلمية يثبت أن معنى « نظرية علمية صحيحة » أنها « فروض عملية ناجحة Successful Working Hypothesi ومن الممكن تماما أن يكون سائر النظريات العلمية باطلا ، ذلك أن النظريات التي نعتبرها اليوم (حقيقة ليست الا « قياسا على وسائلنا المحدودة للملاحظة » ، ولا تزال قضية الحقيقة في عالم العلم « قضية عملية نفعية Pragmatic Affair (١) .



ولا يزال العلماء بعد هذا يعتبرون أن الفرض الذي يفسر ملاحظاتهم لا يقل في قيمته عن « الحقيقة الملحوظة » نفسها ، فهم لا يستطيعون أن يقولوا : أن الحقائق الملحوظة هي وحدها « العلم » وأن ما سواها من النظريات الشارحة لا تدخل في نطاق (العلم) ، لأنها غير ملحوظة . . . والحق أن هذا هو ما نسميه « الايمان بالفيب » وهو بالنسبة الى المؤمنين ليس سوى الايمان بحقائق غير ملحوظة ، فهو ليس بعقيدة عمياء ، وانما هو خير تفسير للحقائق التي يشاهدها العلماء . . .

وكما رفض العلماء نظرية الضوء التي قدمها نيوتن وتعرف باسم Corpuscular Theory of light لأنها لم تنجح في تفسير مظاهر

J.W.N. Sullivan, Limitations of science, p. 158.

(١)

حديثة للضوء ، فاننا نرفض افكار الفلاسفة الملحدين ، لأنها فشلت في تفسير مظاهر الطبيعة .

ان مأخذ حقائق الدين هو نفس المأخذ الذى يستقى منه العلم الحديث ملاحظاته ، لكى يثبت نظرية علمية . ولقد انتهينا بعد دراسة الحقائق الملحوظة الى أن تفسير الدين للطبيعة هو عين الحق حتى أن هذا التفسير لم يتغير ، ولن يتغير على مر الدهور ، على حين أن كل نظرية صاغها الانسان منذ قرن ، أو أكثر أو أقل قد رفضت أو أصبحت موضع شك الآن .

وأن صدق الدين ليتجلى بعد كل خطوة نخطوها في الملاحظة ، حتى ليصبح كل كشف علمى جديدا تصديقا لحقائق الدين .

ولسوف نطالع أفكار الدين من هذه الناحية في الأبواب التالية.

الباب الرابع

الطبيعة تشهد بوجود الاله :

أصدرت الكنيسة المسيحية في كيرالا جنوبى الهند كتيباً بعنوان:

« Nature and Science Speak about God »

« الطبيعة والعلم يتحدثان عن الله » . . وأعتقد أن هذه الكلمات هي أفضل عنوان لهذا الباب .

ان أكبر دليل على وجود الاله هو مخلوقه ، هذا الذى نجده أمامنا ، وأوثق ما علمنا من حقائق الطبيعة يدعونا الى الايمان بأنه لا ريب أن لهذه الدنيا الها واحدا . ونحن لانستطيع أن نفهم أنفسنا وان نفسرها ، بله الكون كله - مجردين من الايمان بوجود الاله .

ان وجود الكون ، والنظام العجيب الذى اشتمل عليه ، وأسراره الدقيقة ، لا يمكن تفسير ذلك كله الا بأنه قد خلقته (قوة) ، وان هذه القوة (عقل) لا حدود له ، وانها ليست بقوة عمياء .

اولا - نظرية التشكيك فى الوجود :

هناك جماعة من المفكرين هزيلة العدد جدا ، « تشك » فى مجرد وجود مثل هذه القوة . وتعتقد هذه الجماعة انه لا وجود للانسان ولا للكون ، وان الوجود عبارة عن عدم محض ، ولا شىء غير ذلك .

فلو سلمنا بهذه الفكرة لالتبس علينا أمر الاله دون شك . . ولكننا حين نؤمن بأن الكون موجود نضطر تلقائيا ان نؤمن بالاله ، أو بالقوة الخالقة - كما نسميها ، فليس بمعقول أن نؤمن بالوجود من عدم المحض ، ذلك قياس باطل !!

فهذا التشكيك في وجود الكون ، والذي يتخذ أحيانا شكل نظرية ال « لا ادريّة » (١) - يمكن أن يعد نكتة فلسفية ، لا علاقة لها بالحقيقة . فنحن حين نفكر يكون فكرنا هذا دليلا قاطعا في ذاته على أن لنا وجودا (٢) . وحين نصطدم في الطريق بحجارة ثم نتألم فهذا الواقع دليل في ذاته على أن هناك عالما موجودا وجودا ذاتيا خارج وجودنا . وهكذا تدرك حواسنا في كل وقت أشياء كثيرة ، من الفرح والألم والتذوق ، فهذا الاحساس والشعور دليل لكل شخص على أنه موجود في كون ، وعلى أنه يملك وجوده الذاتي ، وحينئذ فلو قام أحد يشكك نفسه في وجوده الذاتي ووجود الكون فسوف نعتبر ذلك حالة استثنائية مفردة ، لا ترتبط بتجربة الملايين من جماهير الناس : وسوف نقول عن هذا الرجل الفذ : انه قد غاب في عالمه الذهني ، حتى نسي نفسه . .

بل اننا لو سلمنا - جدلا - بأنه ليس للكون في ذاته وجود خارج ذاتنا ، فليست اعتبر هذا دليلا ملزما بأنه لا وجود للاله .

وعلى كل حال فهذه هي الفكرة الوحيدة التي ترى وجود الاله ، مشكوكا فيه ، بكل ما تتضمن من السفسطة والجهالة وانعدام الواقعية ، وهي فكرة لا معنى لها في ذاتها ، وليست مفهومة لدى جمهور الناس ، كما أنها لم تحظ بقبول في دنيا العلم .

الوجود والخلق :

ان الانسان العادي ، والعالم العادي يؤمن على كل حال بأن

(١) هذا مصطلح مستعمل في اللغة الاردية مأخوذ من عبارة « لا أدري » . يشير الى الاتجاه الذي ينكر معرفة شيء عن الكون ، لان الكون لا وجود له على الحقيقة - المراجع .

(٢) يستخدم المؤلف هنا تلك العبارة الفلسفية الشائعة : « انا أفكر ، اذن فأنا موجود » .

« له » وجودا ، وبأن للكون أيضا وجودا ، وعلى هذا الأساس من العلم والايمان تقوم جميع ألوان النشاط العلمى والحيوى .

فاذا آمننا بوجود الكون فلا بد أن نؤمن باله هذا الكون منطقيا . .
اذ لا معنى لأن نؤمن بالمخلوق ونرفض وجود خالقه ، ونحن لا نعلم شيئا جاء الى الوجود من العدم ، دون أن يخلق ، فكل شيء مهما بلغ حجمه ، عظم أو صغر ، جل أو دق ، وراءه علة ، فكيف بنا نؤمن بأن كونا عظيما مثل كوننا - جاء الى الوجود ذاتيا ، دون خالق ؟

ذكر (جون ستيوارت ميل) فى سيرة حياته : أن أباه قد علمه ان سؤال « من الذى خلقنى ؟ » لا يكفى لاثبات وجود الاله ، اذ ينجم تلقائيا سؤال : « فمن الذى خلق الاله ؟ » ، وقد اعتبر (برتراند رسل) هذا الاعتراض الثانى كافيا لرفض مدلول السؤال الاول (١) .

ونحن نعرف أن هذا الاستدلال قديم جدا لدى الملحدين ، ومقتضاه : اننا لو افترضنا خالقا للكون فسوف نضطر ان نتصوره أزليا !!

الأزلى : الخالق أم المادة ؟

واذا كان لا مناص من افتراض أزلية هذا الخالق فلماذا لا نؤمن بأزلية هذا الكون وهذا الكلام لا معنى له لأننا لم نعثر على صفات للكون أية كانت تثبت أنه خالق نفسه .

ولقد كان لهذا الاستدلال حسنه ورواؤه حتى القرن التاسع عشر ، ولكننا اليوم ، وبعد كشف « القانون الثانى للحرارة الديناميكية » Second Law of Thermo Dynamics نجد أن هذا الاستدلال فقد كل أساس كان يقوم عليه .

Morton White, The Age of Analysis, pp. 21 - 22.

(١)

وهذا القانون الذى نسميه « قانون الطاقة المتاحة » أو « ضابط التغير » Law of Entropy يثبت انه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزليا ، فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائما من (وجود حرارى) الى (عدم حرارى) ، والعكس غير ممكن ، وهو أن تنتقل دائما هذه الحرارة من (وجود حرارى قليل) أو (وجود حرارى عدم) الى (وجود حرارى أكثر) . فان ضابط التغير هو التناسب بين (الطاقة المتاحة) و (الطاقة غير المتاحة) .

وبناء على هذا الكشف العلمى الهام فان « عدم كفاءة عمل الكون » يزداد يوما بعد يوم ، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات ، وحينذاك لا تبقى أية طاقة مفيدة (للحياة والعمل) ، وسيترتب على ذلك ان تنتهى العمليات الكيماوية والطبيعية وتنتهى - تلقائيا - مع هذه النتيجة « الحياة » .



وانطلاقا من هذه الحقيقة القائلة بأن العمليات الكيماوية والطبيعية جارية ، وان الحياة قائمة ، يثبت لدينا قطعا أن الكون ليس بأزلى اذ لو كان الكون أزليا لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد ، بناء على هذا القانون ، ولما بقى فى الكون بصيص من الحياة .

يذكر هذا التحقيق العلمى الحديث عالم أمريكى فى علم الحيوان هو الأستاذ (ادوارد لوثر كسيل) فيقول :

« وهكذا أثبتت البحوث العلمية - دون قصد - ان لهذا الكون بداية » فأثبتت تلقائيا وجود الاله ، لأن كل شىء ذى بداية لا يمكن أن يتبدى بذاته ، ولا بد أن يحتاج الى المحرك الاول - الخالق الاله (١) .

The Evidence of God, p. 51.

(١)

وقد قال نفس الكلام السير جيمس : « تؤمن العلوم الحديثة بأن (عملية تغير الحرارة) Entropy سوف تستمر حتى تنتهى طاقتها كلية ، ولم تصل هذه العملية حتى الآن الى آخر درجاتها ، لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض ، حتى نفكر فيها . ان هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن ، ومن ثم لا بد لها من بداية ، ولا بد انه قد حدثت عملية في الكون ، يمكن أن نسميها « خلقا في وقت ما » حيث لا يمكن ان يكون هذا الكون أزليا » (١) .

وهناك شواهد طبيعية كثيرة تثبت أن الكون لم يكن موجودا منذ الأزل ، وان له عمرا محدودا ، وعلى سبيل المثال ، نجد « علم الفلك » يقرر أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم ، وان كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مذهشة ، بعضها عن بعض . ويمكن أن نفسر هذه الحالة تفسيرا جيدا اذا نحن سلمنا بوقت للبدء ، كانت فيه كل الأجزاء التركيبية مركزة ومجموعة بعضها مع بعض ، ثم بدأت الحركة والحرارة ، ويقدر العلماء أن هذا الكون قد وجد نتيجة « لانفجار » فوق العادة ، وقع منذ ر..... ر..... ر..... سنة

فالإيمان بهذا الكشف العلمى ، وهو أن للكون عمرا محدودا يتعارض مع انكار وجوده ، ومثل من يؤمن بحدوث الكون مع انكاره لوجود خالقه . كمثل من يزعم ان « تاج محل » قام بنفسه من غير بنائين ومهندسين ، مع تسليمه بأنه بنى في القرن السابع عشر الميلادى ، ولم يكن موجودا منذ الازل .

ثانيا - الكشف الفلكية :

يدلنا علم الفلك على أن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار في الدنيا كلها ، منها ما هو أكبر بقليل

من الأرض ، ولكن أكثرها كبير جدا ، حتى يمكن ان نضع في واحد منها ملايين النجوم ، في مثل حجم الأرض التي نعيش عليها ، ولسوف يبقى فيه مع ذلك مكان خال !!

ان كوننا هذا فسيح جدا . ولكي نفهمه نتصور طائرة خيالية تسير بسرعة (١٨٦٠٠٠) ميلا في الثانية الواحدة ، وان هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن . ان هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق (١٠٠٠٠٠٠٠٠) سنة ، يضاف الى ذلك ان هذا الكون ليس بمتجمد ، وانما هو يتسع كل لحظة ، حتى انه بعد (١٠٠٠٠٠٠٠٠٠) سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين !! وهكذا لن نستطيع هذه الطائرة الخارقة في سرعتها الخيالية ان تكمل دورانها حول هذا الكون أبدا ، وانما سوف تظل تواصل رحلتها في نطاق هذا التوسع الدائم في الكون (١) .

عندما تكون السماء صافية نستطيع ان نرى بالعين المجردة خمسة آلاف من النجوم ، ولكن هذا العدد يتضاعف الى أكثر من (٢٠٠٠٠٠٠) من النجوم حين نستعمل تلسكوبا عاديا . وأقوى تلسكوب في العالم هو الذي يوجد في مرصد (ماؤنت بالومار) في الولايات المتحدة الأمريكية ، ويستطيع ان يشاهد بلايين من النجوم .

ان الفضاء الكوني فسيح جدا ، تتحرك فيه كواكب لاحصر لها ، بسرعة خارقة ، بعضها يواصل رحلته وحده ، ومنها أزواج تسير مثني مثني ، ومنها ما يتحرك في شكل مجموعات ، ولو أنك لاحظت ضوء الشمس الذي يدخل غرفتك من الشباك ، فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الفبار تتحرك وتسير في الهواء ، فلو استطعت ان تتخيل هذا في شكل أعظم لأمكنك أن تحظى من الفهم بشيء عن

(١) هذه هي نظرية اينشتين عن الكون ، ولكنها ليست الا « فياسا رياضية »

الحقيقة أن الانسان لم يستطع حتى الآن أن يفهم سعة هذا الكون !!

السيارات والكواكب في الكون، مع الفرق الهائل المتمثل في أن ذرات الفبار تتحرك ، ويتصادم بعضها مع بعض ، ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى . ومثلها مثل بواخر عديدة تمشى في أعالي البحار متباعدة ، حتى أن أحسداها لا تعرف شيئا عن الأخرى . أن هذا الكون يتألف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم ، وتسمى « مجاميع النجوم » وكلها تتحرك دائما ..

وأقرب حركة منا هي حركة القمر التي تبعد عنا (٢٤.٠٠٠) ميلا ، وهو يدور حول الأرض ، ويكمل دورته في مدة تسعة وعشرين يوما ونصف يوم . وكذلك تبعد أرضنا هذه عن الشمس (٩٣.٠٠٠.٠٠٠) ميلا ، وهي تدور في محورها بسرعة ألف ميل في الساعة ، في دائرة (١٩.٠٠٠.٠٠٠) ميلا ، وتستكمل هذه الدائرة مرة واحدة في سنة كاملة . وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة . وأبعد هذه الكواكب السيارة (بلوتو) الذي يدور في دائرة (٧.٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠) ميلا حول الشمس وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمرا أخرى ، توجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين ألفا من « النجيمات » ، وآلاف من النجوم ذوات الأذنان ، وشهب لا حصر لها ، وكلها تدور ، وفي وسطها ذلك السيار العملاق الذي نسميه « الشمس » ، وقطرها (٨٦٥.٠٠٠) ميلا وهي أكبر من الأرض (١٢٠.٠٠٠) مرة !!

ثم ان هذه الشمس ليست بثابتة ، أو واقفة في مكان ما ، وإنما هي بدورها ، مع كل هذه السيارات والنجيمات ، تدور في هذا النظام الرائع بسرعة (٦٠.٠٠٠) ميل في الساعة .. وهناك آلاف من الأنظمة ، غير هذا النظام الشمسي ، يتكون منها ذلك النظام الذي نسميه « مجاميع النجوم » ، أو المجرات ، وكأنها جميعا طبق عظيم تدور عليه النجوم والكواكب منفردة ومجموعة ، كما يدور الخدروف الذي يلعب به الأطفال . ومجرات النجوم هذه تتحرك

بدورها أيضا والمجرة التي يقع فيها نظامنا الشمسي تدور على محورها بحيث تكمل (دورة واحدة) في (٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠) سنة ضوئية .



ويقدر علماء الفلك ان هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم ، مضروبا هذا العدد في (٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) ، من الملايين ، وفي كل مجموعة منها يوجد (مائة مليار) من النجوم ، أو أكثر أو أقل ، ويقدر ان أقرب مجموعة من النجوم ، وهي التي نراها في الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيزا مداه مائة ألف سنة ضوئية . ونحن - سكان الأرض - نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية ، وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة ، وقطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونان من السنين الضوئية .

ومع هذا الدوران تجرى حركة اخرى ، وهي أن هذا الكون يتسع من كل جوانبه ، كالبالون المتخذ من المطاط ، حين ينفخ فيه الأطفال ، وشمسنا هذه - وهي تدور حول نفسها - تدور بنا أيضا على الحاشية الخارجية للمجرة ، وهي تتباعد عن هذه الحاشية الخارجية بمقدار اثني عشر ميلا ، كل ثانية ، كما تتبعها في هذه العملية جميع النجوم الداخلة في النظام الشمسي . وهكذا جميع السيارات تسير الى جانب أو آخر ، مع دورانها الخاص طبقا لنظامها فمنها ما يسير بسرعة ثمانية أميال في الثانية ، ومنها ما يسير بسرعة ثلاثة وثلاثين ميلا في الثانية ، ومنها ما يسير بسرعة أربعة وثمانين ميلا في الثانية . وجميع النجوم ، على هذا النحو ، تبتعد في كل ثانية ، بسرعة فائقة عن مكانها . هذه الحركة المدهشة تحدث طبقا لنظام وقواعد محكمة ، بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ، ولا يحدث اختلاف في سرعتها .

ان حركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط ، بحيث لا يمكن أن يحدث أدنى تغير فى سرعة دورانها ، حتى بعد مرور قرن من الزمان . وهذا القمر ، الذى يتبع فى حركة الأرض ، يدور فى فلك مقرر ومنضبط ، مع تفاوت يسير جدا ، يتكرر بعد كل ثمانية عشر عاما ونصف عام ، بدقة فائقة ، وتلك هى حال جميع الأجرام السماوية . ويرى علماء الفلك أن مجرات النجوم يتداخل بعضها فى بعض ، فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة ، فى مجرة أخرى مثلها (وتتحرك سياراتها هى الأخرى) ، ثم تخرج منها بسياراتها جميعا ، دون أن يحدث أى تصادم بين سيارات المجرتين .

وان العقل ، حين ينظر الى هذا النظام العجيب ، والتنظيم الدقيق الغريب ، لا يلبث أن يحكم باستحالة أن يكون هذا كله قائما بنفسه ، بل أن هناك طاقة غير عادية هى التى تقيم هذا النظام العظيم ، وتهيمن عليه .



الأنظمة المعقدة :

ان هذا النظام الذى يوجد فى العوالم الكبرى ، نجده - فى صورته الكاملة - فى أصغر عالم عرفناه ، فنحن نعرف - طبقا لأحدث معلوماتنا - أن الذرة أصغر عالم ، وأنها قد تناهت فى صغرها حتى لا يمكن أن نشاهدها بالمنظار الذى يكبر الأشياء ملايين المرات فهى - بناء على هذا - ليست شيئا ، بل انها « لا شيء » بالنسبة الى أدنى ما يستطيع البصر الإنسانى أن يراه ، ولكن هذه الذرة - مع ما وصفناها به - تحتوى بصورة رائعة على نظام الدوران العجيب الموجود فى النظام الشمسى ، فالذرة اسم لمجموعة من الإلكترونات وهذه الإلكترونات لا يتصل بعضها ببعض ، وإنما يوجد بينها فراغ كبير الحجم (نسبيا) . ولناخذ مثلا قطعة من الحديد التى توجد فيها الذرات ، متصلا بعضها ببعض اتصالا شديدا . وسنجد أن

هذه الالكترونات لا تشغل أكثر من $\frac{1}{1000000}$ من مساحة
الذرة ، وبقية المجال يكون خاليا . ولو اننا أخذنا صورة مكبرة
لجزئين من الالكترون والبروتون فسوف يكون الفاصل بينهما ما يقرب
من ثلاثمائة وخمسين ياردة . ولقد نتصور الذرة ، من حيث هي في
الفبار ، غير مرئية ، ومع هذا فان حجم دوران الالكترون داخلها
يبلغ حجم كرة قدم قطرها ثمانية أقدام .

والالكترونون - الذى هو الجزيء السلبى فى الذرة - يدور حول البروتون - الذى هو الجزيء الايجابى فيها - وهذه الجزيئات التى لا حقيقة لها أكثر من نقط وهمية سابحة فى الشعاع ، تدور حول مركزها ، بنفس النظام الذى تتبعه الارض فى مدارها حول الشمس بحيث لا يمكن تصور وجود الالكترونون فى مكان محدود لسرعة دورانه ، وانما هو يتخيل فقط موجودا على طول مداره فى وقت واحد . ذلك لأنه يدور حول مداره بلايين المرات فى الثانية الواحدة !!

هذا النظام الذري يستحيل قيامه بنفسه ، ولا طريق الى مشاهدته ، ولا يمكن تفسير عمله داخل الذرة بغير العلم ، أما وقد تبناه العلم فعلا ، فلماذا لا نأخذ منه دليلا على وجود منظم قائم على هذا التنظيم ؟ انه يستحيل قيام هذا التنظيم في الذرة دون منظم قائم عليه .

اننا نتحير اذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التليفون ، ونتحير اذا وجدنا أن مكالمة من لندن الى ملبورن باستراليا تتم في بضع ثوان ، فاذا كان تعقيد نظام أسلاك التليفون يوقعنا في هذه الحيرة ، فما بالناس بنظامنا العصبى ، وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيدا ؟! أن ملايين الاخبار تجرى على أسلاك نظامنا العصبى - الذى أوجدته الطبيعة - من جانب الى آخر ، ليل نهار . وهذه الاخبار هى التى توجه القلب فى تدفقها ، وفى حركتها ، وتتحكم فى حركات الأعضاء

المختلفة ، وتتحكم في الحركات الرئوية . ولو لم يكن هذا النظام موجودا في أجسامنا لصارت الاجسام تليفقا لأشياء مبعثرة تسلك كل منها مسلكها الخاص .

ومركز هذا النظام للمواصلات مخ الانسان ، وفي هذا المخ يوجد ألف مليون خلية عصبية ، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر في سائر الجسم ، وتسمى هذه الأسلاك «الأنسجة العصبية» ، وفي هذه الأنسجة يجرى نظام استقبال وارسال للأخبار، بسرعة سبعين ميلا في الساعة ، وبوساطة هذه الأنسجة نتذوق ، ونسمع ، ونرى ، ونباشر سائر أعمالنا ، بل ان هنالك ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة وتسمى Taste Buds ولكل منها سلك عصبى خاص متصل بالمخ . وبوساطة هذه الشعيرات يحس بالمذاقات المختلفة . وتوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية . ومن خلال نظام معقد ، يسرى من هذه الخلايا ، يسمع مخنا . وفي كل عين مائة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتصقة للضوء Light Receptors ، وتقوم بمهمة ارسال المجموعة التصويرية الى المخ ، وهناك شبكة من الأنسجة الحسية، على امتداد جلدنا ، فاذا قربنا الى الجلد شيئا حارا ، فان ثلاثين ألفا من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فورا الى المخ . واذا قربنا الى الجلد شيئا باردا ، فان ربع مليون من الخلايا ، التى تلتقط الاشياء الباردة ، تحس به ، وعندئذ يمتلىء المخ بآثرها ، ويرتعد الجسم ، وتتسع الشرايين الجلدية ، فيسرع مزيد من الدم اليها ويزودها بالحرارة ، واذا أحست هذه الخلايا بحرارة شديدة، فان مخابرات الحرارة توصلها الى الدماغ، وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية — تلقائيا — عرقا باردا الى خارج الجسم .

والنظام العصبى يشتمل على عدة فروع . منها : « الفرع المتحرك ذاتيا » Autonomic Branch ويقوم بأعمال تحدث ذاتيا

فى الجسم ، كعملية الهضم والتنفس وحركات القلب . ويندرج تحت هذا الفرع نظامان : أحدهما : « النظام الخالق للحركة » Sympathetic System والآخر : هو المانع لها Payasympathetic

وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع . ولو ترك الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه ، ولو سيطر النظام الثانى لتوقفت حركة القلب توقفا تاما . وأقسام هذين النظامين مباشر أعمالها فى دقة فائقة ، وفى توازن عام ، ولكن هناك حالات يرداد فيها نشاط أحد النظامين ، فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب الى قوة مسعفة ، وعندئذ تزيد سرعة عمليات القلب والرئة ، والنظام الثانى يتغلب عند النوم ، فيسود السكون بجميع الحركات الجسمية .

تقليد الطبيعة :

ان أحسن الآلات من صناعة الانسان لا يمكن أن تقف امام النظام العجيب الذى يوجد فى الكون . ولهذا فان تقليد نظام الطبيعة قد أصبح اليوم موضوعا خاصا فى العلم ، يولى أهمية خاصة للسير بالآلات الميكانيكية وفق ذلك النظام . وأصبحنا نرى علما جديدا يسمى « بيونيكس » Bionics لهذه الدراسة . وكانت مقتصرة من قبل على اكتشاف القوى الكامنة فى الطبيعة واستغلالها .

واليوم يسلك النظام البيولوجى سبلا كثيرة للحصول على معلومات تساعد على حل مسائل الهندسة .

ومن أمثلة استغلال نظام الطبيعة فى الصناعة آلة التصوير ، وهى فى الواقع تقليد ميكانيكى لعين الانسان ، فعندسة الكاميرا Lens هى كالشبكة الخارجية للعين ، والحجاب الحاجز Diaphragm هو قزحية العين Iris والفيلم الذى يتأثر بالضوء

انما هو شاشة العين التى توجد فيها خطوط وأشكال مخروطية ترى الأشياء معكوسة (١) .

لقد ابتكرت جامعة موسكو آلة نموذجية لالتقاط وقياس « الذبذبات تحت الصوتية » Infar-Sonic Vibrations . وهذه الآلة تستقبل وتلتقط أخبار الفيضانات والزلازل وما شابهها من الكوارث قبل حدوثها بمدة تتراوح بين اثنتى عشرة ساعة ، وخمس عشر ساعة . وهى أقوى من الآلات المستعملة خمس مرات . فمن أين جاء هذا التفكير الى العلماء ، لقد استنبطوه من سمكة قنديل البحر التى تسمى « هلامى » Jenyfish فقلد المهندسون أعضائها وهى شديدة الحساسية ، حتى لتحس بالذبذبات تحت الصوتية (٢) .

وهناك أمثلة كثيرة جدا غير هذه يمكن عرضها ، وهى تؤكد أن علماء الطبيعة والتكنولوجيا يقلدون - فى تفكيرهم الحديث - النماذج الحية فى الطبيعة .

وقد شغلت بال العلماء مسائل كثيرة من أزمان مضت ، على حين حلتها الطبيعة منذ زمن بعيد ، وان كانت أجهزة التصوير وتلقى الاخبار « التليبرنتر » لا يمكن وجودها بغير عقل انسانى ، فمن المستحيل أن نتصور أن نظام الكون - الذى هو أكثر تعقيدا من أى نظام - قد قام بنفسه بغير عقل وراءه ، بل لابد ان له مهندسا منظما - هو الاله ، ولا يمكن ان يتصور العقل نظاما دون منظم ، فليس من اللامعقول ان نعتقد بوجود منظم للكون ، بل ان من اللامعقول ان

(١) لن يجرؤ صاحب علم منا أن يدعى أن آلة التصوير جاءت عن نفسها ، دون اختراع انسانى . ولكن الكثيرون من علمائنا يعتقدون أن « العين » جاءت عن صدفة واتفاق محض !! .

Soviet Land, Delhl, Dec. 1963.

(٢)

ننكر خالق هذا النظام ، فالحقيقة ان العقل الانسانى لا يملك أساسا عقليا لانكار الاله .

ثالثا - روح الكون الغريبة :

ليس الكون كسلة المهملات ، وانما هو منظو على روح غريبة . وهذه الروح لا يمكن أن تصدر الا عن عقل قام بخلق الكون ، ويقوم بتدبيره .

وليس من الممكن ان يوجد نظام وروح فى عملية مادية عمياء ، حدثت اتفاقا ، فالكون متوازن ، ومتناسب الى حد لا يمكن تصوره لقد قال « شادفاش » Chadvalsh : « ان من الممكن ان نسأل أى رجل - مؤمنا بالله كان أو منكرا له - نسأله ان يثبت كيف يمكن ان يكون هذا التوازن فى صالحه ، اذا كان الكون قد وجد بمحض الصدفة ؟ » (١) .

لابد للحياة فوق الأرض من أحوال كثيرة ، يستحيل اجتماعها بنسبها الخاصة رياضيا . ولكننا نجد أن هذه الحالات المستحيل اجتماعها رياضيا موجودة على سطح الأرض فعلا . وذلك يحتم علينا أن نؤمن بأن هنالك طاقة عظيمة عاقلة وراء الكون ، هى المتسببة فى وجود هذه الحالات .



التوازن المدهش فى الأرض :

الأرض أهم عالم عرفناه ، اذ توجد فيها أحوال لا توجد فى شىء من هذا الكون الواسع ، وهى فى ضخامتها (كما تبدو لنا) لاتساوى ذرة من هذا الكون العظيم ، ولو أن حجمها كان اقل أو أكثر ، مما هى عليه الآن لاستحالت الحياة فوقها ، فلو انها كانت فى حجم القمر

مثلا ، بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلا . لكنت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية ، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها ، كما هي الحال في القمر ، الذي لا يوجد فيه ماء ولا يحوطه غلاف هوائي ، لضعف قوة الجاذبية فيه . وانخفاض الجاذبية في الأرض الى مستوى جاذبية القمر سيترتب عليها اشتداد البرودة ليلا حتى يتجمد كل ما فيها ، واشتداد الحرارة نهارا حتى يحترق كل ما عليها .

وكذلك يترتب على نقص حجم الأرض الى مستوى حجم القمر انها لن تمسك مقداراً كبيراً من الماء . وكثرة الماء أمر ضروري لاستمرار الاعتدال الموسمي على الأرض ، ومن ثم أطلق أحد العلماء على هذه العملية لقب « عجلة التوازن العظيمة » Great Balance Wheel (1) وكذلك سيرتفع الغلاف الهوائي الأرضي للأرض في الفضاء ثم يتلاشى . ويتبع ذلك من تتبع درجة حرارة الأرض اقصى معدلها ، ثم تنخفض الى ادنى درجاتها ، على ما سبق ذكره .

وعلى العكس من ذلك ، اذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت جاذبيتها الحالية ، وحينئذ ينكمش غلافها الجوي - الذي هو على بعد خمسمائة ميل - الى مادون ذلك . وسيترتب على هذا ان يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلا الى ثلاثين من الضغط الجوي ، وهو ضغط يؤثر اسوأ الاثر في الحياة .

ولو ان الأرض تضاعف حجمها ، فصارت مثل حجم الشمس مثلا ، لبلغت قوة الجاذبية فيها مثل جاذبيتها الحالية مائة وخمسين مرة ، ولاقترب غلافها الهوائي ، حتى يصير منها على بعد أربعة اميال فقط ، بدلا من خمسمائة ميل ، ولارتفع الضغط الجوي الى معدل طن واحد على كل بوصة مربعة . وذلك يؤدي الى استحالة

نشأة الأجسام الحية ، وهو من الناحية النظرية يعنى أن يصير وزن الحيوان الذى يزيد رطلا واحدا - تحت الكثافة الهوائية الحالية - خمسمائة رطل . كما يهبط حجم الانسان حتى يصير فى حجم فأر كبير ، ولاستحال وجود العقل فى الانسان ، لأنه لابد للعقل الانسانى من أنسجة عصبية كثيرة فى الجسم ، ولا يوجد هذا النظام الا اذا كان حجم الجسم بقدر معين .



نحن قائمون على الأرض ظاهرا ، ولكن الأصح أن نقول : نحن ملقون على رؤوسنا ، ولتوضيح ذلك نقول : أن الأرض مثل كرة معلقة يسكنها الانسان ، فوضع الناس بعضهم بالنسبة الى بعض على هذه الكرة معناه أن سكان أمريكا سيكونون تحت سكان أهالى الهند ، وسكان الهند سيكونون تحت أقدام سكان أمريكا .

فأرضنا هذه ليست بثابتة ، وانما هى تدور بسرعة مقدارها ألف ميل فى الساعة ، وذلك يجعل وضعنا فوقها أشبه بحصاة وضعت على محيط عجلة تدور بسرعة ، يوشك أن تقذف بها فى الفضاء ، ولكن الأرض لا تقذفنا ، بل نحن مستقرون عليها ، فكيف تمسكنا وهى تدور بهذه السرعة ؟ ! ! .

أن فى الأرض جاذبية غير عادية ، وهى بهذه الجاذبية تشد كل شئ اليها ، فجاذبية الأرض وضغط الهواء المستمر يمسكانا فوقها بنسبة معلومة ، وهكذا صرنا مشدودين بهاتين العمليتين الى كرة الأرض من كل ناحية .

وضغط الهواء الذى يكون على كل بوصة مربعة ما يقرب من ١٥ رطلا معناه : أن كل انسان يتحمل ما يقرب من ٢٢٨٠ رطلا من الضغط الجوى على جسمه ، ولكن الانسان لا يحس بهذا الوزن ، لأن الهواء يضغطه من كل ناحية ، كما يحدث عندما نسبح فى الماء .

ثم أن الهواء — وهو علم معين مركب من الغازات — ذو فوائد كثيرة،
لا يمكن حصرها في كتاب .

* * *

لقد توصل نيوتن ، من خلال مشاهداته ومطالعاته ، الى أن
الأجسام يجر بعضها بعضا، ولكنه لم يستطع تعليل هذا، ولذا سلم
بأنه لا تفسير لديه لهذه العملية .

ولقد ذكر هذه المسألة « هوايت هيد » قائلا :

« لقد كشف نيوتن — حين سلم بهذا — عن حقيقة فلسفية
عظيمة ، هي ان الطبيعة لو كانت بغير روح فلن تفسر نفسها ، كما
أن الشخص الميت لا يستطيع ان يحكى لنا واقعا . أن جميع
التفسيرات الطبيعية والمنطقية لم تزد أخيرا على أن تكون أظهارا
لهدف ، لأن الميت لا يمكن ان يكون حامل (١) أهداف .

وسوف أدفع حديث (هوايت هيد) الى الامام قائلا : انه اذا
لم يكن هذا الكون تحت سلطان « وجود ذى ادراك » فلماذا توجد
فيه هذه الروح المدهشة ؟

ان الأرض تتم دورة واحدة حول محورها ، في كل أربع وعشرين
ساعة . ومعنى ذلك أنها تسير حول محورها بسرعة ألف ميل في
الساعة ، فاذا فرضنا أن هذه السرعة انخفضت الى مائتى ميل في
الساعة ، لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات ، بالنسبة الى ماهى
عليه الآن، ويترتب على ذلك أن تحرق الشمس — بشدة حرارتها —
كل شئ فوق الأرض ، وما بقى بعد ذلك ستقضى عليه البرودة
الشديدة في الليل .

وهذه الشمس ، التى نعدّها اليوم وسيلة حياتنا ، تبلغ حرارة سطحها اثنى عشر ألف درجة فهرنهايت ، والمسافة بينها وبين الأرض تبلغ ما يقرب من ٩٣.٠٠٠.٠٠٠ ميلاً . وهذا البون الهائل دائم ، لا يتغير أبداً بزيادة أو نقص ، وفى ذلك عبرة عظيمة لنا لأنه لو نقص واقتربت الشمس من الأرض بمقدار النصف ، مثلاً ، من الفصل الحالى ، فسوف يحترق الورق على الفور من حرارتها ، ولو بعد هذا الفاصل ، فصار ضعف ما هو عليه الآن فان البرودة الشديدة التى تنجم عن هذا البعد ، سوف تقضى على الحياة فى الأرض ، ولو أنه حل محل الشمس سيار آخر غير عادى ، يحمل حرارة تزيد على حرارة الشمس عشرة آلاف مرة ، فسوف يجعل من الأرض تنوراً رهيباً .

ثم أن هذه الأرض دائرة فى الفضاء ، وهى تؤدى عملها بزاوية ٥٣° درجة الأمر الذى تنشأ عنه المواسم ، ويترتب عليه صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة والسكنى ، فلو لم تكن الأرض على هذه الزاوية لغمر الظلام القطبين طول السنة ، ولسار بخار البحار شمالاً وجنوباً ، ولما بقى على الأرض غير جبال الثلج ، وفيافى الصحراوات ، وهكذا تنجم مؤثرات كثيرة تجعل الحياة على ظهر الأرض مستحيلة .

فلو كان قياس العلماء صحيحاً ، وهو : أن المادة قد نظمت ذاتها على هذه الهيئة المناسبة المتوازنة ، فما أعجب هذا القياس ، وما أكثر آثاره للدهشة !! . يقولون : أن الأرض انشقت من الشمس ، ومعنى هذا : أن درجة حرارتها كانت فى مبدأ أمرها ، نفس حرارة الشمس ، وهى اثنا عشر ألف درجة فهرنهايت ، ثم بدأت الأرض تبرد ، اذ لا يمكن اتصال الأوكسجين بالهيدروجين إلا بعد أن تنخفض الحرارة الى أربعة آلاف فهرنهايت - وفى هذه المرحلة وجد الماء ، وهكذا استمرت عمليات القلب على سطح الأرض ملايين السنين ، حتى جاءت الأرض فى صورتها الحالية ، منذ أكثر

من بليون سنة مضت ، وذهبت الغازات من فضاء الأرض الى فضاء الكون ، وتحولت بقايا الغازات بعد ذلك الى المركب المائى ، او انجذبت الى الأشياء الأرضية ، أو بقيت فى صورة الهواء ، وأكثرها فى صورة الأوكسجين أو النتروجين . وهذا الهواء ، فى كثافته ، يعد جزءا واحداً من ٢٠٠٠٠٠ من أجزاء الأرض . ولم تنجذب كل الغازات الى الأرض ، كما أنها كلها لم تتحول الى (هواء) ولو أنه حدث ، لاستحالت حياة الانسان ، فلو أننا فرضنا المستحيل ، ووجدت الحياة فى ظروف كهذه - تتحمل فيها البوصة المربعة آلاف الأرتال من الضغط الجوى - لكان من المستحيل أن توجد الحياة فى صورة الانسان الحالية .

ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكا ، بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالى ، لما وجد الأوكسجين (١) ، وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية .

وكذلك لو كانت البحار أعماق بضعة أقدام ، أكثر من القاع الحالى ، لانجذب (ثانى أكسيد الكربون) ، والأوكسجين (٢) ، ولاستحال وجود النباتات على الأرض ، فضلا عن الحياة .

ولو كان الغلاف الهوائى للأرض اللطف مما هو عليه الآن ، لاخرقت النيازك كل يوم غلاف الأرض الخارجى ، ولرايناها مضيئة فى الليل ، ولسقطت على كل بقعة من الأرض واحرقتها ، فهذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلا فى الثانية ، ونتيجة لهذه السرعة العظيمة ، فانها ستحرق كل شئ يمكن احتراقه على الأرض حتى تصبح الأرض غربالا فى وقت ليس ببعيد . .

فلولا أن غلاف الأرض الهوائى يقينا من هذه الشهب لاحترقنا . فإن سرعتها أكثر من سرعة طلقة البندقية تسعين مرة كما أن حرارتها الشديدة كافية لاهلاك كل شئ ، بما فيه الانسان . فنحن

(١) اذ أن القشرة الأرضية ستمتص حينئذ الأوكسجين .

(٢) حتى يمتصهما الماء .

اذن في حماية هذا الغلاف الكثيف الموزون ، الذي لا تخترقه « الاشعة الشمسية ذات الالهمية الكيماوية » Actinic Rays الا بالقدر الذي يكفي لحياة النبات ، وايجاد الفيتامينات ، والقضاء على الجراثيم الضارة ، وما الى ذلك . .

ان هذا التوازن للكميات ، المحتاج اليها ، عجيب جدا ، فالغلاف الذي فوق الأرض مكون من ستة غازات ، منها ٧٨ في المائة من النتروجين ، و ٢١ في المائة من الاوكسين ، والغازات الأخرى توجد بنسب قليلة ، وهذا الغلاف يضغط الأرض بنسبة ١٥ رطلا في البوصة المربعة ، ونسبة الاوكسين في هذا الضغط ٣ أرطال في البوصة المربعة ، والمقادير الأخرى للاكسوجين الموجود اليوم قد انجذبت الى الأرض ، وهي تمثل ٨ ر. من الماء الموجود على سطح الأرض ، والأوكسجين هو الوسيلة الوحيدة لتنفس سائر حيوانات الأرض ، ولا طريق الى ذلك من غير الفضاء .

قانون الضغط والتوازن :

وهنا يظهر سؤال هام ، وهو : كيف تجمعت هذه الغازات الشديدة الحركة ، مع احتفاظها بمقاديرها المتناسبة ، التي لا بد منها للحياة ، في الفضاء .

والجواب : أنه لو كانت نسبة الأوكسجين ٥٠ ٪ ، أو أكثر ، بدلا من ٢١ ٪ ، لزادت قابلية الاحتراق ، بما يساوى ارتفاع هذه النسبة . . . فاذا احترقت شجرة واحدة في غابة ، حينما تكون نسبة الأوكسجين ٢١ ٪ ، فان الانفجار الخاطف ، الناجم عن ارتفاع هذه النسبة الى ٥٠ ٪ يجعل احتراق الغابة كلها أمرا حتميا ، في لحظات !

ولو أن هذه النسبة انخفضت ، فأصبحت ١٠ ٪ ، لكان من الممكن ، على مدى القرون ، أن تعتاد الحيوانات الحياة مع انخفاض

نسبة الأوكسجين الى هذا الحد ، ولكنه يكون من المستحيل أن
تزدهر الحضارة الانسانية ، كما هي عليه في الظروف الحالية (١) .

ولو أن الأوكسجين الموجود على سطح الأرض انجذب مع
الأوكسجين ، الذي انجذب قبل ذلك في الأرض ، لكان من المستحيل
(الوجود الحيوانى الحسى) .

ان الأوكسجين والهيدروجين وثنائى اوكسيد الكربون ، وغازات
الكربون الأخرى ، على اختلاف أشكالها ، تتركب معا فتصبح عناصر
عظيمة الأهمية للحياة الحيوانية ، وللانس التى تقوم عليها الحياة

١

الانسانية ، وبناء عليه لا يوجد احتمال _____ أن تجتمع
١٠٠٠٠٠٠٠٠

هذه الغازات في تناسبها المطلوب وبجميع خصائصها اللازمة للحياة،
على كوكب معين ، بطريق الصدفة .

ولذلك يقول أحد كبار علماء الطبيعة :

« Science has no explanation to offer for the facts, and to say
it is accidental' is to defy mathematics. »

« أن العلم لا يملك أى تفسير للحقائق ، والقول بأنها حدثت
« اتفاقا » انما يعتبر تحديا وتصادما مع الرياضيات » .

ان هناك وقائع كثيرة جدا ، لا طريق لنا الى فهمها أو تفسيرها،
الا اذا سلمنا بأن للعقل يدا عليا في أحداثها . .

(١) اذ أن أعضاء الجسم الانسانى على فرض وجودها في هذه الحالة لن
تتمكن في تلك الظروف من مواصلة عملها كعادتها اليوم في الظروف المتاحة فعلا ،
وذلك لاستحالة وجود الانسجة والخلايا البدنية والعقلية في ظل تلك الظروف ، لانه
كلما قل الاكسجين قل النشاط الجسمانى والعقلى .

فمن الخصائص المهمة التي توجد في الماء أن كثافة الثلج Density تقل بنسبة كبيرة عن كثافة الماء ، فالماء اذن مادة معلومة ، تقل كثافتها بعد التجمد . ولهذا الأمر قيمة عظيمة بالنسبة الى الحياة ، اذ يترتب على هذه الخاصية أن الثلج يطفو على سطح الماء ، ولا ينزل الى قاع البحار والأنهار ، ولولا ذلك ، لكان الماء كله قد تجمد في البحار ، والأنهار ، والخزانات المليئة ، ان الثلج يقوم بدور الحاجب للماء الذي تحته ، كما تبقى حرارته دون درجة التجمد ، فتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة . فاذا مجاء موسم الربيع ذاب الثلج ، ولولا خاصية الثلج هذه لعانى سكان الأقطاب الباردة الكثير من المتاعب والمصائب ، الناجمة عن عدم ذوبان الثلج ، لقد أصاب مرض الأندوثيا Endothia في أوائل القرن العشرين أشجار (شاه بلوط) الثمينه في غابات أمريكا ، وانتشر بسرعة فائقة ، فقال بعض من رأى تلك المواضع الخربة الكبيرة في « مظلة الغابات » : انها لن تمتلىء أبدا !!

ولم يكن أى نوع من الأشجار - حتى ذلك الحين - قد انتزع هذا الامتياز الذى كان خاصا بهذا النوع من أشجار البلوط ، ذات الأخشاب الثمينه الغالية ، حتى كان يلقب : « ملك أشجار الغابات الأمريكية » ، قبل وصول وباء الأندوثيا من آسيا سنة ١٩٠٠ م تقريبا .

اما الآن ، فلا توجد هناك أية آثار لشاه بلوط ، ذلك الشجر العظيم ، في الغابات الأمريكية . ولكن سرعان ما امتلات تلك المواضع في غابات أمريكا بنوع آخر من الأشجار ، يسمى : « التيوليب » ، كانت لا تحتل من الغابات الا حيزا صغيرا ، ولم تكن مزدهرة .

لقد انتهزت اشجار « التيوليب » هذه الفرصة ، فازدهرت وحلت محل شاه بلوط . واليوم لا يتذكر أى تاجر أخشاب أمريكى وجود أشجار شاه بلوط ، لقد حلت محلها أشجار « التيوليب » ،

التي تتضخم كل سنة بنسبة بوصة واحدة في الجذع ، وترتفع ست بوصات في الفروع والأغصان ، كما تعطى خشبا ممتازا يستعمل في جميع الصناعات الدقيقة .



ومن الأحداث العلمية الهامة التي وقعت في هذا القرن ما حدث في استراليا . . لقد زرعوا نوعا خاصا من «الصبار» في مزارعها لكي يحميها ، ولم يكن في استراليا أى نوع من الدودة يعادى ويأكل هذا النبات ذا الشوك ، فأخذ ينتشر انتشارا رهيبا ومروعا ، حتى استولى على منطقة توازى مساحة جزر بريطانيا كلها ، لقد هاجم الصبار القرى والمدن ، وخرب المزارع والحقول ، حتى استحالت الزراعة ، ولم يتمكنوا من استئصاله بأية طريقة لقد أصبح جيشا جبارا ، يزحف لكي يسيطر على استراليا كلها ، وهى لا تجد ما تقاوم به ، واستمرت هذه الحال ، حتى خرج علماء الحشرات ، يبحثون عن دودة تأكل الصبار . فاكتشفوا دودة لا تعيش الا عليه ، ولا غذاء لها سواه ، وقد كان نسلها يزيد بسرعة ، ولا عدو لها في حشرات استراليا ، وسرعان ما تغلبت هذه الدودة الصغيرة على جيش الصبار العظيم ، وانتهت مصائب استراليا !! .

أيمكن أن يكون هذا القانون - « قانون الضبط والتوازن Checks and Balances » قد حدث دون تخطيط واع ، هكذا صدفة واتفاقا ؟!

السنن الرياضية المحكمة :

وفي الكون سنن رياضية محكمة ، بصورة تدعو الى الدهشة والاكبار ، وحتى المادة الجامدة ، التي لا تملك شعورا ، لا يمكن أن تجرى على غير نظام ، وانما هى تتبع قوانين صارمة معلومة ، ولفظ الماء أينما كان الماء على هذه الأرض الواسعة ، لن يكون معناه سوى

مادة سائلة تحتوى على ١١٪ من الهيدروجين ، و ٨٨٪ من الأوكسجين . ولذلك يستطيع أى عالم يجرى عملية تسخين الماء فى معمله أن يقول بكل قطعية : ان درجة حرارة غليان الماء هى (١٠٠) سنتى جراد ، دون أن يرى مقياس الحرارة ، ما دام ضغط الهواء ٧٦٠ م.م. فاذا كان ضغط الهواء أقل ، فسوف نحتاج طاقة أقل لتوفير الحرارة التى تدفع جزئيات الماء . وتعطيها صورة البخار وحينئذ سوف تنخفض درجة غليان الماء ، وعلى العكس ، لو كان ضغط الهواء أكثر من ٧٦٠ م.م. فستزداد درجة الغليان ، بمقدار زيادة ضغط الهواء . لقد جربوا هذه العملية مرارا ، الى أن تمكنوا من البت فى أمر الغليان ، حتى قبل تسخين الماء ، والتنبؤ بدرجة غليانه دون استعمال المقياس ، ولو لم يكن هذا النظام والضبط فى المادة وعمليات الطاقة ، لما وجد الانسان أسسا يقيم عليها كشوفه ومنجزاته ، العلمية . ولولا هذا النظام والضبط لحكمت عالمنا الاتفاقات والصدف المحضة ! ولكان من المستحيل على علماء الطبيعة أن يقولوا : أنه بمباشرة عمل ما فى حالة معينة تحصل نتيجة كذا .

نظام العناصر والدورية :

ان أول شئ يشاهده الطالب فى معمل الكيمياء هو نظام العناصر ودوريتها ، وقد وضع العالم الروسى « ماندليف » خريطة العناصر الكيماوية ، بمقاديرها الجوهرية ، وسميت بـ « الخريطة الدورية » Periodic Chart وفى ذلك الوقت لم تكن كل العناصر قد تم كشفها ، حتى تملأ كل الخانات الموجودة فى الخريطة ، فتركها « ماندليف » خالية ، الى أن ملأها العلماء فيما بعد ، كما تخيلها العالم الروسى من قبل كشفها بسنين طويلة ، وهذه الخريطة تحوى جميع العناصر الجوهرية بأرقام وقوائم مختلفة . ومعنى الأرقام الجوهرية هو العدد الخاص الذى يوجد فى مركز الذرة ، من الشحنات الكهربائية الايجابية « البروتون » ، وهذا العدد هو الفارق بين ذرة عنصر وذرة عنصر آخر ، فالهيدروجين ، الذى

نعتبره أبسط عنصر يوجد في مركز ذرته شحنة واحدة من الكهربائية
الاجابية ، وكذلك توجد في العنصر المسمى « هليم » شحنتان ،
وفي « ليثيم » ثلاث شحنيات . وما كان لنا أن نتمكن من وضع
خرائط العناصر المختلفة الا بناء على قوانينها الرياضية العجيبة .
وهل هناك مثال للضبط أفضل من أننا عثرنا على العنصر رقم
(١٠١) بمجرد معرفة شحنته الكهربائية الخمسة عشر ؟ !!

ليس من الممكن أن يطلق العلماء على هذا النظام الرائع في
الطبيعة عبارة : « الصدفة الدورية » Periodic Chance وإنما هو
« القانون الدوري » Periodic Law وليس من الممكن أن نتنكر لما
تطلبه هذه الضوابط والنظم من وجود اله ومهندس . . فان عدم
ايمان العلم الحديث بالاله انكار في الواقع لكشوفه كنتيجة حتمية !



« سوف يحدث كسوف للشمس يوم ١١ أغسطس سنة ١٩٩٩
ويمكن رؤيته كاملا في كورنفال » (١) ، ليس هذا مجرد تنبوء قياسي
ولكن علماء الفلك يؤمنون بأنه لابد من هذا الكسوف ، بناء على نظام
دوران الشمس الموجود حاليا .

ولكم نتحير عندما نرفع أعيننا الى السماء ، ونشاهد الكواكب
والنجوم التي لا حصر لها ، ان هذه الكرات السماوية ، التي
لا تزال معلقة في الفضاء ، منذ قرون لا نعرف عدتها ، تدور في
الفضاء الفسيح السحيق على نظام معين معلوم بحيث يمكننا معرفة
جميع الوقائع المستقبلية قبل وقوعها بقرون . انه نظام لا مثيل له .
من الذرة الى قطرة الماء الى الكواكب السحيقة في أجواز الفضاء . .
نظام تستنبط على أساسه قوانين علمية !

(١) بلدة في جنوب غربى انجلترا (المراجع) .

ان نظرية « نيوتن » تفسر دوران الكرات الفلكية ، وبناء على هذه النظرية استطاع العالمان : آدمز ولا فريير أن يتنبأ بوجود كوكب ، لم يكن معروفا وجوده في وقتها ، وبناء على قولهما وجه مرصد برلين في ليلة من ليالى سبتمبر سنة ١٨٤٦ تلسكوبا الى الجهة التى اشار اليها ، وسرعان ما وجد رجال المرصد الكوكب الذى نسميه اليوم (السيار نبتون) ، فى اسرة الشمس !!

خصائص حكيمة :

ان أبعد الأمور عن القياس ، وأعظمها استحالة ، هو أن تؤمن بأن الكون وقطعيته .. الرياضية ، جاءا نتيجة « صدفة » !
فمن الخصائص الحكيمة فى هذا الكون كونه صالحا لتصرفات الانسان عند الضرورة ، ولناخذ النتروجين على سبيل المثال .. فان ٧٨٪ من النتروجين توجد فى كل هبة من الرياح ، وكذلك توجد فى أجزاء كيماوية أخرى ، ونسميها حينئذ « النتروجين المركب » ، وهذه كلها يستغلها النبات لكى يهيىء لنا الجزء النتروجينى فى غذائنا ، فلو لا هذه العملية ، لهلك الحيوان والانسان ، وكل ما يعتمد على النبات فى أكله جوعا وفاقة ، فان أى نبات غذائى لا ينمو بدون هذا التحليل الكيماوى .

ان هناك طريقتين لا ثلاثة لهما ، لتحليل النتروجين فى الأرض ، والطريقة الأولى : هى « العملية الجرثومية » ، وتقوم بأدائها الجراثيم التى تعيش فى جذور الشجرة تحت الأرض ، وهذه الجراثيم تأخذ النتروجين من الهواء ، وتصنع منه « النتروجين المركب » ، ويبقى هذا النتروجين تحت الأرض ، بعد الحصاد ، مع الجذور ، وأما العملية الثانية التى تصنع النتروجين المركب فهى (الرعد) .. فكلما احتك الرعد فى الفضاء ، مزج شيئا من الأوكسجين فى النتروجين ، ويصل هذا النتروجين المركب الى الحقول عن طريق الأمطار التى تلى العملية ، والكمية التى تحصلها

الحقول من هذا المركب بسهولة ، كل سنة ، هي ما يقرب من خمسة أرتال لكل « أكر » (١) من الأرض وهي تساوى ثلاثمائة رطل من نترات الصوديوم (٢) .

ولكن هذه الكمية من النتروجين المركب لا تكفى ، لأن الحقول التى تزرع لمدة طويلة ينفد ما فيها منه . ولذلك نرى الزراع يحولون المواسم الزراعية من حقل لآخر ، بعد وقت معلوم . واعجب ما حدث فى هذا القرن - عندما ضاقت الأرض بما رحبت على سكانها ، وقل النتروجين لكثرة الزراعة ، وخافت الانسانية من القحط والفاقة - اكتشفنا فى هذه المرحلة الخطيرة « طريقة ثالثة » لاستمداد النتروجين من الهواء ، وكانت الجهود الأولى ، التى بذلت فى هذا الصدد ، انهم جربوا عملية خلق رعد صناعى فى الفضاء باستعمال آلات قوتها ٣٠٠٠٠٠ حصان ، غير أنهم لم ينجحوا الا فى صناعة كمية ضئيلة من النتروجين المركب . وتقدم الانسان بهذه التجارب ، حتى كشف الطريق الثالثة ، وهى استخدام الهواء فى صناعة النتروجين المركب ، فى صورة (السماد) . . وهكذا استطاع أن يهىء لغذائه جزءه الضرورى ، الذى لولاه لهلك جوعا . وهذا حدث عجيب فى تاريخ الأرض ، فان الانسان كشف للمرة الأولى فى تاريخه حلا لازمة الغذاء ، وابتعدت أشباح الكارثة عن سكان الأرض ، حين كان من المستحيل أن يتجنبوها !!

ان هناك أمورا كثيرة تؤكد وجود الحكمة والروح فى الكون ، وكل ما لدينا من علم يؤكد لنا أن ما قد كشف أقل بكثير مما لم نستطع حتى الآن الكشف عنه ! وبرغم ذلك فان ما كشفه الانسان كثيرا جدا ، حتى اننا لو أردنا فهرسة عناوين هذه العلوم ، فسنحتاج

(١) مقياس انجليزى لسطح الارض ، وهو أقل من (فدان) المراجع .

Lyon, Buckman and Brady, The Nature and Properties of soils.
The Mysterious Universe, pp. 3, 4. (٢)

الى سفر ضخيم جدا ، بالنسبة الى هذا الكتاب الذى بين يدي
القارىء ، وسوف يبقى بعد ذلك أيضا الكثير منها دون فهرسة ..

ان كل ما يمكن لللسان الانسانى أن يلفظه عن آلاء الله وآياته
سوف يكون غاية في النقص ، فمهما فصلناها وأسهبنا في تفسيرها
فسنخرج آخر الأمر مقتنعين بأننا لم نحط بها ، وانما تناولنا منها
« بعض الشيء » .

والحق أنه لو قدر أن تنكشف للانسان جميع العلوم الكونية ،
ثم يجلس سكان المعمورة ، وقد هيئت لكل فرد منهم جميع الوسائل
في أكمل صورها ، فإن هؤلاء جميعا لن يستطيعوا تدوينها أبدا ..
ليس هذا هو مصداق قوله تعالى :

**((ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده
سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله))** . . وقوله تعالى : **((قل لو كان
البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو
جئنا بمثله مددا)) (١) !**

ان كل من أتاحت له الفرصة كى يطالع صفحة هذا الكون ،
سيعترف مصدقا أنه لا مبالغة فى هذه الكلمات الالهية ، وانما هى
تعبير بسيط عن الحقائق الموجودة فعلا .

صدفة أم عمليات حكيمة ؟

ان معارضى الدين يسلمون بكل ما طرحناه فى الصفحات الماضية
من الأنظمة العجيبة ، والحكمة غير العادية ، والروح التى تسرى
فى الكون ، ولكنهم يفسرونها بطريقة أخرى ، انهم عاجزون عن أن

(١) لقمان ٢٧ ، والكهف ١٠٩ .

يجدوا فيها رمزا أو إشارة لمنظم ومدبر . . فاذا بهم يرون أن كل هذا جاء نتيجة « صدفة محضة » .

واستمع الى قول « هكسلى » :

« لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة ، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين ، فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير ! فكذلك كان الكون ، الموجود الآن ، نتيجة لعمليات عمياء ، ظلت تدور فى « المادة » لبلايين السنين (١) .

أن أى كلام من هذا القبيل « لغو مثير » ، بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان ، فان جميع علومنا تجهل — الى يوم الناس هذا — أية صدفة أنتجت واقعا عظيما ذا روح عجيبة ، فى روعة الكون ، فنحن نعرف بعض الصدف ، وما ينشأ عنها من آثار ، فعندما تهب الرياح تصل « حبوب اللقاح » من وردة حمراء الى وردة بيضاء ، فتأتى بوردة صفراء . . هذه صدفة لا تفسر قضيتنا الا تفسيرا جزئيا استثنائيا ، فان وجود الوردة فى الأرض بهذا التسلسل ، ثم ارتباطها المدهش مع نظام الكون ، لا يمكن تفسيره بهبة رياح صدفة . انها تأتى بوردة صفراء ولكنها لا تأتى بالوردة نفسها ! ان الحقيقة الجزئية الاستثنائية التى توجد فى مصطلح « قانون الصدفة » باطلة كل البطلان ، اذا ما أردنا تفسير الكون بها .

يقول البروفسيور ايدوين كونكلين :

« ان القول بأن الحياة وجدت نتيجة « حادث اتفاقى » شبيه فى مغزاه بأن نتوقع اعداد معجم ضخمة ، نتيجة انفجار صدفي يقع فى مطبعة » (٢) .

The Mysterious Universe, pp. 3-4.

(١)

The Evidence of God, p. 174.

(٢)

وقد قيل : ان تفسير الكون بوساطة (قانون الصدفة) ليس « بكلام فارغ » . بل هو كما يعتقد السير جيمس جينز ينطبق على « قوانين الصدفة الرياضية المحضة » .

(١) Purely Mathematical Laws of Chance

ويقول أحد العلماء الأمريكيين :

« ان نظرية الصدفة ليست افتراضا ، وانما هي نظرية رياضية عليا ، وهي تطلق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية وهي تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق ، وللتدقيق في امكان وقوع حادث من نوع معين ، وللوصول الى نتيجة ، هي معرفة مدى امكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة » (٢)

ولو افترضنا ان المادة وجدت بنفسها في الكون ، وافترضنا أيضا ان تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها (ولست أجد اساسا لأقيم عليه هذه الافتراضات) ففي تلك الحال أيضا لن نظفر بتفسير الكون ، فان « صدفة » أخرى تحول دون طريقنا . فلسوء حظنا : ان الرياضيات التي تعطينا نكتة « الصدفة » الثمينة ، هي نفسها التي تنفى أى امكان رياضى في وجود الكون الحالى ، بفعل قانون الصدفة .

لقد استطاع العلم الكشف عن عمر الكون وضخامة حجمه ، والعمر والحجم اللذان كشف عنهما العلم الحديث غير كافيين فى أى حال من الأحوال ، لتسويغ ايجاد هذا الكون عن قانون الصدفة الرياضى .

ويمكننا أن نفهم شيئا عن قانون الصدفة من المثال التالى :

« لو تناولت عشرة دراهم ، وكتبت عليها الأعداد ، من ١ الى

Mysterious Universe, p. 3.

(١)

The Evidence of God, p. 23.

(٢)

١٠ ، ثم رميتها في جيبك ، وخلطتها جيدا ، ثم حاولت أن تخرجها من الواحد الى العاشر بالترتيب العددي ، بحيث تلقى كل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى . فامكان أن تتناول الدرهم المكتوب عليه (٢) في المحاولة الأولى هو واحد على عشرة ، وامكان ان تتناول الدرهمين (١ ، ٢) بالترتيب واحد في المائة ، وامكان أن تخرج الدراهم (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) بالترتيب هو واحد في العشرة آلاف . . حتى أن الامكان في أن تنجح في تناول الدراهم ١ الى ١٠ بالترتيب واحد في عشرة بلايين من المحاولات ! .

لقد ضرب هذا المثال العالم الأمريكى الشهير « كريسى موريس » ثم استطرد قائلا :

« ان الهدف من اثاره مسألة بسيطة كهذه ، ليس الا أن نوضح كيف تتعقد « الوقائع » بنسبة كبيرة جدا في مقابل « الصدفة » (١)



ولنتأمل الآن في أمر هذا الكون ، فلو كان هذا بالصدفة والاتفاق ، فكم من الزمان استغرق تكوينه بناء على قانون الصدفة الرياضى ؟ .

ان الاجسام الحية تتركب من « خلايا حية » ، وهذه (الخلية) مركب صغير جدا ، ومعقد غاية التعقيد ، وهى تدرس تحت علم خاص يسمى « علم الخلايا » Cytology ومن الأجزاء التى تحتوى عليها هذه الخلايا : البروتين ، وهو مركب كيمائى من خمسة عناصر ، هى : الكربون ، والهيدروجين ، والنتروجين ، والأوكسجين ، والكبريت . . ويشمل الجزئى البروتينى الواحد أربعين الفا من ذرات هذه العناصر !!

وفي الكون أكثر من مائة عنصر كيماوى ، كلها منتشرة في أرجائه
فأية نسبة في تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون في صالح قانون
« الصدفة » ؟ أيمن أن تتركب خمسة عناصر — من هذا العدد
الكبير — لايجاد « الجزيء البروتينى » بصدفة واتفاق محض ؟ اننا
نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضى ذلك القدر الهائل
من (المادة) الذى سنحتاجه ، لنحدث فيه الحركة اللازمة على
الدوام ، كما نستطيع أن نتصور شيئاً عن المدة السحيقة التى
سوف تستغرقها هذه العملية .

لقد حاول رياضى سويسرى شهير ، هو الأستاذ (تشارلز
بوجين جواى) أن يستخرج هذه المدة عن طريق الرياضة ..
فانتهى في أبحاثه الى أن (الامكان المحض) في وقوع الحادث الاتفاقي
— الذى من شأنه أن يؤدي الى خلق كون ، اذا ما توفرت المادة —
٦٠

هو واحد على — (أى : ١٠ x ١٠ مائة وستين مرة) .
١٠

وبعبارة أخرى : نضيف مائة وستين صفراً الى جانب عشرة !! وهو
عدد هائل لا يمكن وصفه في اللغة .

ان امكان حدوث الجزيء البروتينى عن (صدفة) يتطلب مادة
يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن في سائر الكون ،
حتى يمكن تحريكها وضخها ، وأما المدة التى يمكن فيها ظهور
٢٤٣

نتيجة ناجحة لهذه العملية ، فهي أكثر من — سنة (١) ! .
٦٠

ان جزيء البروتين يتكون من « سلاسل » طويلة من الأحماض
الأمينية Amion-Acids وأخطر ما في هذه العملية هو الطريقة
التي تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض ، فانها لو اجتمعت

(١) أى : مائتان وثلاثة وأربعون صفراً امام عشر سنين . (المترجم) .

في صورة غير صحيحة لأصبحت سما قاتلا ، بدل أن تصبح موجدة للحياة .

لقد توصل البروفيسور ج.ب. ليتز G.B. Leathes الى أنه يمكن

٤٨

تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من — صورة وطريقة . وهو

١٠

يقول : أنه من المستحيل تماما أن تجتمع هذه السلاسل — بمحض الصدفة — في صورة مخصوصة من هذه الصور التي لا حصر لها ، حتى يوجد الجزئ البروتيني الذي يحتوى أربعين الفا من أجزاء العناصر الخمسة التي سبق ذكرها .

ولابد أن يكون واضحا للقارىء أن القول بالامكان في قانون الصدفة الرياضي لا يعنى أنه لابد من وقوع الحادث الذي ننتظره ، بعد تمام العمليات السابق ذكرها ، في تلك المدة السحيقة ، وانما معناه أن حدوثه في أثناء تلك المدة محتمل ، لا بالضرورة ، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة ألا يحدث شيء ما بعد تسلسل العملية الى الأبد !

هذا الجزئ البروتيني ذو وجود « كيماوي » ، لا يتمتع بالحياة الا عندما يصبح جزءا من الخلية ، فهنا تبدأ الحياة ، وهذا الواقع يطرح أهم سؤال في بحثنا : من أين تأتي الحرارة ، عندما يندمج الجزئ بالخلية ؟ . . ولا جواب عن هذا السؤال في أسفار المعارضين الملحدون .

ان من الواضح الجلي أن التفسير الذي يزعمه هؤلاء المعارضون ، متسترين وراء قانون الصدفة الرياضي ، لا ينطبق على الخلية نفسها ، وانما على جزء صغير منها ، هو الجزئ البروتيني وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش : وفي جسد كل فرد منا ، ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا !! .

لقد أعد العالم الفرنسى « الكونت دى نواى » Conte de Nouy بحثا وافيا حول هذا الموضوع ، وخلاصة البحث : أن مقادير (الوقت ، وكمية المادة ، والفضاء اللانهائى) التى تتطلبها حدوث مثل هذا الامكان هى أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن ، وأكثر من الوقت الذى استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض ، وهو يرى : أن حجم هذه المقادير الذى سنحتاج اليه فى عمليتنا لا يمكن تخيله أو تخطيطه فى حدود العقل الذى يتمتع به الانسان المعاصر ، فأجل وقوع حادث — على وجه الصدفة — من النوع الذى ندعيه

٨٢

سوف نحتاج كونا يسير الضوء فى دائرته — سنة ضوئية (أى ١٠

٨٢ صفرا الى جانب عشرة سنين ضوئية !!) وهذا الحجم أكبر بكثير جدا من حجم الضوء الموجود فعلا فى كوننا الحالى فان ضوء أبعد مجموعة للنجوم فى الكون يصل إلينا فى بضعة (ملايين) من السنين الضوئية فقط . . وبناء على هذا ، فان فكرة اينشتين عن اتساع هذا الكون لا تكفى ابدا لهذه العملية المفترضة .

أما فيما يتعلق بهذه العملية المفترضة نفسها ، فاننا سوف نحرك المادة المفترضة فى الكون المفترض ، بسرعة خمسمائة

٢٤٣

(تريليون) حركة ، فى الثانية الواحدة ، لمدة — بليون سنة ١٠

(٢٤٣ صفرا أمام عشرة بلايين) ، حتى يتسنى لنا حدوث امكان فى ايجاد جزىء بروتينى يمنح الحياة .

ويقول « دى نواى » فى هذا الصدد :

« لا بد الا ننسى أن الأرض لم توجد الا منذ بليونين من السنين

وأن الحياة - في أى صورة من الصور - لم توجد إلا قبل بليون سنة ، عندما بردت الأرض » (١) .

هذا ، وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه ، وأثبتت الدراسة في هذا الموضوع أن كوننا موجود منذ ر..... ر..... ر..... سنة .. وهى مدة قصيرة جدا ، ولا تكفى على أى حال من الأحوال لخلق امكان ، يوجد فيه الجزىء البروتينى ، بناء على قانون الصدفة الرياضى .

وأما ما يتعلق بأرضنا التى ظهرت عليها الحياة ، فقد عرفنا عمرها بصورة قاطعة ، فهذه الأرض كما يعتقد العلماء ، جزء من الشمس ، انفصل عنها نتيجة لصدام عنيف وقع بين الشمس وسيار عملاق آخر ، ومنذ ذلك الزمان أخذ هذا الجزء يدور فى الفضاء ، شعلة من نار رهيبة ، ولم يكن من الممكن ظهور الحياة على ظهره حينئذ لشدة الحرارة ، وبعد مرور زمن طويل أخذت الأرض تبرد ، ثم تجمدت وتماسكت ، حتى ظهر امكان بدء الحياة على سطحها .

ونستطيع معرفة عمر الكون بثتى الطرق ، وأحسن طريقة عرفناها لهذه الدراسة ، هى التى توصلنا اليها بعد كشف «العناصر المشعة» Radio-Active Elements ، فان الذرات الكهربائية تخرج من هذه العناصر بنسبة معلومة بصفة دائمة ، وهذا «التحلل» Disintegration يقلل الذرات الكهربائية فى هذه العناصر ، لتصبح تلقائيا عناصر غير مشعة عبر الزمان ، واليورانيوم أحد هذه العناصر المشعة ، وهو يتحول الى معدن (الرصاص) بنسبة معينة نتيجة لتحلل الذرات الكهربائية ، وهذه النسبة فى الانتشار لا تتغير تحت أى ظرف ، من أدنى أو أقصى درجات الحرارة أو الضغط ، ولهذا سنكون على صواب لو اعتبرنا أن سرعة تحول اليورانيوم الى «الرصاص» محددة وثابتة لا تتغير .

ان قطع اليورانيوم توجد في كثير من الهضبات والجبال ، ومما لا شك فيه أن هذا اليورانيوم هو جزء من ذلك الجبل ، منذ أن تجمد في شكله الأخير ، عند تجمد الأرض . . وعلى جانب هذا اليورانيوم نجد قطعاً من الرصاص ، ولا نستطيع أن ندعى أن كل هذا الرصاص نتج عن تحلل اليورانيوم . والسبب في هذا ان الرصاص الذي يتكون من تحلل اليورانيوم يكون أقل وزناً من الرصاص العادي ، وبناء على هذه القاعدة الثابتة يمكننا أن نجزم بما اذا كانت أية قطعة من الرصاص من اليورانيوم ، أو أنها قطعة رصاص عادي ، ونحن هنا نستطيع أن نحتسب المدة التي استغرقتها عملية تحلل اليورانيوم بدقة ، فهو يوجد في الجبل من أول يوم تجمد فيه ، ونستطيع بذلك معرفة مدة تجمد الجبل نفسه ! .

لقد أثبتت التجارب أنه قد مر ألف وأربعمائة مليون سنة على تجمد تلك الجبال ، التي تعتبر - عملياً - أقدم جبال الأرض ، وقد يظن البعض منا أن عمر الأرض يزيد ضعفاً أو ضعفين عن عمر هذه الجبال ، ولكن التجارب العلمية تنفي بشدة هذه الظنون الشاذة ، ويذهب البروفيسور (سوليفان) الى أن « المعدل المعقول » لعمر الأرض هو ألفا مليون سنة (١) ! .

ولنتأمل الآن ، بعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح تحتاج الى بلايين البلايين من السنين ، حتى يتسنى مجرد امكان لحدوث (جزيء بروتيني) فيها بالصدفة ! فكيف اذن جاءت في هذه المدة القصيرة في شكل مليون من أنواع الحيوانات ، وأكثر من ٢٠٠٠ ألف نوع من النبات ؟ وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض ، في كل مكان ؟ ثم كيف جاء من خلال هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذي نسميه « الانسان » ؟ ولا أدري

J.W. U. Sullivan, Limitations of Science, p. 78.

(١)

كيف نجرؤ على مثل هذه الاعتقادات ، في حين أننا نعرف جيدا أن نظرية النشوء والارتقاء تقوم على أساس «تغيرات صدفية محضة»؟! وأما هذه التغيرات ، فقد حسبها الرياضي « باتو » Patau وانتهى الى أن اكتمال « تغير جديد » في جنس ما ، قد يستغرق مليوناً من الأجيال (١) :

فلنفكر في أمر (الكلب) الذي يزعمون أنه جد (الحصان) الأعلى ، كم من المدة ، على قول الرياضي باتو سوف يستغرقها الكلب حتى يصبح حصانا ؟! .

وما أصح ما قاله عالم الأعضاء الأمريكي مارلين ب . كريدر :
« ان الامكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق - عن طريق الصدفة - في نسبها الصحيحة ، هو ما يقرب من « لا شيء » (٢)

لقد أطلت في هذا البحث حتى نتبين مدى سخافة فكرة الخلق بالصدفة ، وبطلانه ، ولست - في الحق - أشك في أنه يستحيل وجود الجزيء البروتيني والذرة عن الصدفة ، كما لا يمكن أن يكون عقلك هذا - الذي يتأمل في أسرار الكون وخفائيه - من ثمار الخلق الصدفي ، مهما بالغنا في افتراضاتنا عن المدة الطويلة التي استغرقتها عملية المادة في الكون . ونظرية الخلق هذه ليست مستحيلة في ضوء قانون الصدفة الرياضي فحسب، وإنما هي لا تتمتع بأي وزن منطقي في نفس الوقت .

وأي كلام من هذا القبيل سخيف وملء بالصلافة . . ومثاله كمن يزعم أن سقوط كوب مملوء بالماء أو بالقهوة سوف يرسم خريطة العالم على الأرض ! لا مانع من أن أسأل هذا الرجل : من أين جاء

The Evidence of God, p. 117.

(١)

Ibid., p. 67.

(٢)

بهذا الفرش الأرضى ، والجاذبية ، والماء ، والكوب ، حتى يقع هذا الاتفاق الغريب ؟ ! .

ولقد ولغ عالم البيولوجيا « هيكل » Haekel فى زعمه حين قال :

« أيتونى بالهواء ، وبالماء وبالأجزاء الكيماوية ، وبالوقت ، وسأخلق الانسان » . ولكن « هيكل » نسى أو تجاهل فى هذه المقالة انه بتقريره احتياجه الى المادة والأحوال المادية ، ينفى زعمه من تلقاء نفسه !

يقول الأستاذ « كريسى موريسن » (١) فى هذا الصدد :

« ان هيكل يتجاهل فى دعواه : الجينات الوراثية ، ومسألة الحياة نفسها ، فان أول شىء سيحتاج اليه عند خلق الانسان ، هو الذرات التى لا سبيل الى مشاهدتها ، ثم سيخلق (الجينات) ، أو حملة الاستعدادات الوراثية ، بعد ترتيب هذه الذرات ، حتى يعطيها ثوب الحياة . . ولكن امكان الخلق فى هذه المحاولة بعد كل هذا ، لا يعدو واحدا على عدة بلايين ، ولو افترضنا ان « هيكل » نجح فى محاولته ، فانه لن يسميها « صدفة » ، بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته » (٢) .

ولنختتم هذا البحث بقول عالم الطبيعة الأمريكى « جورج ايرل ديفيس » :

« لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه ، فان معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق ، وفى هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو

(١) رئيس أكاديمية العلوم الأمريكية بنيويورك (سابقا) - المترجم .

(٢) Man Does not Stand Alone, p. 87.

الاله . . وهكذا ننتهى الى التسليم بوجود (الاله) ، ولكن الهنا هذا
سوف يكون عجيبا : الها غيبيا وماديا فى آن واحد !! اننى افضل
أن أؤمن بذلك الاله الذى خلق العالم المادى ، وهو ليس بجزء من
هذا الكون ، بل هو حاكمه ومديره ومدبره بدلا من أن أتبنى مثل
هذه الخزعبلات « (١) .

الباب الخامس

دليل الآخرة

من أهم الحقائق التي يدعوننا الدين الى الايمان بها : فكرة الآخرة . والمراد بها : ان هناك عالما آخر غير عالمنا الحاضر ، وسوف نعيش في ذلك العالم خالدين ، وان عالمنا هذا هو مكان للاختيار والابتلاء ، وجد فيه الانسان لاجل معلوم ، وان الله سوف ينهى هذا العالم حين يحين أجله ، لبناء العالم الآخر ، على طراز جديد، وان الناس سوف يبعثون مرة أخرى ، وسوف تعرض أعمالهم - خيرا أو شرا - على محكمة الله ، الذي يجزى كل انسان بما عمل في الحياة الدنيا .

أهذه النظرية صحيحة ؟ أم هي باطلة ؟ وهل هناك امكان لهذه الآخرة ؟ . . سوف نعرض هنا بعض جوانب القضية .

أولا - امكان الآخرة :

ليكن الجانب الأول من هذا العرض ، هو البحث عن « امكان » وقوع الآخرة . فهل هنالك وقائع واشارات تصدق هذه الدعوى ؟

ان فكرة (الآخرة) تقتضى - اول ما تقتضى - الا يكون الانسان والكون ، في شكلهما الحالى ابديين، وقد علمنا في الصفحات الماضية - بما لا يدع مجالا للشك - ان ابدية الكون والانسان مستحيلة ، وأيقنا ، يقينا لا يتزعزع ، بأن الانسان يموت ، وأن الكون سينتهى طبقا لقانون « الطاقة المتاحة » . ولست ادري اذا ما كان هناك طريق للنجاة من هذه النهاية المروعة .

(١) مسألة الموت :

ان الذين لا يؤمنون بالعالم الثانى - الآخرة - يحاولون بدافع الفريزة أن يجعلوا من هذا الكون عالما أبديا لأفراحهم ، ولذلك بحثوا كثيرا عن أسباب « الموت » ، حتى يتمكنوا من الحيلولة دون وقوع هذه الاسباب ، من أجل تخليد الحياة ، ولكنهم أخفقوا أخفاقا ذريعا وكلما بحثوا فى هذا الموضوع ، رجع اليهم بحثهم برسالة جديدة عن حتمية الموت ، وانه لا مناص منه .

« لماذا الموت ؟ » . . هناك ما يقرب من مائتى اجابة عن هذا السؤال الخطير ، الذى كثيرا ما يطرح فى المجالس العلمية ، منها :

(فقدان الجسم لفاعليته) ، (انتهاء عملية الاجزاء التركيبية) ، (تجمد الأنسجة العصبية) ، (حلول المواد الزلائية القليلة الحركة ، محل الكثيرة الحركة منها) ، (ضعف الأنسجة الرابطة) ، (انتشار سموم « بكتريا » الأمعاء فى الجسم) . . وما الى ذلك من الاجابات التى تتردد كثيرا حول ظاهرة الموت .

ان القول بفقدان الجسم لفاعليته جذاب للعقل . . فان الآلات الحديدية والأحذية والأقمشة كلها تفقد فاعليتها بعد أجل محدود ، فأجسامنا أيضا تبلى وتفقد فاعليتها كالجلود التى نلبسها فى موسم الشتاء . ولكن العلم الحديث لا يؤيدنا ، لأن المشاهدة العلمية للجسم الانسانى تؤكد : انه ليس كالجلود الحيوانية ، والآلات الحديدية ، وليس كالجبال . . وان اقرب شئ يمكن تشبيهه به هو ذلك (النهر) الذى لا يزال يجرى منذ آلاف السنين على ظهر الأرض فمن ذا الذى يستطيع القول بأن النهر الجارى يبلى ويهين ويعجز ؟ ! بناء على هذا الأساس يعتقد الدكتور « لنس بالنج » (١) أن الانسان أبدي ، الى حد كبير ، نظريا ، فان خلايا جسمه آلات تقوم باصلاح ما فيه من

(١) وهو حائز على جائزة نوبل للعلوم .

الأمراض ومعالجتها تلقائيا ! وبرغم ذلك فان الانسان يعجز ويموت، ولا تزال علل هذه الظاهرة أسراراً تحير العلماء .

ان جسمنا هذا في تجديد دائم ، وأن المواد الزلالية ، التي توجد في خلايا دمائنا، تتلف كذلك ثم تتجدد، ومثلها جميع خلايا الجسم تموت وتحل مكانها خلايا جديدة، اللهم الا الخلايا العصبية . وتفيد البحوث العلمية أن دم الانسان يتجدد تجددًا كليًا خلال ما يقرب من أربع سنين ، كما تتغير جميع ذرات الجسم الانساني في بضع سنين ونخرج من هذا بأن الجسم الانساني ليس كهيككل ، وانما هو كالنهر الجارى ، أى انه « عمل مستمر » . ومن ثم تبطل جميع النظريات القائلة بأن علة الموت هي وهن الجسم وفقده لقوته ، فان الاشياء التي فسدت أو تسممت من الجسم أيام الطفولة أو الشباب قد خرجت من الجسم منذ زمن طويل ، ولا معنى لأن نجعلها سبب الموت، فسبب الموت موجود في مكان آخر، وليس في الامعاء والانسجة البدنية والقلب .

ويدعى بعض العلماء أن الأنسجة العصبية هي سبب الموت ، لأنها تبقى في الجسم الى آخر الحياة ولا تتجدد . ولو صح هذا التفسير القائل بأن النظام العصبى هو نقطة الضعف في الجسم الانساني ، فمن الممكن أن نزع من أى جسم خال من (النظام العصبى) لابد أن يحيا عمرا أطول من الاجسام ذات النظام العصبى ولكن المشاهدة العلمية لا تؤيدنا ، فان هذا النظام لا يوجد مثلا في الأشجار ، وبعضها يعيش لأطول مدة ، ولكن شجرة القمح التي لا يوجد بها هذا النظام العصبى لا تعيش أكثر من سنة ، وليس في كائن « الأميبا » جهاز عصبى ، وهى مع ذلك لا تبقى على قيد الحياة أكثر من نصف ساعة ، ومقتضى هذا التفسير أيضا أن تلك الحيوانات التي تعد من (نسل أعلى) ، والتي تتمتع بنظام عصبى اكمل وأجود ، لابد أن تعيش مدة أطول من تلك التي هى أحقر نسلا وأضعف نظاما . ولكن الحقائق لا تؤيدنا في هذا أيضا، فان السلحفاة

والتمساح وسمكة « باتيك » أطول عمرا من أى حيوان آخر ، وكلها من النوع الثانى - حقير النسل ، وضعيف النظام .

لقد أخفقت تماما تلك البحوث التى استهدفت ان تجعل من الموت أمرا غير يقينى ، يمكن الا يقع ، فبقى الاحتمال ، الذى اكده الازمان ، وهو أن يموت الانسان فى أى عمر ، وفى أى زمن ، ولم نستطع العثور على أى امكان يمنع الموت ، رغم جميع الجهود .

لقد بحث الدكتور « الكسيس كاريل » هذه المشكلة فى مقال طويل بعنوان « الزمن الداخلى » ، فذكر الجهود المخففة التى بذلت فى هذا الصدد ، ثم قال :

« ان الانسان لن يسأم أبدا من البحث عن (الخلود) والسعى وراءه ، مع انه لن يظفر به الى الأبد ، فتركيبه الجسمانى يخضع لقوانين معينة ، أنه يستطيع أن يوقف الزمن (الفسولوجى) لأعضاء الجسد ، حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة ، ولكنه لن يتغلب على الموت أبدا » (١) .

(ب) ظواهر وأمثلة طبيعية :

فى ضوء هذه الوقائع لم تعد مسألة نهاية العالم غير مفهومة ، فنحن على علم بالقيامات الصغرى التى تقع على سطح الارض ، وهى التى ستحدث مرة أخرى على نطاق أوسع ، حتى تشمل الأرض المأهولة كلها .

ان الظاهرة الأولى التى تنذرنا بإمكان القيامة هى الزلازل . فبطن الأرض يحتوى على مادة شديدة الحرارة ، نشاهدها عندما ينفجر البركان ، وهذه المادة تؤثر على الأرض بشتى الطرق ، فمنها ما تصدر عنه أصوات مروعة رهيبه ، وما نحس به من الهزات

الأرضية ، التى نسميها « الزلازل » انها لا تزال كلمة رهيبة فى حياة الانسان المعاصر ، رغم تقدم العلوم والتكنولوجيا ، كما كانت رهيبة فى حياة الانسان القديم . هذه الزلازل هى حملة الطبيعة ضد الانسان الذى لا يملك ازاءها شيئا ، فالخيار كله فى يد الفريق الأول . ان الانسان لا يملك شيئا يقاوم به الزلازل ، فهى نذير يذكره دائما بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة جهنمية ، لا يفصله عنها سوى قشرة جبلية رقيقة ، لا يزيد سمكها عن خمسين كيلو مترا ، وهذه القشرة ليست ، بالنسبة الى الكرة الأرضية ، الا بمثابة القشرة من ثمرة التفاح .

يقول عالم الجغرافيا (جورج جاموف) : « أن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء ، ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان ، وبكلمة أخرى : نحن واقفون على ظهر لغم « ديناميت » عظيم ، ومن الممكن ان ينفجر فى أى وقت ، ليدمر النظام الأرضى بأكمله » (١) .

وهذه الزلازل تجتاح جميع نواحي الأرض ، ولا تخلو الجرائد أى صباح من أخبارها ، ولكن يكثر وقوعها فى الأماكن التى توجد بها البراكين لاعتبارات جغرافية . وأقدم زلزال رهيب سجله التاريخ هو زلزال إقليم (شنسى) الصينى ، الذى وقع عام ١٥٥٦ م . ولقى أكثر من ٨٠٠٠٠٠٠ نسمة مصرعهم فى هذه الكارثة . وقد وقع زلزال فى « لشبونة » عاصمة البرتغال عام ١٧٥٥ م ، فدمر المدينة كلها ، وأباد ثلاثين ألفا من الناس فى ست دقائق . وقد قيل : أن هذا الزلزال هز ربع أوروبا . ومن هذا النوع من الزلازل ما وقع فى ولاية « آسام » الهندية عام ١٨٩٧ م ، وهو يعد من الزلازل الخمسة الكبرى فى التاريخ ، فقد أحدث دمارا وخرابا عظيمين فى منطقة كبيرة من شمالى الهند ، كما غير اتجاه النهر العملاق (برهام بوترا) ،

وطفرت هضبة (ايفرست) بجبال الهملايا ، فارتفعت مائة قدم !
ان هذه الزلازل (قيامة) على نطاق غير واسع . . فعندما تنفجر
الارض بصوتها المخيف، ودويها الرهيب، وعندما تتساقط الجدران
وسقف الابنية المسلحة الفخمة . حتى كأنها أوراق « الكوتشينة »
وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها ، وأسفلها أعلاها ، وعندما تحل
الخرائب الموحشة محل المدن العامرة الكبرى في ثوان معدودة ،
وعندما تسير طواير النعوش ، وتتراكم على ساحات المدن وطرقها
تراكم الاسماك على ساحل البحر - فتلكم هي قيامة الزلزال .

وفي تلك اللحظة يشعر الانسان بعجزه أمام قوى الطبيعة ، فان
الزلازل لا تفرع أبواب المدن الا بفتة ، دون سابق اذن أو انذار ،
والبلية كل البلية في أن الانسان لا يستطيع أن يتنبأ بمكان الزلازل،
ولا بموعده وقوعها ، وهي في نفسها تنبىء عن قيامة كبرى ، سوف
تفجؤنا غداة يوم على غرة منا ، أن هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق
الأرض قادر على تدميرها ، كما يشاء .

وهذه هي حال الفضاء الخارجي ، فالكون فضاء لا حدود له ،
تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها ، هي (السيارات والنجوم) ،
ومثالها كملايين الخداريف (١) التي تدور على سطح معين بأقصى
سرعة يمكن تخيلها . وهذا الدوران يمكن أن يتحول في أى يوم الى
صدام عظيم لا يمكن تصوره . وفي تلك اللحظة الرهيبة يكون ما في
الكون اشبه بالآف من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية ،
وهي تواصل رحلتها في الجو ، ثم تصطدم كلها مرة واحدة ! ان
اصطدام الاجرام السماوية ليس بغريب مطلقا ، بل الغريب حقاهو
عدم وقوع هذا الاصطدام ، فدراسة علم الفلك تؤكد امكان اصطدام
الاجرام السماوية ، والحديث عن وجود النظام الشمسى يدور حول

(١) جمع خدروف وهى لعبة من الخشب ، مخروطية الشكل ، يسميها
الاطفال (النحلة) . (المراجع)

وقوع صدام كبير بين بعض الاجرام السماوية قديما ، فاذا استطعنا أن نتصور هذا التصادم على نطاق أوسع لاستطعنا أن نفهم جيدا ذلك (الامكان) الذى نحن بصددده . . فهذا الواقع هو بعينه ما نسميه « القيامة » .

ان فكرة (الآخرة) التى تقرر ان نظام الكون الموجود حاليا سوف يدمر يوما ، لا تعنى سوى ان واقع الكون ، الذى نشاهده فى صورة صغيرة أولية ، سوف يتجلى يوما فى صورة نهائية كبرى . فالقيامة حقيقة معلومة فى أعماقنا ، ونحن اليوم نعرفها فى حد (الامكان) ، ولسوف نلقاها غدا فى صورة الواقع .

(ج) الحياة بعد الموت :

المسألة الثانية فى هذا البحث هى مسألة الحياة بعد الموت . « هل هناك حياة بعد الموت ؟ ؟ » هذا سؤال يتردد دائما فى العقل الحديث ، ثم يستطرد قائلا : « لا . . لا حياة بعد الموت ، لأن الحياة التى أعرفها لا توجد الا فى ظروف معينة من تركيب العناصر المادية . وهذا التركيب الكيماوى لا يوجد بعد الموت ، اذن فلا حياة بعد الموت » .

ويعتقد « ت . ر . مايلز » بأن : « البعث بعد الموت حقيقة تمثيلية ، وليس بحقيقة لفظية » . ثم يضيف قائلا :

« انها قضية قوية عندى ان الانسان يبقى حيا بعد الموت ، وهذه القضية من الممكن - لفظيا - أن تكون حقيقة ، وهى قابلة لاختبار صحتها أو بطلانها بالتجربة ، ولكن المسألة الرئيسية فى طريقنا هى اننا لا نملك وسيلة لمعرفة الاجابة القطعية عن هذا السؤال الا بعد الموت . ولذلك يمكننا أن نقيس » .

وحيث ان قياسه لا يصدق هذه القضية ، فهى ليست بحقيقة لفظية . وقياسه كما يلى :

نفسه بنفسه دائما ، ومع ذلك فهو نفس النهر الذى وجد منذ زمن طويل ، ولكن الماء لا يبقى ، بل يتغير .

وجسمنا مثل النهر الجارى ، يخضع لعملية مستمرة ، حتى انه يأتى وقت لا تبقى فيه أية خلية قديمة فى الجسم ، لأن الخلايا الجديدة أخذت مكانها . هذه العملية تتكرر فى الطفولة والشباب بسرعة ، ثم تستمر بهدوء ملحوظ فى الكهولة . ولو حسبنا معدل التجدد فى هذه العملية فسوف نخرج بأنها تحدث مرة كل عشرينين ان عملية فناء الجسم المادى الظاهرى تستمر ، ولكن الانسان فى الداخل لا يتغير ، بل يبقى كما كان : علمه ، وعاداته ، وحافظته ، وأمانيه ، وأفكاره ، تبقى كلها كما كانت . أنه يشعر فى جميع مراحل حياته بأنه هو « الانسان السابق » ، الذى وجد منذ عشرات السنين ولكنه لا يحس بأن شيئا من أعضائه قد تغير ، ابتداء من أظافر رجليه حتى شعر رأسه .

ولو كان الانسان يفنى بفناء الجسم ، لكان لازما أن يتأثر على الأقل بفناء الخلايا وتغيرها الكامل ، ولكننا نعرف جيدا ان هذا لا يحدث ، وهذا الواقع يؤكد أن «الانسان» أو «الحياة الانسانية» شيء آخر غير الجسم وهى باقية رغم تغير الجسم وفنائه وهو كنهر مستمر فيه **سفر الخلايا بصفة دائمة** ! وهذا هو الأمر الذى دعا عالما أن يصف الانسان : بشيء مستقل بذاته ، وباق غير متغير ، رغم التغيرات المتسلسلة . فهو يعتقد :

« أن الشخصية هى عدم التغير فى عالم التغيرات » Persinality is Changelessness in Change»

ولو كان الموت فناء « للانسان » ، فمن الممكن أن نقول - بعد كل مرحلة من مراحل حدوث هذا التغير الكيماوى الذى يجرى فى الجسم - أن الانسان قد مات ، وانه يعيش حياة أخرى جديدة بعد موته ! ومعناه ان الرجل الذى أراه فى الخمسين من عمره ، وهو

يمشى فى الشارع على رجليه ، قد مات خمس مرات فى هذه الحياة القصيرة ، فاذا لم يمت هذا الانسان بعد فناء أجزاء جسمه المادية خمس مرات ، فكيف يستطيع أن اعتقد بأنه مات فى المرة السادسة على وجه اليقين ؟ ولا سبيل له الان الى الحياة ؟

ان بعض الناس لن يسلّموا بهذا الاستدلال ، وسيقولون : ان العقل : أو الوجود الداخلى الذى نسميه «انسانا» ليس بشيء آخر ولم يوجد الا نتيجة علاقة الجسم بالعالم الخارجى ، وأن الأفكار والأمانى لا توجد خلال العمل المادى الا كالحرارة التى توجد نتيجة احتكاك قطعتين من حديد !

ان الفلسفة الحديثة تنكر (الروح) بشدة ، ويعتقد السير جيمز : أن « الشعور » لا يوجد كوحدة Entity وانما هو وظيفة Function وتفاعل وتنسيق Process . . وقد أصر الكثيرون من فلاسفتنا المحدثين على أن (الشعور) فى ذاته ليس الا التفاعل والرد العصبى لما يحدث من حركة ونشاط فى العالم الخارجى . وبناء على هذه النظرية لا مجال للتساؤل عن امكان الحياة بعد الموت نظرا لتحلل النظام الجسمانى ، ولأن المركز العصبى فى الجسم لم يعد له وجود ، وهو الذى كان يتفاعل وينسق مع العالم الخارجى ، وهم يعتقدون بناء على هذا أن نظرية الحياة بعد الموت أصبحت غير ذات أساس عقلى أو واقعى .

سوف أقول : انه لو كانت هذه هى حقيقة الانسان ، فلنجرب ان نخلق انسانا حيا ذا شعور ، ونحن - اليوم - نعرف بكل وضوح جميع العناصر التى يتألف منها جسم الانسان ، وهذه العناصر توجد فى الارض وفى الفضاء الخارجى ، بحيث يمكننا الحصول عليها ، وقد علمنا دقائق بناء النظام الجسمانى ، وعرفنا هيكله وأنسجته ، ولدينا فنانون مهرة يستطيعون أن يصنعوا أجساما كجسم الانسان ، بكل مواصفاتها ، فلنجرب - لو كان معارضو الروح يصرون على

حقيقة مبدئهم - ولنصنع مئآت من أمثال هذه الأجسام ، ولنضعها في شتى الميادين ، في بقعة الأرض الفسيحة ، ثم لننتظر ذلك الوقت الذى تمشى فيه هذه الأجسام وتتكلم وتأكل «بناء على تأثيرات العالم الخارجى» ؟ !

فهذا عن امكان بقاء الحياة بعد الموت .

ثانيا - ضرورة الآخرة :

لنفكر الآن في الأسباب التى أقام الدين عليها دعوته الى الايمان بهذه النظرية : أن الحياة ، كما نتصور ، ليست « غدوا ورواحا» ، كما يراها الفيلسوف الألماني (نيتشه) ، والتى تمتلىء وتخلو كالساعة ولا هدف لها أكثر من ذلك . . ان الحياة « الآخرة » ذات هدف عظيم ، هو المجازاة على أعمال الدنيا ، خيرا كانت أو شرا . وهذا الجزء من نظرية الآخرة يكاد يتضح جليا حين نعلم أن أعمال كل انسان تحفظ وتسجل بصفة دائمة ، وبغير توقف . وللانسان ثلاثة أبعاد ، يعرف من خلالها ، هى : نيته ، وقوله ، وعمله . وهذه الأبعاد الثلاثة تسجل بأكملها . فكل حرف يخرج عن لساننا ، وكل عمل يصدر عن عضو من أعضائنا - يسجل في الأثير (الفضاء) ويمكن مرضه في أى وقت من الأوقات بكل تفاصيله ، لنعرف - اذا شئنا - كل ما قاله ، أو فعله أى انسان في هذه الحياة الدنيا ، من خير أو شر .

ان الأفكار تخطر على بالنا ، وسرعان ما ننساها ، ويبدو لنا انها انتهت ، فلم يعد لها وجود ، ولكننا ، بعد فترة طويلة ، نراها رؤى خلال النوم ، أو نذهب نتكلم عنها في حالات الهستيريا أو الجنون ، دون أن ندري شيئا مما نقول . وهذه الوقائع تثبت قطعيا أن العقل أو الحافظة ليست تلك التى نشعر ونحس بها فحسب ، وانما هناك أطراف أخرى من هذه الحافظة لا نشعر بها ، وهى ذات وجود مستقل ، وذات كيان قائم بنفسه .

ولقد اثبتت التجارب العلمية أن جميع افكارنا تحفظ في شكلها الكامل ، ولسنا قادرين على محوها أبدا ، واثبتت هذه التجارب أيضا أن الشخصية الانسانية لا تنحصر فيما نسميه « الشعور » بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية الانسانية تبقى وراء الشعور، يسميها فرويد : « ما تحت الشعور » ، أو « اللاشعور » وهذه الأجزاء تشكل جانبا كبيرا من شخصيتنا ، بل هي الجانب الأكبر منها ، ومثلها كمثل جبل من الجليد في أعالي البحار ، أجزاؤه الثمانية مستكنة تحت الماء ، على حين لا يطفو منه الا الجزء التاسع . وتلك هي ما نسميه : (تحت الشعور ، الذي يسجل ويحفظ كل ما نفكر فيه ، أو ننتويه) .

يقول (فرويد) في محاضراته الحادية والثلاثين :

« أن قوانين المنطق ، بل أصول الأضداد أيضا ، لا تحول دون عمل (اللاشعور) ID وأن الأمانى المتناقضة ، موجودة فيه جنبا الى جنب ، دون أن تقضى واحدة منها على الاخرى ، ولا شيء في اللاشعور يشبه أن يكون « رفضا » لشيء من هذه المتناقضات . اننا نتحير لما نشاهده من أن اللاشعور يبطل رأى فلاسفتنا القائلين بأن جميع أفعالنا العقلية الشعورية تتم في زمن محدد ، ولكن لا شيء في اللاشعور يطابق الفكر الزمني ، ولا يوجد فيه أى رمز لمضى الوقت وسريانه ، وهي حقيقة محسرة . ولم يحاول الفلاسفة أن يتأملوا حقيقة ، هي أن مضى الزمن لا يحدث أى تغيير في العمل الذهني ، أن الدوافع الحبسية (Conative impulses) التي لم تخرج قط عن اللاشعور ، وحتى التأملات الخيالية التي دفنت في اللاشعور - تكون أزلية في الحقيقة والواقع ، وتبقى محفوظة لعشرات السنين ، وكأنها لم تحدث الا بالأمس » (١) .

New Introductory Lectures on Psycho-Analysis,
London 1949, p. 99.

وقد سلم علماء النفس بهذه النظرية بصفة عامة اليوم ، وسعناها أن كل ما يخطر على بال الانسان من الخير والشر ، ينقش في صفحة اللاشعور ، فلا يزول الى الابد ، ولا يؤثر فيه تغير الزمان ، وتقلب الحدثان ، ويحدث هذا على رغم الارادة الانسانية - طوعا أو كرها .

ولم يستطع (فرويد) أن يدرك ما يمكن خلف هذه العملية من أسباب وعلل ، وأية خدمة تؤديها في مصنع الكون ؟ ولهذا نراه يدعو الفلاسفة الى التفكير والتأمل . ولكننا لو قارنا هذا الواقع مقرونا الى نظرية الآخرة لاستطعنا أن نصل الى حقيقتها بسرعة ، أن هذا الواقع يؤكد بكل صراحة امكان وجود سجل كامل لأعمال الانسان في حياته عندما يبدأ حياته الأخرى ، فان وجوده نفسه سوف يشهد على الأعمال والنيات التي عاشها .

((ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد)) (١) .

(١) مسألة القول :

ولنتناول هنا مسألة « القول » : أن نظرية الآخرة تقول بأن الانسان مسئول عن (أقواله) فجميع ما نلفظه من كلام ، حسنا كان أو قبيحا ، حمدا أو سخطا ، وسواء استعملنا اللسان في ابلاغ رسالة الحق ، أو استعملناه في ابلاغ رسالة الشيطان ، كل ذلك يحفظ في سجل كامل : **((ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد)) (٢) .** وهذا السجل سوف يعرض أمام محكمة الآخرة ليتم حساب الانسان .

وامكان وقوع هذا لا ينافي العلم الحديث ، فنحن نعرف قطعيا

(١) ق : ١٦ .

(٢) ق : ١٨ .

إن أحدا عندما يحرك لسانه ليتكلم ، يحرك بالتالى موجات فى الهواء كالتى توجد فى الماء الساكن عندما نرمى فيه بقطعة من الحجر . انك لو وضعت جرسا كهربائيا فى زجاج محكم الاغلاق من كل جانب ، ثم تضغط عليه ، فلن تسمع صوته ، رغم أن الجرس على مرأى منك . . لأنه لا يرسل الموجات الى الخارج ، فهو مكتوم داخل الزجاج ، وهذه الموجات فى الظروف العادية تصطدم ببطلة الأذن ، التى تقوم آليا بإرسال هذه الموجات الى العقل ، فما نفهمه من المعنى يسمى « سماعا » !

ولقد ثبت قطعيا أن هذه الموجات تبقى كما هى فى « الأثير » ، الى الأبد ، بعد حدوثها للمرة الأولى ، ومن الممكن سماعها مرة أخرى ولكن علمنا الحديث عاجز حتى الآن عن إعادة هذه الأصوات ، أو بعبارة أصح : عن أن يضبط هذه الموجات مرة أخرى ، مع أنها لا تزال تتحرك فى الفضاء من زمن بعيد . ولم يبد العلماء اهتماما خاصا بهذا المجال حتى الان ، بعد أن سلموا - نظريا - بإمكان إيجاد آلة لالتقاط أصوات الزمن الغابر . كما يلتقط المذياع الأصوات التى تذيعها محطات الإرسال . على أن المسألة الكبرى التى نواجهها فى هذا الصدد ، ليست هى التقاط الأصوات القديمة ، وإنما التمييز بين الأصوات الكثيرة - الهائلة الكثرة - حتى نتمكن من سماع كل صوت على حدة . . وهذه هى مسألة الإذاعة التى وصلنا فيها الى حل ، فان آلاف المحطات الإذاعية فى العالم تذيع برامج كثيرة ليل نهار ، وتمر موجات هذه البرامج فى الفضاء ، بسرعة . . . ١٨٦ ميل فى الثانية . وكان من المعقول جدا عندما نفتتح المذياع ان نسمع خليطا هائلا من الأصوات لانفهم منه شيئا ، ولكن هذا لا يحدث ، لان جميع محطات الإذاعة ترسل برامجها على موجات يختلف طولها ، فمنها ما يرسل برامجها على موجات طويلة ، ومنها ما يرسل على موجات قصيرة ، ومتوسطة . وهكذا تمر هذه البرامج فى الفضاء بموجات مختلفة طولا ، فتستطيع ان تسمع أية موجة من المذياع ، بمجرد أن تدير عقربه الى المكان المطلوب .

ان علماءنا لم ينجحوا في اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم ، ولولا ذلك لكنا قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمان بأصواته ، وبناء على هذا يثبت امكان سماع الأصوات القديمة في المستقبل ، فيما لو نجحنا في اختراع الآلة المطلوبة ، ومن ثم لاتبقى نظرية الآخرة بعيدة عن القياس ، وهى القائلة بأن كل ما ينطق به الانسان يسجل وهو محاسب عليه يوم الحساب .

وربما كان قياسا مع الفارق الكبير أن نذكر هنا ما حدث عندما كان الدكتور مصدق رئيس وزراء ايران الأسبق مسجوناً أثناء محاكمته عام ١٩٥٢ ، فقد ركبته في غرفته آلة للتسجيل تتحرك آلياً ، وسجلت هذه الآلة كل ما نطق به الدكتور مصدق في غرفته ، وقد عرضوا اشرطة التسجيل أمام المحكمة ، شهادة عليه . وهو نموذج لما يمكن ان يحدث في الآخرة .

ان مناقشتنا لجوانب المسألة لا تنفى وجود ملائكة لله - أو بلفظ آخر - وجود « مسجلين » غير مرئيين ، ينقشون على صفحة الفضاء كل ما ننطق به من كلام ، وهو ما يصدق قول الله سبحانه ((ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد)) .

(ب) مسألة العمل :

لننظر الآن في مسألة (العمل) : ومعلوماتنا في هذا الصدد تصدق بصورة مدهشة امكان حدوث الآخرة .

فالعلم الحديث يؤكد ايمانه بأن جميع أعمالنا - سواء باشرناها في الضوء ، أم في الظلام ، فرادى ، أم مع الناس - كل هذه الأعمال موجودة في الفضاء في حالة الصور ، ومن الممكن في أية لحظة تجميع هذه الصور ، حتى نعرف كل ما جاء به انسان ما من أعمال الخير والشر طيلة حياته ، فقد أثبتت البحوث العلمية أن كل شيء - حدث في الظلام أو في النور ، جامداً كان أو متحركاً - تصدر عنه « حرارة »

بصفة دائمة ، فى كل مكان ، وفى كل حال ، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماما ، كالأصوات التى تكون عكسا كاملا للموجات التى يحركها اللسان . وقد تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التى تخرج عن أى كائن ، وبالتالي تعطى هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية (Heat WaVes) . ومثاله اننى أكتب الآن فى مكتبتى ، وسوف أفادرها بعد ساعة، ولكن الموجات الحرارية التى خرجت من جسدى أثناء وجودى ههنا ستبقى دائما ويمكن الحصول على تسجيل كامل لجلستى فى المكتبة فى أى وقت بوساطة تلك الآلة ، غير أن الآلات التى تم اختراعها الى الآن ، لاتستطيع تصوير الموجات الحرارية الاخلال ساعات قليلة من وقوع الحادث . أما الموجات القديمة، فلا تستطيع هذه الآلة تصويرها ، لضعفها .

وتستعمل فى هذه الآلة (أشعة انفرارد) التى تصور فى الظلام والضوء ، على حد سواء . ولقد بدأ العلماء فى بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية استغلال هذه الآلة فى تحقیقاتهم ، وذات ليلة حلقت طائرة مجهولة فى سماء نيويورك ، فصوروا الموجات الحرارية لفضاء نيويورك بهذه الآلة ، وادى ذلك الى معرفة طراز الطائرة ونوعها (١) . ولقد أطلق على هذه الآلة اسم « آلة تصوير الحرارة Evaporagraph ونشرت جريدة هندوستان تايمس الهندية تعليقا بمناسبة هذا الاختراع ، تقول : « اننا بفضل هذه الآلة سوف نستطيع أن نشاهد تاريخنا على شاشة السينما فى المستقبل ، ومن الممكن أن تنتهى هذه العملية الى كشف عجيبة ، تغير أفكارنا عن التاريخ من جذورها ... » .

واننى اعتبر هذا الاختراع عجيبا كل العجب ، فمعناه ان حياة كل منا تصور على مستوى عالمى ، كما تسجل آلات التصوير

الاتوماتيكية السريعة جميع تحركات الممثلين السينمائيين . انك لو صفت فقيرا ، أو حملت عبثا عن أحد الغريباء ، أو شغل بالك أمر من الخير أو الشر . . فان جميع تحركاتك تسجل على شاشة الكون، حيث لا يسعك منعها أو الهرب منها ، سواء كنت في الظلام أم في النور . فحياتك كالقصة التي تصور في الاستديو ، ثم تشاهدها على شاشة السينما بعد حقب طويلة من الزمن ، وعلى بعد كبير من مكان التسجيل ، ولكنك تشعر كأنك موجود في مكان الأحداث ، وهكذا شأن كل ما يقترفه الانسان وشأن الأحداث التي يعيشها فان فيلما كاملا لتلك الأحداث سوف يوضع بين يدي كل فرد يوم القيامة ، حتى يصرخ الناس قائلين :

((يا ويلتنا ! ! ما لهذا الكتاب لا يفادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها (١) ؟)) .

والتفاصيل العلمية التي اوردنا بعضها في الصفحات الماضية يتضح منها جليا أن أجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل لكل أعمال الانسان ، فكل ما يدور في اذهاننا يحفظ الى الابد ، وكل ما ننطق به من الكلمات يسجل بدقة فائقة، فنحن نعيش امام كاميرات تشتغل دائما ، ولا تفرق بين الليل والنهار . . وجميع أعمالنا ، القلبية منها واللسانية والعضوية ، كلها تسجل بدقة تامة . . ولا يسعنا - ونحن نشرح هذه الظاهرة العلمية الخطيرة - الا ان نسلم بأن قضية كل منا سوف تقدم امام محكمة الهية . . وبأن هذه المحكمة هي التي قامت باعداد هذا النظام العظيم **لتحضير الشهادات التي لا يمكن تزويرها .**

ولا يستطيع أى عالم ان يدلى بتفسير أدق عن هذه الظاهرة سوى ما قلناه . . فلو لم تستطع هذه الوقائع الصريحة الساخنة أن تجعل البشر يحسون بمسئوليتهم ازاء المحكمة الجبارة التي ستقوم

(١) الكهف : ٤٩ .

يوم الحساب ، فلا أدري ما الواقع الذى قد يجعل هؤلاء يفتحون أعينهم ؟ !

ثالثا - الحاجة الى الآخرة :

لقد بحثنا فى الصفحات الماضية فيما اذا كان حدوث شيء من مثل الآخرة ، التى يدعيها الدين ، « ممكنا » ؟ ولقد ثبت ما علمنا أن الآخرة ممكنة الحدوث . . والمسألة التى نقف أمامها الآن هى : البحث فيما اذا كان هذا العالم فى حاجة - فعلا - الى شيء من قبيل الآخرة ؟ وهل يقتضى الكون - فى هيكله الحالى - وقوعها ؟؟

(أ) الجانب النفسى :

لنتناول أولا (الجانب النفسى) من المسألة .

يقول البروفيسور (كنجهام) فى كتابه : Plato's Apology « أن عقيدة الحياة بعد الموت » لادرية مفرحة Cheerful Agnosticism ومن الممكن اعتبار هذا القول خلاصة أفكار فلاسفتنا الملحد المعاصرين فهم يرون أن عقيدة الآخرة اخترعتها عقلية الانسان الباحثة عن عالم حر ، مستقل عن حدود هذا العالم ، وعن مشكلاته ، ملئ بالفراخ وانما يدفعه الى الايمان بهذه العقيدة أمله فى الحصول على حياته المفضلة ، التى لا جهد فيها ولا كدح . . وان هذه العقيدة تنتهى بالانسان الى عالم مثالى وخيالى ، حيث يحلم بأنه سوف يظفر به بعد الموت . ولكن الحقيقة - كما يراها الفلاسفة - ان لا وجود لشيء كهذا العالم الثانى فى الامر الواقع !

وفى رأى : أن هذا المطلب الانسانى - فى حد ذاته - « دليل نفسى » قوى على وجود عالم آخر ، كالظما ، فهو يدل على الماء وعلى علاقة باطنة بين الماء وبين الانسان . وهكذا فان تطلع الانسان - نفسيا - الى عالم آخر دليل فى ذاته على أن شيئا مثل ذلك موجود

فى الحقيفة ، او انه - على الاقل - خلىق أن يوجد . وهذا المطلب النفسى يؤكء علاقة مصيرنا بهذه الحقيفة ، ويدلنا التاريخ على وجود هذه الفريزة الانسانية منذ أقدم العصور على مستوى انسانى ، وهو أمر لا أستطيع فهمه : كيف يمكن أن يؤثر أمر باطل على البشر فى هذا الشكل الأبدى ، وعلى مستوى انسانى ؟ وهذا الواقع نفسه يدلنا على قرينة قوية بإمكان وجود العالم الآخر . وانكار هذه الحاجة النفسية ، بدون أدلة ، يعتبر جهلا وتعصبا .

ان الذين ينكرون حاجة نفسية عظيمة مثل هذه زاعمين انها باطلة ، هم من أعجز الناس حقا عن تفهم أى « واقع » على سطح الأرض بعد هذا . . ولو كانوا يزعمون الفهم فى الواقع فلا أدرى بأى دليل ؟ . . وعن أى برهان ؟

ولو كانت هذه الافكار نتاج المجتمع ، كما يزعمون ، فكيف لاتزال تطابق التفكير الانسانى ، بهذه الصورة المدهشة ، من أقدم العصور هل تجدون مثالا لأية أفكار انسانية أخرى ظلت باقية الى العصر الحاضر ، وبهذا التسلسل الرائع منذ ألوف السنين ، هل يستطيع اذكى اذكياؤكم أن ي اخترع فكرا واهيا ، ثم يدخله الى النفس الانسانية وكأنه موجود بها منذ الازل ؟

ان لكل انسان أمانى كثيرة لا تكمل بالنجاح فى حياته ، انه يتمنى حياة أبدية ، ولكن الحياة التى أعطيت له تخضع لقانون الموت . والعجيب أن الانسان عندما يكون على أبواب حياة ناجحة عظيمة ، بعدما كسب من العلم والمعرفة ، والخبرة والتجارب الثمينة ، حينئذ تداهم دعوة الموت . . ولقد اكدت احصائية عن تجار لندن الناجحين أن أمرهم يستقر فيما بين ٤٥ - ٦٥ سنة من أعمارهم ، ثم يبدأون يربحون ما بين خمسة آلاف الى عشرة آلاف جنيه فى السنة ، وفى ذلك الوقت الثمين - فجأة - تتوقف حركات قلوبهم ذات مساء ،

او ذات صباح ، فيرحلون الى عالم مجهول ، تاركين تجارتهم الممتدة الى ما وراء البحار .

يقول الاستاذ وينوود ريد (Winwood Reade)

« انه لأمر هام يدعونا الى التفكير فيما اذا كانت لنا علاقة شخصية مع الاله ؟ هل هناك عالم غير عالمنا هذا ؟ وهل سوف نلقى جزاء اعمالنا في ذلك العالم ؟ أن هذا السؤال ليس بعقدة فلسفية عظيمة فحسب ، وانما هو في نفس الوقت أعظم أسئلتنا العملية ايضا انه سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة ، فحياتنا الراهنة قصيرة جدا ، أفراحها عادية موقوتة ، اذ اننا عندما نظفر بما نحلم به ، يفاجئنا الموت ، ولو استطعنا الاهتداء الى طريق خاصة تجعل أفراحنا دائمة وأبدية ، فلن يرفض العمل به أحد غير البله والمجانين منا » (١) .

ولكن الكاتب نفسه يستطرد فينكر ذلك المطلب النفسى الكبير من أجل أمور لا وزن لها ولا قيمة ، فهو يقول : « ان هذه العقيدة كانت معقولة جدا حين كنا لا نبحث جوانبها بعمق وجد . . ولكن بعد هذا البحث اتضح لنا انها أمر سخيف ، ويمكن اثبات سخافته بسهولة ، فالفلاح المحروم العقل الجاهل لا يتحمل مسئولية خطاياها ، وسيدخل الجنة ، ولكن العباقرة مثل (جوته) و (روسو) ، سوف يحترقون في نار الجحيم ، فلأن يخلق الانسان محروم العقل خير له من أن يكون من أمثال جوته وروسو !! ان هذا الكلام تافه سخيف » (٢) .

وما اشبه هذا الموقف بالذى اتخذه (اللورد كلوين) تجاه التحقيق العلمى الذى قام به (ماكسويل) ، فقد زعم اللورد انه لا يستطيع ان يفهم نظرية ما الا بعد وضع نموذجها الميكانيكى ، وبناء على هذا الفرض أنكر نظرية ماكسويل عن البرق والمغناطيس ، لانها لم تحل فى أحد نماذج اللورد المادية أن مثل هذه المواقف والادعاءات الخرافية

Martyrdom of Man, p. 414.

(١)

Ibid, p. 415.

(٢)

أصبحت غريبة في عالم الطبيعة الحديثة . ويتساءل العالم الكبير
(سوليفان) :

« كيف يروق لأحد أن يدعى أن الطبيعة لا بد أن تكون كما يضعها
مهندس القرن التاسع عشر في معمله ؟ » (١) .

وسوف أوجه هذا الكلام الى الأستاذ (وينوود) :

« كيف يجوز لفيلسوف القرن العشرين أن يرى: أن يكون الكون
الخارجي ، في حقيقة الأمر مطابقا لما يزعمه هو ؟ » .

ان كاتبنا لم يستطع أن يفهم أمرا في غاية البساطة : هو أن
الحقيقة لا تحتاج الى الواقع الخارجي ، وانما الواقع الخارجي هو
الذي يكون في حاجة الى « الحقيقة » . . فالحقيقة أن لهذا الكون
الها ، وسوف نمثل امامه يوم الحساب . فلا بد لكل منا - سواء
أكان روسو أم كان مواطنا عاديا - أن يكون وفيا ومطيعا لالهه ،
فنجاتنا لن يحققها جحودنا ، بل هي تكمن في ايماننا وطاعتنا . .
والغريب أن كاتبنا لم يرق له أن يطالب (جوته) و (روسو) أن
يسلكا مسلك الحق ، وانما طالب الحق بالتغيير ! ولما لم يطع الحق
راح ينكره !! وهذا أشبه بمن ينكر قانون حفظ الاسرار العسكرية،
الذي يكرم أحيانا جنديا بسيطا، ويعدم عالما ممتازا، مثل «روزنبرج»
وعقيلته الحسناء بالكرسي الكهربائي ! !

انه لا يوجد على سطح الأرض من يفكر في ' (الغد) غير الانسان،
فهو يتميز عن سائر الحيوانات بدوام تفكيره في المستقبل ، وجهاده
التواصل ، وسعيه الدائب في سبيل تحسين أحواله . ولا شك اننا
قد نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها ، كالنمل الذي يدخر غذاءه
للشتاء القادم ، والطيور التي تصنع أعشاشا يسكنها أولادها بعد

J.W.N. Sullivan, The Limitations of Science, p. 9.

(١)

ففسهم ، ولكن هذا العمل لدى الحيوانات يعتبر « غريزيا » فهو صادر عن غير شعور بالمسؤولية ، أنها لا تقوم بهذه الأعمال لقلقها من مشكلات الغد، وانما تأتي بها طبيعيا ، ومن ثم تنتفع بها في المستقبل فالتفكير في المستقبل يتطلب فكرا مدركا واعيا ، وهو من ميزات الانسان فحسب ، ولا يتمتع به شيء من الحيوانات غيره .

هذا الفرق الكبير بين الانسان والحيوان يؤكد أنه لابد أن تكون للانسان مواقع أكثر بالنسبة الى أى نوع آخر للانتفاع بها ، فحياة الحيوانات هي ما تسمى « حياة اليوم » ، ففكرة الغد لا توجد عندها ولكن مطالعة حياة الانسان تقتضى « غدا » ، ولو انكرنا هذه الحاجة لخالفنا الطبيعة .

ويعتقد بعض العلماء والفلاسفة أن خيبة آمال الانسان في حياته الراهنة هي التي تجعله يفكر في حياة أفضل ، وهم يرون ان هذا الفكر سوف يتلاشى لو أتيح للانسان مجتمع رفاهى كامل . فقد اعتنق عدد كبير من أسرى الروم المسيحية لأنها وعدتهم بأفراح السماء . . ولذا تتوقع هذه الطائفة من العلماء والفلاسفة أن سعادة الانسان ورفاهية المجتمع سوف تزداد أكثر فأكثر ، الى أن تقضى نهائيا على نظرية « العالم الآخر » .

ولكن تاريخ الأربعمئة سنة الأخيرة - التي ازدهرت فيها العلوم والتكنولوجيا - يكذب هذا التوقع ، فإن أول ما هبّ التقدم التكنولوجى للانسان أنه أتاح له وسائل عديدة، احتكرتها أيدٍ محدودة قامت بدورها باستغلالها ، وقضت على صغار العمال والحرفيين، وحولت تيار الثروات الى كنوزها ، وخزائنها ، وجعلت من الشعب عمالا فقراء معوزين ، ويمكن مطالعة هذه المناظر القبيحة التي جاءت نتيجة التقدم التكنولوجى ، فى كتاب كارل ماركس « رأس المال » ، الذى يعتبر ضجيجا للطبقة العمالية التي عاشت القرنين الثامن والتاسع بعد الألف ، ثم بدأت ردود فعل هذا الضجيج، وتبعه كفاح

طويل ، قامت به المنظمات العمالية ، حتى تحسنت الاحوال الى حد ما . ولكننى أرى ان التغير الذى طرأ على احوال العمال ليس الا ظاهريا ، فعامل اليوم يتقاضى أكثر مما كان يتقاضاه بالأمس، أما السعادة الحقة ، فانه أكثر افتقادا لها من سلفه . . ذلك ان النظام التكنولوجى لم يعط الانسان أكثر من مظاهر مادية ، فهو لا يملك القيم الروحية ، حتى يمنح لاتباعه السعادة والطمأنينة القلبية ، وما أصدق ما قاله الشاعر (Blake) عن انسان الحضارة

الحديثة :
A mark in every face I meet

Marks of weakness, marks of woe.

« كل وجه ترى عليه سمات فيه ضعف ، وفيه ذل وحقد »

لقد اعترف « برتراند راسل » قائلا « ان حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح ، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة ، ولكنهم محرومون من نعمتها في عالمنا الحديث » (١) .
واليوم كما يقول راسل ، أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة : السعادة (٢) ! !

انك عندما تزور نيويورك ، تشاهد أبنيتها الضخمة مثل عمارة « امباير ستيت » ، التى تتكون من ١٠٢ طابقا ، وهى عالية جدا ، حتى ان درجة الحرارة فى ادوارها العليا تكون منخفضة جدا بالنسبة الى ادوارها السفلى ، وعندما تخرج منها وتراها من الشارع فلن تصدق أنك كنت فوق هذا العملاق الذى يرتفع ١٢٥٠ قدما فوق سطح الأرض ، ولا يستغرق المصعد الكهربائى للصعود من أسفلها الى أعلاها أكثر من ثلاث دقائق !! وبعد مشاهدة هذه العمارات والمظاهر تذهب الى النوادى وتشاهد الرجال والنساء

Conquest of Happiness, p. 11.

(١)

Ibid., p. 93.

(٢)

يرقصون ملتصقين . . وتفكر : « ما أسعد هؤلاء الناس ! » ثم تأوى الى مقعد تشاهد الرقص المثير ، ولن تقضى وقتا طويلا حتى تأتيك حسناء من هؤلاء القوم ، وتجلس على المقعد المواجه لمقعدك ، انها تبدو كئيبه ، فتسألك دون مقدمات :

— أيها السائح ، هل أنا قبيحة المنظر ؟

— اننى لا أرى ذلك . .

— ولكننى أفهم اننى فقدت « روعة الجمال » ، اليس كذلك ؟

— لا . . فى رأى انك تملكين الكثير من الفتنة وروعة الجمال .
— شكرا أيها السائح الكريم ! ولكن الشبان لا يبالون بى ، ولا يواعدوننى .

لقد أصبحت الحياة بالنسبة الى ممله موحشة .

ان ما رأيته فى نيويورك لم يكن الا منظرا مقتضبا من مسرحية الانسان فى العصر الحديث .

لقد أقامت العلوم والتكنولوجيا أبنية شامخة ، ولكنها نزلت السعادة من قلوب ساكنيها ، إنها أقامت مصانع تتحرك باللات هائلة ولكنها حرمت عمالها الراحة التى يطمحون اليها ، وهذه هى نتيجة التاريخ العلمى والتكنولوجى . فكيف بنا اذن نطمح ونتوقع عالما يسوده السلام والسعادة ، من « صنع التكنولوجيا » ! ؟

(ب) الضرورة الاخلاقية :

وعندما ندرس المسألة من الوجهة الاخلاقية نرى انه لا بد من « الآخرة » ، فان التاريخ الانسانى لن يكون له أى معنى بدونها .

ان فطرة الانسان تميز بين الخير والشر ، والصالح والطالح ،

والظلم والعدل ، وهذه الفطرة هى التى تميز الانسان عما سواه ، ولكن ها هو ذا الانسان الذى كرمه ربه ، يهدر فطرة الله أكثر ممن لا يتمتعون بها ، أنه يظلم بنى جنسه ، يقتلهم ويشردهم ، ويوجه اليهم كل شر مستطاع . .

ان الحيوانات لا تظلم فصائلها ، فالأسد ليس فى الأسود أسداً ، والنمر ليس فى العرين نمراً . . ولكن الانسان أصبح يفترس اخوانه حتى الأقربين منهم ، مما لا يوجد له مثيل فى قانون الغابة .

ولا مزية أننا وجدنا أضواء الحق والعدالة فى التاريخ الانسانى ، وأنا نقدرها حق قدرها ، ولكن الجزء الأكبر من التاريخ يفيض بقصص الظلم والفساد والعدوان ، ان المؤرخ ليصاب بئأس بالغ عندما يرى أن أحداث التاريخ تتعارض تماماً مع الضمير الانسانى . ولنقتبس هنا بعض الأقوال :

فولتير : « ان التاريخ الانسانى ليس الا صورة للجرائم والمصائب » (١) .

هربرت سبنسر : « أن التاريخ تهريج ، وكلام فارغ لا جدوى منه » .

نابليون : « ان التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعنى شيئاً » .

ادوارد جين : « ان تاريخ الانسان لا يعدو أن يكون سجلاً للجرائم ، والحماسة ، وخيبة الأمل » .

هيكل : « ان الدرس الوحيد الذى تعلمته الحكومة والشعب من مطالعة التاريخ هو أنهم لم يتعلموا من التاريخ شيئاً » (٢) .

Story of Philosophy, Will Durant, p. 220.

(١)

Western Civilisation, E. Menall, Burns, p. 871.

(٢)

هل قامت مسرحية العالم كلها لتنتهى الى كارثة أليمة ؟ ان
فطرتنا تقول :

لا . . فدواعى العدالة والانصاف فى الضمير الانسانى تقتضى
عدم حدوث هذا الامكان ، لا بد من يوم يميز بين الحق والباطل ،
ولا بد للظالم والمظلوم أن يجنيا ثمارهما ، وهذا مطلب لا يمكن اقصاؤه
من مقومات التاريخ ، كما لا يمكن ابعاده عن فطرة الانسان .

ان هذا الفراغ الشاسع الذى يفصل ما بين الواقع والفطرة
يقتضى ما يشغله ، فان المسافة الهائلة بين (ما يحدث) و (ما ينبغى
أن يحدث) تدل على ان مسرحا آخر قد اعد للحياة ، وانه لابد من
ظهوره . فهذا الفراغ العظيم يدعو الى تكميل الحياة . وانى لأتحير
عندما يؤمن الناس بفلسفة الروائى الانجليزى « هاردى » القائلة :
بأن العالم مكان للظلم والوحشية ، ولكننى أصاب بحيرة أكبر عندما
ارى أن هذه الحالة البالغة السوء لا تقودهم الى الايمان بان: ما ليس
بموجود اليوم ويقتضيه العقل ، لا بد من حدوثه غدا .

« اذا لم تكن هنالك قيامة فمن ذا الذى سوف يكسر رؤوس
هؤلاء الطواغيت الطفافة؟ » — كلمة كثيرا ماتخرج من شفتى مصحوبة
بأنين مرير ، عندما أطالع الجرائد ، فجرائدنا صورة مصغرة لما
يحدث كل يوم على الأرض ، والصورة التى تحملها الجرائد. الينا
رهبة . . انها تتكلم عن الاغتيالات ، والخطف والنهب ، والاتهامات
الكاذبة ، والتجارة السياسية ، والدعايات الباطلة التى تتلاعب
بالألفاظ . ان هذه الجرائد تخبرنا كيف نكل الحكم الفلانى بمعارضيه
الضعفاء ، باسم مصالح الامة ، ودواعى الأمن القومى ؟ ! وكيف
سيطر ذلك الشعب على أرض لم يملكها طيلة التاريخ بقوة السلاح!!
وليست هذه الجرائد الا حكايات لمأساة الضعيف والقوى ،
والسلطان والرماع !!

ان الأحداث التى وقعت فى بلادى أخيرا ، وبخاصة تلك الاغتيالات

الجماعية ، وعمليات النهب والحرق المخططة التي جرت في مناطق جبل بور ، وجمشيدبور ، وراؤركيلا ، وكلكتا - يبدو بعدها أن المرء لا ينبغي أن يستبعد وقوع أية جريمة على هذه الأرض ، سواء أمكنه تصورها أم لا !! فان قوما يرفعون شعارات (العلمانية) و (الجمهورية) و (اللاعنف) يستطيعون - في نفس الوقت - أن يرتكبوا أبشع أنواع الطائفية ، وأشنع ألوان الديكتاتورية ، وأسوأ صور العنف ، كما لم يشهده التاريخ . وكل هذه الجرائم البشعة - التي تأسى لحدوثها السبب المفترسة ، والذئاب الكاسرة ، والخنازير الوحشية - قد جرت في عهد زعيم أطلق عليه لقب . « معلم الانسانية ورسوم السلام (١) » !! وليت المأساة توقفت عند هذا الحد ، فلقد ارتكبت في هذا العصر الذي ازدهر فيه النشر والاذاعة ، جرائم شنيعة ، وأحداث مروعة ، من نهب ، وقتل ، واحراق اقوام بأسرهم ، ودامت المأساة أشهرا طويلة ، بل سنين عديدة في بلاد شاسعة جدا من الهند ، والصحافة العالمية لا تنشر عنها شيئا ما ، وقد محيت تماما هذه الجرائم من صفحات التاريخ، كأن لم تكن مأساة الأمس القريب !!

هل خلق هذا العالم ليكون مسرحا للمآسي ، والشيطنة ، والهمجية والقرصنة ، ثم لا يلقي الظالم والمظلوم جزاءهما ؟ ان عالما - من هذا القبيل - اعلان في حد ذاته عن أنه ناقص ، وهذا النقص في ذاته يقتضى ما يكمله .

(ج) مشكلة السلوك :

ولندرس هذا من ناحية أخرى . لقد شغلت مسألة هامة الذهن الانساني من أقدم العصور ، وهي كيفية اجبار الناس على سلوك

(١) الاشارة الى جواهر لال نهرو ، وقد جرت الاحداث البشعة التي اشار اليها المؤلف خلال الاعوام ١٩٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ولم ينشر عنها شيء بفعل التآمر العالي (المراجع) .

طريق الحق ، فاذا افترضنا أن بعض أفراد المجتمع قد منحوا سلطة سياسية من أجل تحقيق هذا الهدف ، فمن الممكن أن يمتنع الرعايا خوفاً من العذاب . ولكن ما الذى يدفع أولئك الذين يتمتعون بالسلطة السياسية الى تحقيق العدل والانصاف؟ ولو اننا استنجدنا القانون ، واستصرخنا المحكمة ، فكيف اذن يمكن أن نبلغ بهما تلك الأماكن والجوانب التى لا تخضع للشرطة والقانون؟ ولو اننا خضنا معارك الدعاية ، وناشدنا أهل الشر أن يكفوا عن الجرائم ، فمن ذا الذى ينصت إلينا؟ ويتخلى عن فائدة يجنيها دون كلفة؟ أن رهبة عقاب الدنيا لن تنجح فى قمع انحرافات الانسان ، فنحن جميعاً نعرف أن الكذب ، والرشوة ، والمحسوبية ، واستغلال النفوذ ، وما الى ذلك من الوسائل المعروفة ، سوف تحول دون أى إمكان للعقاب .

انه لن يفلح شيء فى قمع الجرائم غير الدافع المنبعث من داخل قلب الانسان - الضمير الذى لو دخل ارادة الانسان فلن يسقطه عامل خارجى ايا كان، وهذه الميزة غير متاحة الا فى عقيدة الآخرة . فان دافعا قويا يكمن فى هذه العقيدة ، ويجعل من اتقاء الجرائم مصلحة ذاتية لكل انسان . انها مصلحة يهتم بها الجميع ، فكل رئيسا كان ام مرءوسا ، فى الظلام كان او فى الضوء - ينطلق ويفكر فى أنه لابد من يوم للقاء الله ، والكل يشعر بأن الله يراه، وسوف يحاسبه حسابا عسيرا . وهذه الأهمية الكبرى فى عقيدة الآخرة هى التى جعلت القاضى ماثيو هالوس (Mathew Halos) وهو من كبار قضاة القرن السابع عشر يقول :

« ان القول بأن الدين خدمة ، هو بمثابة ابطال لجميع المسئوليات التى تقع على عاتقنا لاستقرار النظام الاجتماعى » (١) .

الا ما أهم هذا الجانب من نظرية الآخرة !!

وانا لنستطيع أن ندرك أبعاد هذه النظرية لو تأملنا أن كثيرا من علمائنا الملحدون، الذين لا يعتقدون أن الآخرة أمر واقع، قد اضطروا - بناء على تجارب التاريخ - الى القول بأنه لا يوجد شيء غير « الآخرة » لمراقبة الانسان، واخضاعه لسلوك طريق الحق والعدل في جميع الظروف .

لقد أنكر الفيلسوف الالماني « كانت » فكرة (الاله) ، قائلا (انه لا يجد أدلة شافية على وجوده) . فهو ينكر « الصواب النظري » في الدين ، ولكنه في نفس الوقت ، يضطر الى أن يسلم « بالصواب العلمي » في الدين ، من الناحية الأخلاقية (١) .

و (فولتير) أيضا لا يؤمن بحقائق ما وراء الطبيعة ، ولكنه يرى :

« أن أهمية الاله والحياة الآخرة عظيمة جدا ، حيث انهما أساسان لاقامة « المبادئ الأخلاقية » . . وهو (فولتير) يرى أن هذه العقيدة وحدها كفيلة بإيجاد اطار اخلاقي أفضل للمجتمع . ولو أن هذه العقيدة زالت فلن نجد دافعا للعمل الطيب . وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعي » (٢) .

ان الذين يرون أن « الآخرة » فكرة خيالية ينبغي أن يفكروا : كيف أصبحت فكرة خيالية ذات أهمية قصوى بالنسبة الى واقع حياتنا ؟

لماذا لا نستطيع بدونها اقامة نظام اجتماعي سليم ؟

ولماذا تنهار قيم حياتنا عندما نتخلى عن هذه الفكرة ؟

هل يمكن ان تحتل فكرة خيالية هذه الاهمية الكبرى في الحياة ؟

Story of Philosophy, N.Y., 1954, p. 279.

(١)

Windelband, History of Philosophy, p. 496.

(٢)

هل وجدتم مثالا ما في الكون لفكرة خيالية غير كائنة ، أصبحت تتمتع بهذه الأهمية الحقيقية في الحياة ، رغم أنها لا علاقة لها بواقعنا ؟ !

ان حاجتنا الملحة الى الآخرة لتنظيم الحياة ، واقامتها على أسس عادلة حقيقية ، هي - في حد ذاتها - تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون ، ولست أبالغ اذا قلت : ان هذا الجانب المنطقي من الاستدلال يثبت حقبة هذه النظرية ، على مستوى التحقيق المعلى العلمى . .

(د) الضرورة الكونية :

ولننظر الى هذه القضية من جهة ثالثة ، تلك التى أسميها : « الضرورة الكونية » . لقد تكلمت فى الصفحات الماضية عن وجود الاله فى الكون ، وقد ثبت جليا ان الدراسة العلمية والفكرية هى التى تدعونا الى القول بوجود اله لهذا الكون . وبقي أن نسأل : لو كانت هناك علاقة بين الاله والانسان لما كان بد من ظهورها ، فمتى ستظهر هذه العلاقة جليا ؟

اما بالنسبة الى عالم اليوم ، فمن الممكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر بعد ، فالرجل الذى لا يؤمن بالاله ، يصيح قائلا : « اننى لا أخاف من الله » ، ثم هو لا يصاب بأذى ، بل قد يحصل على الزعامة ، ويتسلم مقاليد الحكم ! !

أما الذين يبلغون رسالات الله ، فان السلطات توقف نشاطهم بحجة انه « غير شرعى » وهناك أيضا مكاتب ومؤسسات تشغلها - ليل نهار - الدعاية الأولئك الذين يقولون : « لقد ذهب صاروخنا الى القمر ولم يتشرف بلقاء الهكم ! » ، وجميع أجهزة الدعاية الرسمية تدعم هذه المؤسسات فاذا ما نهض أصحاب الدعوات برسالتهم ردهم علماء العصر قائلين : انكم رجعيون تتخبطون فى الظلمات !

يولد الأطفال ، ثم يشبون ، ويموتون .
تصل الشعوب الى أوج مجدها ، ثم تنقرض .
تقع الثورات ، ثم تزول .

تشرق الشمس وتغرب ، ولكن لا تظهر آيات وجود الله .

وفي هذه الحالة تطالبنا عقولنا وقلوبنا بالايمان بوجود الله ، او انكار هذا الوجود . فلو آثرنا الايمان بالله ، فلا مناص لنا من الايمان بالآخرة . فليست هناك طريق أخرى لتبين علاقة الانسان بالاله .

لقد سلم (داروين) بأن لهذا الكون « خالقا » . ولكن « تفسير الحياة » الذى قدمه لا يتضمن ادنى ربط بين الخالق ومخلوقه ، كما أنه لا يحس بالحاجة الى «نهاية» لهذا الكون ، حاجة تدفعه الى تقرير هذا الربط ، ولست أدري كيف سيملاً (داروين) هذا الفراغ الكبير في نظريته البيولوجية ؟ ان عقلى يستنكر الها لا علاقة له بأمور الكون ، ولا يشهده عباده في مظهر الخالق أبداً . وما أعجب « خالق داروين » - هذا الذى يأتى يكون عملاق هكذا ، ثم ينهيه ، دون ابداء الأسباب التى دفعته الى هذا الخلق ، ودون تعريف مخلوقيه بصفاته العديدة !!

اننا لو اعطينا هذه المسألة الخطيرة شيئاً من تفكيرنا ، فسوف نجد قلوبنا تصرخ « ان الساعة آتية لا ريب فيها » (١) بل اننا لو تأملنا فسنراها مسرعة اليها سوف نراها ثقيلة ، وشيكة الانفجار ، كأنها الوليد في بطن الحامل . وما أقرب ما تفتك بنا - فجأة - ذات عشية وضحاها :

((يسألونك عن الساعة أيا نمرساها . قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو . ثقلت في السموات والارض . لا تاتيكم الا بغتة)) (٢) .

(١) غافر : ٥٩ .

(٢) الامراف : ١٨٧ .

رابعاً - الشهادة التجريبية :

نواصل الآن بحثنا في الجانب الآخر من هذا الموضوع : (الآخرة) وهو : هل هناك شهادة تجريبية تثبت الحياة بعد الموت ؟

ان أول دليل على الحياة الثانية هو حياتنا الاولى في حد ذاتها، فان الذين ينكرون الحياة الثانية يقرون ، بداهة ، الحياة الأولى . والحياة ، تلك التي ظهرت مرة واحدة ، كيف تعجز عن اعادة نفس العملية مرة أخرى ؟ هذه التجربة التي نعيشها نحن اليوم ، كيف يستحيل حدوثها ثانية ؟؟ انه لا شيء اكثر عداء للمنطق والعقل الانساني من ان نسلم بوقوع حادث في « الحال » ، وننكره في « المستقبل » !!

ياله من تناقض عجيب . ان الانسان يدعى أن « الآلهة » التي اخترعها هو بقدراته الخارقة لتفسير الكون تستطيع اعادة وقائع الكون مرة أخرى ، ولكنه يرفض بعناد تلك النظرية المماثلة التي يتقدم بها الدين ، ويعبر « السير جيمس جينز » عن نظرية هؤلاء القوم قائلا :

« لا غرابة اذا كانت أرضنا قد جاءت صدفة نتيجة بعض الحوادث . واذا بقى كوننا على حاله الراهنة لمدة طويلة مماثلة (لمدة حدوثه صدفة) ، فلا نستبعد حدوث أى شيء يمكننا قياسه على الأرض » (١) .

وترى نظرية النشوء والتطور ان جميع انواع الحيوانات تنحدر من نوع بدائي واحد، وانها ارتقت الى ما هي عليه الان خلال مراحل تطورية متطاولة . وبناء على هذا التفسير الذي قام بوضعه « داروين » - صاحب هذه الفكرة - فان « الزراف » ، الموجود حالياً

كان فى بدء الامر من عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف ، ولكن هذا الحيوان ، من خلال العمليات الطسوية التى أعقبت التوالد والتناسل ، والتغيرات والفوارق الصغيرة التى طرأت على الجنس الحيوانى ، استطاع أن يحصل على هذا الهيكل العظيم غير العادى، الذى نشهده اليوم .

يقول « داروين » موضحا نظريته فى الباب التاسع من كتابه :

« ومن الأمور الحتمية عندى أنه - اذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل ، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذى ظلف عادى حيوانا مثل الزراف » (١) .

وهكذا اضطر جميع العلماء ، الذين حاولوا شرح الكون والحياة بطريق طبيعية ، الى أن يسلموا بأنه لو هيئت نفس الاحوال - التى ساعدت فى خلق الحياة الاولى - فمن الممكن حدوث الحياة ولوازمها مرة أخرى . ان امكان حدوث الحياة الاخرى أقوى - نظريا - من امكان الحياة الاولى ، الذى قد وقع فعلا ، وأى شىء نسلم به انه خلق الحياة - مهما كان هذا الخالق - فلا بد لنا من الاقرار بصفة بدهية بأن ذلك الخالق يستطيع بالتأكيد اعادة نفس الحوادث التى أنشأها للمرة الأولى ، ولا بد لنا من هذا الاعتراف ، اللهم الا اذا انكرنا الحياة الاولى (الموجودة الآن) . . فنحن نفقد جميع الأسس التى قد نبني عليها دعائم انكارنا للحياة الأخرى ، عندما نسلم بوجود الحياة الأولى !

خامسا - البحث النفسى :

لقد أثبت البحث النفسى ، الذى ذكرناه آنفا ، أن جميع أفكار الانسان - أو بعبارة أخرى : جميع خلايا مخه - تبقى بصفة دائمة

Origin of Species, p. 169.

(١)

وهذا الواقع يثبت بصراحة أن عقل الانسان ليس بجزء من جسمه، فان جميع خلايا وأنسجة الجسم تتغير تغيرا كاملا في بضعة أعوام ، ولكن سجل اللاشعور لا يقبل أى تغير أو مغالطة أو شبهة على رغم مرور مئات السنين . ولو كان هذا السجل الحافظ كائنا فى الجسم فلا أدري أين مكانه منه ؟ وفى أى جزء يكمن على وجه الخصوص ؟ ولو كان فى أحد أجزاء هذا الجسم ، فلماذا لا يزول عندما تزول هذه الاجزاء بعد سنوات عديدة ؟ **ما أعجب هذا السجل الذى تتحطم جميع لوحاته تلقائيا ، ولكنه لا يفنى ولا يزول ؟ !**

ان هذه البحوث الجديدة فى علم النفس تؤكد ، بصفة قاطعة، ان الوجود الانسانى لا تنحصر حقيقته فى ذلك الجسم المادى الذى يخضع دوما لعمليات التحطم والاحتكاك والفناء ، بل هو شىء آخر غير هذا كله ، وهو لا يفنى ، بل يبقى مستقلا ، ولا يزول .

ويعلم من هذا أيضا أن الحواجز وقوانين الزمن لا وظيفة لها الا فى عالمنا هذا ، ولو كان هناك عالم آخر ، يبدأ عند فناء جسمنا المادى، فهو يخلو تماما من هذه الحواجز والقوانين . ان كل ما نباشره من الأعمال والأفعال الشعورية يخرج فى نطاق هذه القوانين والحواجز ولو كانت هناك « حياة عقلية أخرى » — كما يعتقد فرويد — فمعناه أن هذه الحياة الجارية لن تفنى ابدا ، بل ستستأنف مسيرتها بعد الموت ، وسوف تكون على قيد الحياة ، فان هذا الموت لم يكن الا نتيجة من نتائج هذه الحواجز والقوانين الزمنية . أما وجودنا الحقيقى — وهو اللاشعور ، كما يقول فرويد — فهو حر مستقل عن هذه الحواجز والقوانين ، ولا يطرأ عليه الموت ، بل يأتى (الموت) على الجسد العنصرى المادى ، ويبقى — اللاشعور — وهو الانسان الحقيقى — كما هو . . ومثاله أن حادثا وقع قبل ربع قرن ، أو فكرا خطر ببالى قبل عشرين سنة ، وقد نسيت كليهما قاطبة ، ومع ذلك فانى أراهما فى أحلامى اليوم . وتفسير ذلك عند علماء

النفس هو أنهما كانا محفوظين في « اللاشعور » بأكمل صورهما
وجزئياتهما ، كأنما حدثا بالأمس !!

وقد نتساءل هنا : وأين هذا اللاشعور ؟ فلو كان منقوشا على
الخلايا — كالصوت مسجلا على الاسطوانات — فإن تلك الخلايا ،
التي سجلت ذلك الحادث قبل ربع قرن ، أو هذه الفكرة قبل عشرين
سنة ، قد تحطمت وزالت منذ سنين طويلة ، ولا علاقة لها ، في أى
صورة ، بجسدى الموجود الآن . فأين هذا الفكر من جسدى ؟ تلك
شهادة تجريبية تثبت — قطعيا — أن هناك عالما آخر خارج أجسامنا
المادية ، مستقلا بذاته ، ولا يفنى بفناء الجسم ، أو جزء من
اجزائه .

سادسا — البحوث الروحية :

أثبتت « البحوث الروحية » Psychical Researches الحياة بعد
الموت ، على المستوى التجريبى والعملى . أن الأمر الذى يدفعنا الى
إبداء مزيد من الإعجاب بهذه البحوث هو أنها لا تثبت « بقاء محض »
لروح ما ، بل أنها تثبت أيضا بقاء الشخصيات التى كنا نعرفها بذاتها
قبل أن تموت !!

ان هناك خصائص كثيرة يتمتع بها الانسان من قديم الأزمان ،
ولكننا لم نلق الضوء عليها الا حديثا . ومن هذه الخصائص :
« الرؤيا » ، التى تعد من أقدم مميزات الجنس البشرى . والحقائق
المثيرة التى كشفها علماء النفس عن هذه الميزة لم يكن قدماءنا على
علم بها .

وهناك مظاهر أخرى درسناها أخيرا ، وأجرينا بحوثا واحصاءات
في مختلف أنحاء العالم حولها وجاءت البحوث بنتائج غاية في
الأهمية .

ومن هذه البحوث ما نسميه « بالبحوث الروحية » . . . وهى فرع من علم النفس الحديث ، وهدفها محاولة الكشف عن المميزات الانسانية غير العادية ، وقد أقيم أول معهد لاجراء هذا النمط من البحوث عام ١٨٨٢ م فى انجلترا . وبدأ علماء المعهد عملهم سنة ١٨٨٩ م ، بعد أن قاموا بمسح واسع النطاق على ١٧ ألفا من المواطنين ، ولا يزال هذا المعهد موجودا باسم « جمعية البحوث الروحية » . وقد انتشرت الان معاهد كثيرة فى مختلف بلدان العالم . واثبتت هذه المعاهد ، بعد بحوثها وتجاربها الواسعة النطاق ، أن الشخصية الانسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادى ، فى صورة غريبة .

كان وكيل متنقل لشركة أمريكية يسجل طلبات عملائه . جالسا فى حجرته فى فندق سانت جوزيف ، بولاية ميسورى ، فاذا به يشعر أن أحدا يجلس عن يمينه . ويقول الرجل : « فحولت وجهى بسرعة فوجدت أنها أختى ! » .

وكانت أخته هذه قد ماتت منذ تسع سنين . . . وبعد برهة اختفى وجه أخته . وكان الوكيل قد أفزعه هذا الحادث ، لدرجة أنه بدلا من أن يستأنف جولته ، قرر مغادرة (ميسورى) الى بيته فى بلدة (سانت لويس) . وفى البيت ذهب يقص على أقربائه الحادث بالتفصيل كما رآه ، وعندما وصل أثناء كلامه الى هذه الجملة : « وشاهدت على خدها الايمن جرحا واضحا أحمر اللون » . . . فاذا بأمه تصرخ وتقوم مرتعدة ، وهى تقول : « اننى أنا السبب فى ذلك الجرح الذى رأيته ، وقد حدث ذلك عن غير قصد منى ، وقد ندمت لذلك الحادث وآلمنى المنظر ، فأزلت كل آثار الجرح ، ووضعت فى مكانه شيئا من البودرة ! » وأضافت الأم قائلة :

« ومنذ ذلك اليوم لم أفض بهذا السر الى أحد أبدا » (١) .

ان هذه الوقائع وأمثالها لا تختص بأمريكا وأوروبا، وإنما تحدث بكثرة في كل منطقة من العالم . ولكن حيث أن أكثر البحوث العلمية الحديثة قد أجريت في تلك المنطقة من العالم ، فلا بد لنا أن نأتى بالشهادات التجريبية من تلك المناطق أيضا . ولو كان عند بعض علمائنا شيء من الطموح والثقة بالنفس ، وبدأوا هذا العمل في مناطقهم ، فمن الممكن أن نجمع شهادات لا حصر لها في بلادنا الآسيوية والأفريقية . وأنا شخصا على علم بكثير من وقائع مماثلة تدعم هذه النظرية بصفة مدهشة ، ولكننا بكل أسف تعوزنا الهمم للقيام بمثل هذه البحوث العلمية ، وما يلزمها من قدرة على الانقباض ، وبذل الوقت المطلوب .

ان هناك وقائع لا تحصى من هذا القبيل ، وهى تؤكد وجود « شخصيات معروفة » بعد موتها . ولا سبيل أمامنا لاعتبار هذه الوقائع والحقائق : « أوهاما وخيالات » ، كما اعتاد بعض الناس القول ببساطة في مثل هذه المسائل ، فان سر الجرح على خد الفتاة الايمن - وقد مانت منذ حقبة من الزمن - لم يكن أحد يعرفه غير الفتاة وأمها . .

وهناك وقائع أخرى تؤكد بقاء الحياة بعد الموت ، وهى وقائع تتعلق بأولئك الذين نسميهم : « بالمتحركين آليا » Automatism (٢) . ويطلق هذا الاسم على الذين تصدر عنهم أفعال رغم إرادتهم الذاتية وهذه الوقائع تدل على أن أرواحا - لأشخاص قد ماتوا - تسكن في أجسام هؤلاء الأحياء . ويكشف هؤلاء الناس أثناء أعمالهم عن جزئيات لا يعرفها إلا الموتى، أصحاب الأرواح . . ثم يظهر بعد شهور وسنين أن تلك الجزئيات كانت حقائق واقعية . .

Human Personality and its Survival of Bodily Death. (١)
FWH Myers, N.Y., 1903, Vol. II, pp. 27 - 30.

(٢) ربما كان من بين هؤلاء من نصفهم بلغتنا الدارجة بأنهم : (ركبهم الجن) فهم مسلوبو الإرادة ، يتكلمون بلسان غيرهم من العفاريت . (المراجع) .

وهناك أيضا رجال يتكلمون ويكتبون في آن واحد ، ولا يكون للمكتوب أية علاقة بالقول ، كما أن الكاتب لا يعلم بنفسه ماذا كتب ، الا بعد الاطلاع على ما كتبه ، « وهذا الواقع يثبت أن روحا - غير روحه الشخصية - تسكن في جسده ، وهى التى تجعله يكتب » (١) .

ان كثيرين من علمائنا المحدثين يرتابون في قبول هذا الاستدلال كما يقول « براد » .

« ان أى فرع من فروع العلوم الحديثة لا يؤكد إمكان الحياة بعد الموت ، اللهم الا ذلك الاستثناء المشتبه فيه من البحوث الروحية » (٢) .

بيد أن الاستدلال يشبه عندى أن أقول : « أن « التفكير » استثناء مشتبه في أمره ، لأن أحدا من ملايين الحيوانات على سطح الأرض لم يصدق هذه الظاهرة غير الانسان !! » .

ان بقاء الحياة وفناءها يتعلق بعلم النفس ، لكونه مسألة نفسية بحثة . فلا تصلح دراسته الا في علم النفس ، أما أن نبحث عنه في أقسام أخرى من العلوم فهو بمثابة أن نطالب **علمي** (النبات) و (الفلزات) باثبات ظاهرة التفكير . ولا نستطيع - أيضا - أن نجعل دراستنا داخل الجسم الانسانى **حكما** في هذه المسألة الخطيرة وسببه ان الجزء الذى ندعى بقاءه واستمراره في الحياة - وهو الروح - لا يوجد في هذا الجزء المادى ، بل في جسم آخر سواه .

وهذا هو الأمر الذى دفع الكثيرين من علمائنا الى الاعتراف بأن « الحياة بعد الموت » واقع حقيقى ، بعد أن قاموا بأبحاث علمية

A Philosophical Scrutiny of Religion, pp. 407 - 10. (١)

Religion, Philosophy & Physical Researches, (٢)
London, 1953, p. 235.

طويلة غير منحازة . وقد ألقى « البروفيسور دو كاس » ، وهو أستاذ الفلسفة بجامعة براون ، ضوءاً على الجوانب النفسية والفلسفية من مسألة الحياة بعد الموت ، في الباب السابع عشر من كتابه . والدكتور دو كاس لا يؤمن بالحياة بعد الموت كعقيدة دينية ، وإنما وجد - أثناء بحوثه - شواهد كثيرة ، اضطر - على أثرها - أن يؤمن بالحياة الآخرة ، مجردة عن قضايا الدين . وهو يكتب في آخر الباب السابع عشر من كتابه قائلاً :

« لقد قام رهط من أذكى علمائنا وأكثرهم خبرة بمطالعة الشهادات المتعلقة بالمسألة ، وفحصوها بنظرة نقد ثابتة ، وقد توصلوا آخر الأمر إلى أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة « بقاء الروح » نظرية معقولة ، وممكنة الحدوث . . وهم يرون أنه لا يمكن تفسير تلك الشواهد إلا على هذا النحو . ومن هؤلاء الكبار الذين قاموا بهذه البحوث نستطيع أن نذكر : الاساتذة الفريد راسل واليس ، والسير وليام كروكس ، وف . و . ه . مايرز ، وسيزار لومبرازو ، وكميل فلاماريون ، والسير أوليفر لوج ، والدكتور ريتشارد هوجسن ، والمستر هنرى سيدويك ، والبروفيسور هيسلوب » - ويستطرد الدكتور دو كاس قائلاً :

« ويتضح من هذا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت - التي يؤمن بها الكثيرون منا كعقيدة دينية - ليس من الممكن أن تكون واقعة فحسب ، وإنما لعلها هي الوحيدة ، من عقائد الدين الكثيرة ، التي يمكن إثباتها بالدليل التجريبي . ولو صح هذا فمن الممكن أيضاً أن نجد معلومات قطعية في هذا الموضوع ، بغض النظر عن الأفكار التي افترأها رجال الدين عن نوعية الحياة بعد الموت ، ولن نحتاج حينئذ إلى الإيمان بالوجهة الدينية من هذه النظرية (١) .

ويكاد الدكتور دوكاس - بعد الوصول الى هذا الحد من وضوح قضية الحياة بعد الموت ، ثم الجحود بوجهتها الدينية - أن يكون مثله مثل الفلاح الذي يصر على أنه لا سبيل الى الحديث بينه وبين احد اقربائه، الذي يسكن في بلدة نائية .. فاذا وصلت خط التليفون مع قريبه هذا في البلدة النائية ، وأعطيته السماعة .. اذا به يقول لك ، بعد فراغه من الكلام : « ليس من الضروري أنه كان صوت قريبى ، فمن الممكن أنه كان يخرج من احدى الماكينات ! » .

الباب السادس

اثبات الرسالة

من العقائد الهامة في الدين ، بعد الايمان بالله ، عقيدة الايمان بالرسالة ، أو الوحي والالهام . ومعناها : ان الله تعالى ينزل كلامه على انسان يختاره من بين الناس ، ليخبر الناس بما يرضى الله تعالى .

وحين عجزنا عن رؤية أى خط اتصال ساخن ، بين الله سبحانه وبين الرسول ، انكرناه . ولكننا اليوم نستطيع ان نفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل الحقائق المعلومة .

ان هناك وقائع كثيرة جدا تجرى من حولنا في كل لحظة ، ونحن نعجز عن ادراكها ، أو سماعها ، أو الاحساس بها بوساطة أجهزتنا العصبية ، وقد استطاع العلم الحديث ان ييسر لنا ادراكها بفضل الأجهزة العلمية التي اخترعناها . وهذه الأجهزة تستطيع ان تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال ، وكأنه يطير عند أذنك !

ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه الى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء ! !

لقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع ادراك كثير جدا من الأحداث التي لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية .

وهذه الطاقة غير العادية للسمع لاتخص الآلات العلمية الحديثة وانما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضا . ومما لا شك فيه أن جهاز سماع الانسان محدود جدا ، ولكن أجهزة بعض الحيوانات تختلف

كل الاختلاف ، فالكلب مثلا ، يستطيع ان يشم ريح الحيوان الذى مر من الطريق ، ومن ثم استغلت الكلاب فى البحث عن الجسرايم والمجرمين . . فالقفل الذى كسره اللص يشمه الكلب المدرب ، ثم ينطلق مقتفيا أثر الرائحة المعينة التى وجدها عند القفل المكسور، وفجأة نراه يمسك باللص من بين الألوف .

وهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتا تخرج عن نطاق أسماعنا ، ولقد أثبتت البحوث فى هذا الميدان أن بعض الحيوانات تتمتع بقوة « الاشراق » Telepathy . فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (Moth) ، أو (العثة) وهى حشرة مجنحة - على نافذة مفتوحة فستحدث صوتا يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جدا ، ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضا بطريقته .

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى « الجندب » ، يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريقة غير عادية ، ويسمع على مبععدة نصف ميل ، وهو يحرك فى هذه العملية ستمائة طن من الهواء ، ليدعو زوجته ، وهذه الزوج ترسل أيضا وهى ساكنة بلا حراك جوابا لا نعرفه ، وانما يعرفه الجندب الذكر ، ثم يلحق بها أينما كانت .

وقد أثبتت البحوث أيضا أن « أبو النطيط » العادى Grasshoper لديه قدرة خارقة على السماع ، حتى أنه يستطيع ان يسمع ويحس الحركة التى تحدث فى نصف قطر من ذرة الهيدروجين !

وهناك أمثلة أخرى كثيرة تؤكد امكان وجود وسائل غير مرئية لدى ذوى الحواس الخاصة ، واذا كان الأمر كذلك ، فما وجه الغرابة فى ادعاء انسان أنه يسمع صوتا من لدن ربه ، ولا يدركه عامة الناس (؟) ما دام من الممكن أن توجد فى هذا العالم حركات وأصوات لا تسمعها آذان الانسان ، ولكن تسجلها الآلات؟ وما دامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى ؟

ما هو جانب التعجب والاستبعاد ؟

ان الله تعالى - لحكمة يعلمها - يرسل رسائله بوسائل خافتة خفية الى الانسان المختار للرسالة ، بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها . فليس هناك من تصادم في الحقيقة، بين مشاهدتنا وتجاربنا العلمية ، فهو واقع من الوقائع الكثيرة التي نشاهدها ونجربها في أمكنة وطرق مختلفة ، فالوحي امكان وجدناه في شكل الواقع بعد التجربة .

وقد تبين أن تجارب الاشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات ، وانما توجد في الانسان « بالقوة » ، يقول الدكتور اليكسيس كاريل (١) : « ان حدود الفرد في اطار الزمان والمكان هي مجرد افتراض » (٢) . فيستطيع عامل الاشراق أن يجعلك تنام ، وتضحك ، أو تبكي ، كما يستطيع ان ينقل اليك كلمات أو خواطر ، لست على علم بها . أنها عملية لا تستعمل فيها أية وسائل ولا يشعر بها غير عامل الاشراق وصاحبه .

كيف يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربّه ؟ اننا بعد الايمان بالله ، والاطلاع على هذه التجارب الكثيرة بما في ذلك الاشراق ، لا نجد أساسا لانكار الوحي والالهام .

وقد حدث سنة ١٩٥٠ ان المسؤولين في « بافاريا » رفعوا قضية ضد أحد النمساويين ، واسمه (فرنتر ستروبييل) ، بتهمة التدخل في برامج الاذاعة عن طريق الاشراق .

وكان فرنتر ستروبييل يستعرض أعماله في فندق ريجنا ، بميونخ ، عندما ناول أوراق لعب الكوتشينة الى أحد المتفرجين ، وطلب اليه اختيار ورقة ما ، وادعى أنه سوف ينقل اسم تلك الورقة

Man the Unknown, p. 244.

(١)

(٢) أي لا نهاية لهذه الحدود من حيث الامكان . (العرب) .

واسم الفندق مع ترتيبهما ، كما هما في ذهن المتفرج ، الى المذيع الذى كان يقرأ الاخبار من اذاعة ميونيخ المحلية ، ذلك دون أن يعرف المذيع نفسه شيئاً من هذا !!

بعد ثوان سمع الناس صوت مذيع مرتعش ، وهو يقول :
« فندق ريجنا - بنت البستونى » وكان الترتيب واسم الورقة صحيحين ، كما أراد المتفرج .

وكان الارتعاش والرهبة واضحين فى صوت المذيع ، ولكنه واصل قراءة الاخبار . استغرب الكثيرون من المستمعين من سكان ميونيخ ، واتصل مئات منهم تليفونيا بالاذاعة يستفسرون عن السر الغامض . . فكان من الصعب عليهم ادراك علاقة الاخبار « بفندق ريجنا - بنت البستونى » : وحضر طبيب الاذاعة للكشف على المذيع فوجده فى حالة اضطراب خطيرة ، وأدلى المذيع ببيانه قائلاً : « اننى شعرت بصداع شديد فى رأسى ، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك ! » .

وقد عرض العلماء نظريات عديدة لشرح هذه الصور من عملية الاشراف ، ومنها أن أمواجاً تصدر من المخ وتنتشر فى العالم أجمع بسرعة فائقة . ولذلك سموها بنظرية الموجة المخية (١)
Brain Wave Theory

ونحن نقول : أنه لما كان الانسان يستطيع تحويل الأفكار بأكملها الى انسان آخر ، على بعد غير عادى ، وبدون استعمال أى واسطة مادية ظاهرة ، فلماذا تستحيل نفس العملية بين الاله وعباده ؟ ان هذا المظهر من كفاءة قوى الانسان - وأمثلته كثيرة لا تحصى - ليس الا قريبة تجريبية تجعلنا نفهم علاقة الالفاظ والمعانى التى تربط العبد بالاله عندما يرسل رسالاته .

ان الاشراف أمر معروف لدى الناس ، وهو يدلنا على فهم ذلك النظام الاشرافى العظيم بين الاله والعباد ، والذي يكون فى اكمل

Religion, Philosophy and Physical Research. (1)
C.D. Broad, pp. 47 - 48, Man the Unknown, pp. 244 - 49.

صوره حين يبلغ درجة « الوحي » ، وهذا الوحي لا يعدو أن يكون « اشراقا كونيا » ، من نوع الاشراقات التي عهدناها في حياتنا على مستويات محدودة .

أولا - ضرورة الرسالة :

وينبغي - بعد وضوح امكان الوحي والالهام - أن نبحث عما اذا كان « ضروريا » أن يخاطب الله انسانا ، ليبلغ كلامه الى الناس ؟

أن أكبر دليل على هذه الضرورة هو أن الأمر الذي يخبرنا عنه الرسول من أهم الأمور التي تتعلق بحياة الانسان ومصيره ، والانسان لا يستطيع ان يصل الى تلك الحقائق بجهوده الشخصية ، انه يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون كي يفهم أسرار بدء الحياة ونهايتها وحقائق الشر والخير ، وكيفية صوغ الانسان من أجل الانسانية ، وتنظيم أجهزة الحياة حتى تستطيع هذه الجهود الانسانية ان تسير **قدما** في طريق الخير والرفاهية . . ولم تكلل هذه الجهود بالنجاح الى يوم الناس هذا . فقد كشفنا عن أسرار الحديد والبتروول ، وتعرفنا على حقائق الطبيعة بعد جهد قصير ، ولكننا عاجزون عن كشف « علم الانسان » ، رغم أن جهود أعظم عقولنا العبقريّة تواصل البحث عن هذا العلم ، ولم تستطع ، حتى الآن ، تحديد مبادئه وأسسّه . أن هذا هو أكبر دليل على أن الانسان يحتاج الى هدى الله من أجل أن يعرف نفسه !

ومن المسلم عند الانسان الجديد أنه لم يفلح بعد في كشف لفر الحياة ، ولكنه على كل حال يأمل في أن يساعده القدر يوما لرفع القناع عن هذا السر المعقد ، ولا ريب أن عجز مجتمع العلم والصناعة عن اشباع الحاجات النفسية للانسان يؤكد الفكرة التي تقول : « اننا اعطينا أهمية غير عادية للعلوم المادية ، على حين تركنا العلوم الانسانية في مراحلها البدائية » ، أما الذين دفع بهم طموحهم الجارف الى العمل في هذا المجال ، مجال (العلوم الانسانية) فهم كذلك لم

يستطيعوا كشف شيء ما ، بل لجوا في ضلالهم يعمهون ، يقول الدكتور الكسيس كاريل (الحائز على جائزة نوبل للعلوم) .

« ان مبادئ الثورة الفرنسية ، وأفكار ماركس ، ولينين ، لا تنطبق الا على الانسان العقلي المثالي . ومن الواجب أن نشعر بصراحة تامة بأن قوانين العلاقات الانسانية لم تكشف بعد . أما الاجتماع والاقتصاد وما أشبههما ، فهي علوم افتراضية محضة ، بدون أدلة يمكن اثباتها » (١) .

ولا شك أن علومنا الجديدة قد فتحت مجالات أمام الانسان، ولكنها في نفس الوقت جعلت المسألة أكثر تعقيدا ، ولم تساعد في حل الأزمة في أية مرحلة .

ويقول الاستاذ ج.و.ن. سوليفان :

« أن الكون الذي كشفه العلم الحديث هو أكثر غموضا وإبهاما من التاريخ الفكري بأكمله ، ولا شك في أن علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة من أى عصر مضى ، ولكن هذه المعلومات كلها غير مقنعة ، فنحن نواجه اليوم الابهام والمتناقضات في كل ناحية » (٢) .
هذه الكارثة المؤسفة التي نقف أمامها ، بعد بحث طويل في العلوم المادية عن سر الحياة ، تدلنا على أن ادراك سر الحياة لن يتاح للإنسان (٣) .

أن أحوالنا تحتم علينا معرفة سر الحياة ، اذ أننا لا نستطيع مواصلة الحياة في أكمل صورها دون معرفته ، ولذلك كان خير ما نتمنى بقلوبنا أن ندركه ، ولا يرضى اسمى جزء من شخصيتنا ،

Man the Unknown, p. 37.

(١)

Limitations of Science, p. 1.

(٢)

(٣) أنظر للتفصيل كتاب الدكتور كيريل ، ص ١٦ - ١٩ .

وهو العقل ، أن يطمئن بدونه . فحياتنا مبعثرة لفقداننا هذه الحقيقة
سر الحياة هو ضرورتنا الكبرى ، هذا من ناحية ، ولكننا ، من
ناحية أخرى ، لا نستطيع أن نظفر به بجهودنا وحدها .

هذه الحالة وحدها تكفى لنتبين حاجتنا الشديدة الى «الوحي»
فأهمية سر الحياة ، ثم خروج هذا السر عن دائرة قوى الانسان ،
يدل على أنه لابد أن تأتي المعرفة من الخارج أيضا ، كالضوء
والحرارة اللذين تتوقف عليهما حياة الانسان ، ولكنهما هيثا من
الخارج (١) .

ان مهمتنا ، بعد التسليم بإمكان الوحي وضرورته ، هي أن
نبحث عن الانسان الذي يدعى أنه نبي . . هل هو صاحب الوحي
في الحقيقة ؟ . . لقد نصت العقيدة الدينية على مجيء عدد كبير من
الأنبياء ، ولكننا سوف نبحث في هذا الباب عن نبوة رسول الاسلام:
سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، فان نبوة سائر
الأنبياء من قبله تثبت تلقائيا لو ثبتت نبوته ، لكونه آخر الأنبياء ،
ولأنه يصدقهم ولا ينكرهم ، ولأن نجات البشرية ، أو هلاكها في معركة
الحياة رهن بايمانها بهذا النبي ، أو تكذيبها إياه .

لقد ولد الطفل بمكة صبيحة يوم ٢٩ أغسطس من عام ٥٧٠ م،
وعندما بلغ الأربعين من عمره ، أعلن ان الله تعالى أرسله خاتما
للنبيين ، وكلفه بإبلاغ رسالته الى جميع فئات الجنس البشري ،
وأن من أتبعه نجا في الحياة الآخرة ، ومن كذبه فهو في خسران
مبين .

أن أصدااء هذا الصوت تمر فوق رؤوسنا اليوم بأشد قوتها ،
وهو ليس بصوت عادي تتجاهله الأذان . . فهو أكبر نداء في تاريخنا
يدعونا الى تفكير دقيق ، وعلينا أن ندرسه بدقة ، فاما قبلناه وهو
صادق ، وأما رفضناه لو وجدناه كاذبا . . وهيئات .

(١) سوف نبحث هذه المسألة بتوضيح أكثر في الفصول القادمة .

ثانيا - مقياس الرسالة :

كل فكر يمر بثلاث مراحل ، حتى يصبح حقيقة علمية :

المرحلة الأولى : الفرض Hypothesis

المرحلة الثانية : الملاحظة Observation

المرحلة الثالثة : التحقق Verification

والمرحلة الأولى من الحقائق هي أن نفترضها ، ثم نشاهدها وندرسها ، لتبين صدقها أو كذبها ، فإن وجدناها صحيحة في ضوء الدراسة ، قبلناها ، لتصبح حقيقة علمية ، وقد ينقلب هذا الوضع فائنا في بعض الأحيان نشاهد أشياء نتوصل بها الى نظرية ، ثم نبدا البحث في ضوءها .

وبناء على هذا الأساس فان دعوى النبوة (فرض) . وعلينا ان نفتش عما اذا كانت (الملاحظات) تؤيد هذا الفرض ؟ فاذا أيدته المشاهدات أصبح (حقيقة) مصدقة ، يلزمنا قبولها . .

ولكن ما الملاحظات التي نحتاج اليها لاختبار هذا الفرض ؟ وما المظاهر الخارجية التي تؤيد كون محمد (صلى الله عليه وسلم) نبيا حقا ؟

وما الخصائص والميزات التي اجتمعت في الرسول ، ولا نجد لها تفسيراً الا اذا قلنا : أنه كان نبيا !

في رأيي أنه لا بد من مقياسين لاختبار الانبياء :

أولا : أن يكون رجلا مثاليا بصورة غير عادية ، فان الذي يصطفى ليكون كليم الله ، وليكشف للانسان برنامج الحياة وسرها ، لابد أن يكون اسماً شخصية في النوع الانساني ، كما لا بد أن يكون حاملا مثل الحياة العليا . فاذا كانت حياته الذاتية متصفة بهذه الصفات فهي اكبر دليل على ما يقول ، اذ لو كانت دعواه باطلة لما

كان ممكنا أن تتجلى هذه الحقيقة الكبرى في حياته الذاتية ، حتى
تسمو به فوق سائر الانسانية ، خلقا وشمائل .

ثانيا : أن يكون كلامه ورسالته مملوئين بجوانب يستحيل
حصولها للانسان العادي ، ولا تؤمل الا ممن ظفر بمعرفة رب الكون،
بحيث لا يمكن للعبادة محاكاة ما جاء به النبي من وحي الله .
اننا سوف نبحث عن الرسول في ضوء هذين المقياسين .

لقد شهد التاريخ بكل قطعية ان محمدا صلى الله عليه وسلم
كان يتمتع بسيرة غير عادية، ومن الممكن للمتعصبين انكار أية حقيقة
مهما كانت واضحة ، كما أن من الممكن للمنكرين ادعاء أى شىء في
سبيل الاستغلال ، اذا كانوا غير راضين بالنتيجة ، مهما كانت
صادقة وبدهية ! وحسبنا أن نذكر على ذلك موقفا من حياتنا
الحديثة ! فقد شاهدنا منذ سنين قليلة مثالا ساخرا لهذا المبدأ ،
عندما هاجمت الصين الشعبية حدود الهند الدولية ، وأخذت
الصين ازاء احتجاج الهند تتهم الهند نفسها بالعدوان !!

وفي الخطاب الذى أرسله رئيس وزراء الصين الى الهند، والذى
اذيع نصه بدلهى في يناير عام ١٩٦٠ ، ادعت الصين ان لها حقا في
أرض هندية تبلغ مساحتها ٢٢٠.٠٠٠ كم مربعا !! ويقول رئيس
وزراء الصين : ان القوات الصينية لم تتقدم الا لتدفع بالقوات
الهندية المحتلة الى الوراء !!

ليس هذا منطق التعصب والاستغلال !!

أما الذى لا يشكو من داء التعصب ، ويهين عقله لمطالعة الحقائق
بقلب مفتوح واع ، فإنه سيسلم بعد دراسته بأن حياة محمد صلى
الله عليه وسلم كانت أرقى ، وأجلى حياة شهداها البشر .

لقد أخبر محمد بن عبد الله بالنبوة، وهو في الأربعين من عمره،
وكان قد اشتهر قبل هذا بدور اخلاقي ممتاز ، حتى لقبه الناس

« بالصادق الأمين » ، وكانت قريش قد أجمعت على أنه يستحيل أن يكذب ، أو يخون الأمانة .

ومن الأحداث التي جرت قبل اعلانه النبوة بخمس سنين أن أهل مكة أرادوا بناء الكعبة من جديد ، وكانت قريش هي صاحبة الأمر ، فاختلفت فيمن سيضع الحجر الأسود في مكانه ، واستمر الخلاف أربعة أيام أو خمسة ، وأوشكت السيوف أن تبرز ، وكاد القوم أن يتناحروا ، ثم اتفقوا على أن يكون الفيصل في هذه القضية أول من يدخل البيت الحرام صباح غد ، وفي اليوم التالي شاهدوا أن الإنسان الأول الذي دخل البيت كان محمدا ، فنادوه قائلين : « هذا الأمين ، رضينا » (١) .

إننا لا نعرف شخصية في التاريخ الإنساني تمتعت بهذا الاجلال والتكريم والتقدير ، وبهذه السيرة غير العادية ، ثم أصبحت موضع نزاع بعد مضي أربعين سنة من عمرها .

وعندما نزل عليه الوحي لأول مرة ، وهو في غار حراء ، اعتبره حادثا غريبا لم يعهده من قبل ، فرجع الى بيته يرجف فؤاده ، وقص كل ما حدث على زوجته : خديجة التي كانت أكبر منه سنا ، فقالت : « يا أبا القاسم والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » .

وكان أبو طالب عم النبي ، قد أبى أن يؤمن ، ولكنه حين علم أن ابنه « عليا » أسلم ، قال له : أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه ؟ فقال : يا أبت : آمنت بالله ، وبرسول الله ، صليت معه واتبعته ، فقال أبو طالب : أما أنه لم يدعك الا الى الخير فالزمه » (٢) .

(١) صحيح البخارى باب ما ذكر في الحجر الاسود .

(٢) Ideal Prophet, p. ٥٨. ، وانظر سيرة ابن هشام ٢٦٤\١ .

وعندما جمع الناس لأول مرة بعد النبوة في رحاب «جبل الصفا» سألهم : « يا بطون قريش ! أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم ، اكنتم مصدقي ؟ » فعلت الأصوات من كل الحناجر ، وهي تقول : « نعم ، ما جربنا عليك كذبا ! » .

ان هذا السجل التاريخي الممتاز لحياة الرسول قبل اعلان النبوة ، ليس له مثيل في العالم ، ولم يسبق أن أحرز مثله أى شاعر أو فيلسوف ، أو مفكر ، أو كاتب !!

وعندما أعلن محمد (صلى الله عليه وسلم) النبوة ، لم يكن صدقه موضع شك ، أو بحث مطلقا لدى أهل مكة ، فانهم كانوا على علم تام بحياته الكاملة ، ولذلك لم يرمه أحد بتهمة الكذب أو الاحتيال ، بل ذهبوا يدعون انه قد فقد وعيه ، أو أنه شاعر أو ساحر ، أو أن الجن استولت على أعصابه ، وما الى ذلك من الدعاوى التى تحفل بذكرها الكتب التاريخية ، ولكن هذه الكتب لا تشير الى أية محاولة جرؤ صاحبها على النيل من أمانته وصدقه . بل يسجل التاريخ أنه : « ليس بمكة أحد عنده شئ يخشى عليه الا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته » (١) .

وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة ، صمم بعض شبان قريش على قتله ، وحاصروا بيته لاغتياله ، وفي تلك الساعة الخطرة الحرجة قرر الهجرة الى يثرب ، ولكنه أوصى ابن عمه (عليا) أن يرد جميع الأمانات الى أصحابها في الصباح ! .

وهذا النضر بن الحارث ، وقد كان أكبر المعارضين للنبي ، وكان يعد من الخبراء المحنكين بمكة - وقف يوما ، فألقى خطبة في جمع من قريش ، وقال :

« يا معشر قريش ، انه والله قد نزل بكم أمر ما اتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ، ص ٦٨ .

حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ، ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم : كاهن ، لا والله ، ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم وقلتم شاعر لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر ، وسمعنا اصنافه كلها ، هزجه ورجزه . وقلتم : مجنون ، لا والله ، ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه . يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فانه ، والله ، لقد نزل بكم امر عظيم » .

« وكان هذا النضر من شياطين قريش : وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة » (١) .

وكان أبو لهب عم النبي من ألد أعدائه ، وقال له ذات مرة : « يا محمد ، اننى لا أقول : انك كاذب ، ولكن الامر الذى تقسوم بتبليغه باطل » (٢) .

ان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت عامة لسائر أهل الأرض ، غير مقصورة على الجزيرة العربية ، ولذلك أرسل كتابات ملوك البلاد القريبة ، وقد تلقى أمبراطور الروم « هرقل » كتاباً من الرسول ، يدعو به الى اعتناق الدين الجديد ، فأمر رجاله باحضار رجل من قوم الرسول في ديوانه (٣) . وكان بعض التجار من قريش يقومون برحلة تجارية في بلاد الشام ، فجاء بهم الى ديوان القيصر ، وسألهم هرقل عن من كان أقربهم نسباً بالرسول ، فأجاب أبو سفيان : « أنا أقربهم نسباً » . ثم جرى حديث تاريخي هام بين هرقل وأبي سفيان ، تقتبس هنا منه شيئاً :

(١) المرجع السابق ٣١٩/١ .

(٢) الترمذى .

(٣) كان قيصر الروم هرقل حينئذ في بيت المقدس يشكر الله لغلبته على

الفرس ، وقد تلقى هذا الكتاب هناك .

« هرقل : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : هل يفدر ؟

أبو سفيان : لا ، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

فقال هرقل : قد أعرف أنه لم يكن لينذر الكذب على الناس ،
ويكذب على الله .

وعندما دار هذا الحديث لم يكن أبو سفيان قد آمن بالرسول
بعد ، بل كان من خصومه ، الذين ألجأوا عليه العرب ، وشنوا ضده
الحروب ، وقال ، وهو يروى هذا الحادث : « والله لولا الحياء من
أن يأتروا على كذبا لكذبت عنه (١) .

ان التاريخ على طوله لم يشهد رجلا أدلى خصومه بآراء مثالية
عن سيرته وحياته مثلما أدلى به خصوم رسول الاسلام .
ان هذا الواقع هو الآخر دليل في حد ذاته على حقيقة دعوة النبي
العربي . وسوف انقل هنا ما قاله الدكتور ليتز عن الرسول :

« اننى لأجرؤ بكل أدب أن أقول : ان الله هو مصدر ينابيع
الخير والبركات كلها ، لو كان يوحى الى عباده فدين محمد هو دين
الوحى ، ولو كانت آيات الاشار ، والامانة ، والاعتقاد الراسخ القوى
ووسائل التمييز بين الخير والشر ، ودفع الباطل هي الشاهد على
الالهام ، فرسالة محمد هي هذا الالهام » (٢) .

لقد عانى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، من صنوف الاذى ،
وضروب العنت والاضطهاد عندما بدأ دعوته ، وحاربه قومه أشد

(١) صحيح البخارى : كيف كان بدء الوحى .

Life of Mohammad, by Abul Fadl.

(٢)

الحرب وأقساها، فوضعوا في طريق مروره الاشواك ، وصبوا، على جسمه الطاهر أكواما من النجاسة .. بل ووجدناه ذات مرة بينما كان يؤدي صلاته ، واذا (عتبة بن أبي معيط) يلبه بردائه بشدة حتى وقع النبي على الأرض ..

ولكن هذه الاستفزازات لم تؤثر في مهمة النبي ، فاتبعوا معه أسلوبا آخر ، وذلك حين قاطعوه هو وعشيرته من بنى هاشم ، وأجبروهم على أن يعتزلوا الناس ، فلجأوا الى شعب بنى هاشم ، ومنعوا عنهم الطعام ، وحرموا التعامل معهم ، ومضى على هذه المقاطعة والحصار التاريخي ثلاث سنين ، وهم يأكلون أوراق شجر (الطلح) الجبلية المرة، لسد حاجة البطن الى الطعام. ويروي أحد الصحابة في هذا الحصار أنه حصل مرة على قطعة جافة من الجلد، ففسله بالماء ووضعها على النار ، ثم بلله بالماء ثانية وأكله .

وبعد الخروج من هذا الحصار ذهب النبي صلى الله عليه وسلم الى أهل الطائف ، وكانت تبعد أربعين ميلا عن مكة ، وكان يقطنها الأعيان والأثرياء من ثقيف ، واستخدم هؤلاء لغة بالغة السوء مع الرسول . وذهب أحدهم يقول متحديا : « هو يمرط (يمزق) ثياب الكعبة ، وان كان الله أرسلك » ، وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك . وقال الثالث : « والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله ، كما تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن ارد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك » .

ولم يكتف هؤلاء بهذا الاستهزاء ، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس يرمونه بالأحجار ، الى ان سقط على صخرة مشخنا بالجراح ، وحين جلس ليستريح من الجراح والعنت ، رموه حتى نهض مبتعدا عنهم ، وهم يتابعونه بالسب والايذاء والتصفيق .. ولم يزل هذا المشهد حتى أقبل المساء ، وأوى الرسول الى حائط لعتبة بن ربيعة ، فجلس في ظل

كرمة، وهو جريح ملطخ بالدماء، وهذا هو الواقع الذي كان الرسول يذكره للسيدة عائشة في قوله :

« لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة » (١) .

وعلى الرغم من هذا الأذى الشديد ، فقد ظل الرسول يدعو إلى الحق ، حتى اجتمعت قريش على أنه لا سبيل إلى التخلص منه إلا بالقتل . وبناء على مؤامرة دبروها ، أحاط عدد من رؤسائهم وشبيبتهم ببيت الرسول ، وفي أيديهم سيوفهم المسلولة ، استعدادا لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما يخرج من بيته لتأدية صلاة الصبح ، ولكنه باذن من الله ، خرج من البيت دون أن يصاب بأذى ، وهاجر إلى المدينة المنورة .

ثم أعلنت قريش قتالا منظما ضد النبي وأعوانه ، وجروه إلى الحرب ، وورطوه في هذه الحروب زهاء عشر سنين ، وقد سقطت في معاركها أسنانه الكريمة ، وكسرت رباعيته ، كما استشهد عدد كبير من صحابته ، وعانى مع أصحابه كل ماتعانيه الشعوب الضعيفة بعد اعلان الحرب عليها .

وهكذا دارت رحى التاريخ خلال ثلاثة وعشرين عاما من الكفاح وقبيل نهاية رسالته بعامين فتحت مكة ، ويومها وقف أمامه الد خصومه ، لا يجدون نصيرا ولا معينا . . فهم يعرفون كيف يعامل

(١) نص هذا الحديث : قالت عائشة : يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب . فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : ان الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال . . . الخ - المراجع .

المنتصر المغلوبين ، ولكن الذى لقبه ربه بأنه « رحمة للعالمين »
سألهم :

— « يا معشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » .

— فقالوا : « خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم » .

— فأعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء ! » .

ذلكم ، ولا شك ، أعظم مثل للرحمة والعفو ، وهو معجزة من معجزات التاريخ الانسانى ، ولو كان هذا الحدث من أحداث ما قبل التاريخ ، أو لم يكن مسلما به تاريخيا ، لكذبه المكذبون الذين فى قلوبهم زيغ ، وقالوا : انها أسطورة من أساطير التاريخ ، فلم يخلق انسان بهذه الشيم !

وما أصدق ما قاله البروفيسور بورسورث سميث :

« عندما ألقى نظرة اجمالية استعرض فيها صفاته وبطولاته ما كان منها فى بدء نبوته ، وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذى نفخ فيهم روح الحياة ، وكم من البطولات المعجزة أحدثوا — أجده أقدس الناس ، وأعلاهم مرتبة ، حتى ان الانسانية لم تعرف له مثيلا (١) .

ان المثل الأعلى الذى ضربه النبى فى حياته الكاملة ، من الاخلاق العالية ، والزهد فى الأموال والملذات ، شىء لا مثيل له فى التاريخ .

لقد كان تاجرا ناجحا فى مكة ، وكانت زوجته السيدة خديجة من أثرى نساء العرب ، ولكن كل تجارتها ، و ثراء زوجته ، ذهبها فى سبيل الدعوة ، ثم ابتلى ببلاء شديد ، حتى انه قال مرة :

Mohammad & Mohammadanism p. 340.

« لقد أخفت في الله ، وما يخاف أحد (أى مثل ما أخفت) ،
ولقد أوذيت في الله ، وما يؤذى أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين
ليلة ويوم ، ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد ، ألا شيء يواريه أبط
بلال » (١) .

وما عانى النبي كل هذا إلا لأجل دعوته ، لقد كان من الممكن أن
يعيش حياة أخرى ، تختلف كل الاختلاف عن الحياة البائسة التي
عاشها في سبيل رسالته ، ولقد عرضت عليه ، حين كان بمكة ،
عروض مغرية تكفل له العيش الرخى ، والمجد السننى ، فأوفد إليه
رؤساء قريش « عتبة بن ربيعة » ، الذى جاء ليقول له :

« يا ابن أخى ، أنك منا ، حيث قد علمت من السلطنة في العشيرة
والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به
جماعتهم ، فاسمع منى ، أعرض عليك أمورا ، تنظر فيها ، لعلك
تقبل منها بعضها . فقال له : قل يا أبا الوليد أسمع ، قال : يا ابن
أخى : إن كنت تريد ، بما جئت به من هذا الأمر ، مالا ، جمعنا
لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا ،
سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ،
ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتىك رؤيا تراه لا تستطيع رده عن
نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه
ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه » . حتى إذا فرغ
عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : لقد افرغت
يا أبا الوليد ؟ ، قال نعم ، قال :

فاستمع منى ، فقال : أفعل . . فقرأ عليه الآيات الأولى من
سورة (فصلت) فلما وصل الى قوله تعالى : « مثل صاعقة عاد
وئمود » أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم أن يكف » (٢) .

(١) الترمذى عن أنس رضى الله عنه .

(٢) سيرة ابن هشام ٣١٣\١ - ٣١٤ .

وفي المدينة المنورة، كان النبي صلى الله عليه وسلم رئيسا لدولة المسلمين ، وكان يتمتع بمساعدين مثاليين ، يبذلون حياتهم لأجله، ولم يعرف لهم نظراء على مدى التاريخ ، ولكن الوقائع التاريخية أثبتت أنه - حتى في آخر أيام حياته ، حين أظلت رايته الجزيرة العربية كلها - بقي رجلا عاديا ، غير ملتفت الى شهوات الدنيا ومغرياتها ، حتى لحق بالرفيق الأعلى .

وقد روى سيدنا عمر بن الخطاب أنه دخل حجرة النبي صلى الله عليه وسلم : « فاذا هو مضطجع على رمال حصير ، ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمل بجانبه ، متكئا على وسادة خشوها ليف . . قلت : يا رسول الله أدع الله ، فليوسع على أمتك ، فان فارس والروم قد وسع عليهم ، وهم لا يعبدون الله . فقال : أو في هذا أنت ، يا ابن الخطاب ؟ أولئك عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ، وفي رواية ، أما ترضى عن أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة » (١) .

ومما تحكى السيدة عائشة انه « كان يمر الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ثلاثة أهله في شهرين ، وما توقد في أبيات الرسول صلى الله عليه وسلم نار ، فسألها عروة بن الزبير : فما كانت معيشتكم ، يا خالة ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء . وقالت : وكان لنا جيران من الأنصار ، لهم ربائب يسقوننا من لبنها ، جزاهم الله خيرا » . وقد جاء في حديث آخر : انها ذكرت « أن آل محمد لم يشبعوا ثلاثة أيام متوالية من طعام بر ، حتى مضى النبي صلى الله عليه وسلم لسبيله » (٢) .

لقد عاش النبي هذه الحياة القاسية ، رغم كونه قادرا ، كل القدرة ، على أن يعيش حياة النعيم والترف . وعندما انتقل الى

(١) متفق عليه .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٠٠/١ وما بعدها .

رحمة الله لم يورث أهله شيئاً ، لا دراهم ولا دنائير ، ولا غنما ولا
إبلا ، حتى انه لم يكتب أية وصية . بل ان النبي العظيم ، الذي كان
على معرفة تامة بأن حدود دولته الإسلامية سوف تمتد عابرة أفريقية
وآسيا ، حتى تصل الى قلب أوروبا - قال : « نحن معاشر الأنبياء
لا نورث ، ما تركنا صدقة » .

ان هذه الوقائع التي أوردناها ، من الإيثار ، والاخلاص ،
وسمو الأخلاق ، ليست حوادث استثنائية في حياة الرسول ، وانما
هي حياته بأكملها ، بل هي بالحرى ، صورة مصفرة وموجزة عن
الوقائع التي كانت تحدث في حياته المثالية ، لقد ارتفع بالإنسانية
الى أسمة قمة تحلم بها ، حتى انه لو لم يوجد ، لاضطر المؤرخون
الى القول : بأنه لم يوجد انسان من هذا الطراز ، ولن يوجد في
التاريخ .

فليس غريباً ، مطلقاً ، ان يقال : انه كان نبي الله ، ولكن الغريب
ان ينكره أحد منا عناداً وغروراً .

ونحن عندما نسلم بدعواه يمكننا ان نفسر سر حياته المعجزة .
أما اذا أنكرنا نبوته ، فسنفقد أى أساس لتفسير منبع أوصافه
العجيبة ، التي لم نجسد لها مثيلاً في التاريخ . . وقد اعترف
البروفيسور « بوسورث سميث » بهذه الحقائق ، حتى انه ليدعو
البشرية كلها الى الايمان برسالة النبي :

« لقد ادعى محمد لنفسه في آخر حياته نفس ما ادعاه في بداية
رسالته ، واني لأجدني مدفوعاً الى الاعتقاد بأن كلا من الفلسفة
العليا والمسيحية الصادقة سوف تضطران ، يوماً ما ، الى التسليم
بأنه كان نبياً . . نبياً صادقاً من عند الله » (١) .

أما الناحية الأخرى في قضية اثبات الرسالة المحمدية ، فهي ذلك الكتاب الذي جاء به صاحب الرسالة ، مدعيا انه منزل من عند الله تعالى .

وهذا الكتاب يفيض بخصائص ومزايا تدل صراحة على انه كلام غير انساني ، وانه من عند الله . ولما كان البحث في هذه الناحية ذا طبيعة خطيرة - نظرا لأهميته - فقد قررنا أن ندرسه في باب مستقل . .

الباب السابع

القرآن صوت الله

عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ، ((ما من الأنبياء نبى الا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله الى ، فأرجو أنى أكثرهم تابعا يوم القيامة)) (١) .

ان هذا الحديث النبوى يعين جوانب بحثنا الصحيحة ، فهو يقول : ان أهم وسائلنا لمعرفة النبى هو الكتاب الذى جاء به ، مدعيا أنه من عند الله ، والقرآن هو رسالة الرسول بين ظهرانينا ، كما انه يبرهن على صدقه .

فما الخصائص التى تبرهن على ان القرآن من عند الله ؟

انها متعددة الجوانب كثيرة ، نستطيع أن نلخصها فى الفصول التالية :

أولا - اعجاز القرآن :

أول خاصية يتنبه اليها الباحث فى العلوم القرآنية هى ذلك التحدى الصريح الذى وجهه القرآن الى الناس كافة ، منذ أربعة عشر قرنا ، وبخاصة أولئك الذين ينكرون رسالة القرآن ، ولم يستطع أحد من عباقرة البشر أن يرد التحدى الى الآن . لقد أعلن القرآن ، بصوت عال لا ابهام فيه ولا غموض :

(١) صحيح البخارى : الاعتصام .

((وأن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله
وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين)) (١) .

أنه أغرب تحد في التاريخ ، وأكثره إثارة للدهشة ، فلم يجرؤ
أحد من الكتاب في التاريخ الانساني - وهو بكامل عقله ووعيه - أن
يقدم تحديا مماثلا ، فان مؤلفا ما لا يمكن أن يضع كتابا ، يستحيل
على الآخرين ان يكتبوا مثله ، أو خيرا منه . . فمن الممكن اصدار
مثيل من أى عمل انساني في أى مجال ، ولكن حين يدعى أن هناك
كلاما ليس في امكان البشر الاتيان بمثله ، ثم تخفق البشرية على مدى
التاريخ في مواجهة هذا التحدى ، حينئذ يثبت تلقائيا انه كلام غير
انساني ، وانها كلمات صدرت عن صميم المنبع الالهى Divineorigin
وكل ما يخرج من المنبع الالهى لا يمكن مواجهة تحدياته .

وفي صفحات التاريخ بعض الوقائع ، غر أصحابها الغرور ،
فانطلقوا يواجهون هذا التحدى .

وأولى هذه الوقائع ما حدث من الشاعر العربى لبید بن ربيعة،
الشهير ببلاغة منطقته ، وفصاحة لسانه ، ورصانة شعره . فعندما
سمع ان محمدا يتحدى الناس بكلامه قال بعض الابيات ردا على
ما سمع ، وعلقها على باب الكعبة ، وكان التعليق على باب الكعبة
امتيازاً لم تدركه الا فئة قليلة من كبار شعراء العرب ، وحين رأى
أحد المسلمين هذا أخذته العزة ، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم،
وعلقها الى جوار أبيات لبید ، ومر لبید بباب الكعبة في اليوم التالى،
ولم يكن قد أسلم بعد ، فأذهلته الآيات القرآنية ، حتى انه صرخ

(١) سورة البقرة : ٢٣ .

من فوره قائلا : (والله ما هذا بقول بشر ، وأنا من المسلمين) (١) .

وكان من نتيجة تأثر هذا الشاعر العربي العملاق ببلاغة القرآن انه هجر الشعر ، وقد قال له عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يوما : يا أبا عقيل : أنشدنى شيئا من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعرا بعد اذ علمنى الله سورة البقرة وآل عمران (٢) .

وأما الحادث الثانى فهو أغرب من الأول ، وهو عن ابن المقفع

(١) هذا الخبر عن لبيد أورده المؤرخ ج . ساروار فى Mohammed The Holy Prophet ص ٨٨ - كراتشى ، وهو على هذا النحو غير مسلم ، لان لبيدا لم يسلم الا فى السنة التاسعة للهجرة ، حين وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ضمن وفد كلاب (أنظر : الطبقات الكبرى ٣٣/٦ ، وأيضا ٣٠٠/١ - د بيروت ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٥/١ - تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، . وانما كان الذى حدث قريبا من هذا الذى ذكره المؤلف مع استبعاد رواية اسلامه . فقد ذكر الحافظ ابو نعيم فى الحلية ١٠٣/١ أن عثمان بن مظعون رضى الله عنه كان فى أول الاسلام يعيش فى جوار الوليد بن المغيرة ، فلما رأى ما يحدث لآخوانه من اذى المشركين عز عليه أن يعذبوا دونه ، فرد جوار الوليد ، ثم مضى الى الكعبة فوجد لبيد بن ربيعة فى المجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان فقال لبيد وهو ينشدهم :

(ألا كل شيء ما خلا الله باطل) ...

فقال عثمان : صدقت . فقال :

(وكل نعيم لا محاله زائل)

فقال عثمان : كذبت ، نعيم أهل الجنة لا يزول ، فقال لبيد : يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث فيكم هذا ؟ الى آخر الخبر ، ومفهوم هذا أن لبيدا قد بقى على جاهليته حتى أسلم سنة تسع ، ويذكر ابنه قتيبة أنه لم يقل فى اسلامه غير بيت واحد هو :

الحمد لله اذ لم يأتنى أجلى .. حتى كسانى من الاسلام سربالا
وقيل هو قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه .. والمرء يصلحه الجليس الصانع (المراجع)
(٢) أنظر فى هذا الخبر : الشعر والشعراء لابن قتيبة السابق .

أورده المستشرق (ولاستن) في كتابه ، وعلق عليه قائلا :

« . . . ان أعتداد محمد بالاعجاز الادبي للقرآن لم يكن على غير اساس ، بل يؤيده حادث وقع بعد قرن من قيام دعوة الاسلام » (١) .

والحادث كما جاء عن لسان المستشرق ، هو أن جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن الكبير في عامة الناس ، فقرروا مواجهة تحدى القرآن ، واتصلوا لاتمام خطتهم بعبد الله بن المقفع (٧٢٧ م) ، وكان أديبا كبيرا ، وكاتبا ذكيا . يعتد بكفاءته فقبل الدعوة للقيام بهذه المهمة . . وأخبرهم أن هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة ، واشترط عليهم أن يتكفلوا بكل ما يحتاج اليه خلال هذه المدة . .

ولما مضى على الاتفاق نصف عام ، عادوا اليه ، وبهم تطلع الى معرفة ما حققه أديبهم لمواجهة تحدى رسول الاسلام ، وحين دخلوا غرفة الأديب الفارسي الأصل ، وجدوه جالسا والقلم في يده ، وهو مستغرق في تفكير عميق ، وأوراق الكتابة متناثرة أمامه على الأرض بينما امتلأت غرفته بأوراق كثيرة ، كتبها ثم مزقها .

لقد حاول هذا الكاتب العبقرى أن يبذل كل مجهود ، عساه أن يبلغ هدفه ، وهو الرد على تحدى القرآن المجيد . . ولكنه أصيب باخفاق شديد في محاولته هذه ، حتى اعترف أمام أصحابه ، والخجل والضيق يملكان عليه نفسه ، انه ، على الرغم من مضى ستة أشهر ، حاول خلالها أن يجيب على التحدى ، فانه لم يفلح

Mohammad : His life & Doctrine, p. 143.

(١)

في أن يأتي بآية واحدة من طراز القرآن ! وعندئذ تخلى ابن المقفع عن مهمته ، مغلوبا مستخديا (١) .

وهكذا لا يزال تحدى القرآن الكريم قائما ومستمرا على مر القرون والأجيال ، وهي خاصة عظيمة ورائعة في صالحي القرآن ، تثبت ، دون مرية ، أنه كلام من هو فوق الطبيعة . وإي أنسان يتمتع بكفاءة التفكير والامعان ، في حقيقة الأمر ، يكفي ذلك ليؤمن بهذا الكتاب .

ومما لا شك فيه أن العرب - وهم الذين لم يعرف لهم مثل في التاريخ ، في البلاغة والبيان ، حتى أطلقوا على غيرهم اسم «العجم» لشدة اعتزازهم ببيانهم - قد اضطروا أن يركعوا أمام القرآن ، معترفين بعجزهم عن الاتيان بمثله ، فلزمتهم بذلك الحجة . .

ومما جاء في كتب الحديث عن ابن عباس أن (ضمادا) قدم مكة . وكان من ازدشنوءة . وكان يرقى (٢) من هذه الريح (الجنون ومس الجن) . فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : أن محمدا مجنون . فقال : لو أني رأيت هذا الرجل ، لعل الله يشفيه على يدي . قال : فلقية : فقال : يا محمد ! أني أرقى من هذه الريح ، وأن الله يشفي على يدي من شاء ، فهل لك ؟ فقال رسول الله : « ان الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده ولا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد . » قال : فقال : أعد على

(١) وردت في التاريخ أمثلة أخرى حاول أصحابها مواجهة هذا التحدي غير أنهم أخفقوا أخفاقا ذريعا ، ومن هؤلاء : مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وطلحة بن خويلد الاسدي ، والنضر بن الحارث وأبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الرواندي وأبو الطيب المتنبي ، وأبو العلاء المعري ، صاحب كتاب « الفصول والغايات في مجازة السور والآيات » ، أنظر للتفصيل كتاب الرافعي : اعجاز القرآن - المترجم

(٢) من الرقية ، وهي العوذة التي يرقى بها صاحب الافة .

كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، قال : فقال : « لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناعوس البحر (قعره الأقصى) (١) .

ان هناك عددا لا يحصى من الاعترافات التى أدلى بها ارباب الشعر والادب والفكر ، فى شأن القرآن الكريم ، سطرت فى صفحات التاريخ القديم ، كما انها توجد بكثرة فى تاريخ العصر الحاضر .

ثانيا - نبوءات القرآن :

الجانب الثانى من عظمة القرآن الكريم يتجلى فى تنبؤاته المختلفة التى ثبتت صحتها فيما بعد بطرق عجيبة .

ان عددا كبيرا من اذكىء الناس ، ومن العباقرة ، قد جرؤوا على ان يتنبأوا عن انفسهم أو عن غيرهم . ولكننا نعرف أن الزمان لم يصدق هذه النبوءات مطلقا ، بل جاء يكذبها بكل قسوة ، ولقد تحفز الفرص المواتية ، والأحوال المساعدة ، والكفاءات العالية ، وكثرة الأعوان والأنصار ، والنجاح الخارق فى البداية لكثيرين - وهم

(١) صحيح مسلم ٥٩٣\٢ - حديث رقم ٨٧٨ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي .
وبقية الحديث كما فى الصحيح : قال : فقال : هات يدك أبايعك على الاسلام ، قال : فبايعه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وعلى قومك » ، قال : وعلى قومي . قال : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فمروا بقومه ، فقال صاحب السرية للجيش : هل أصبتم من هؤلاء شيئا ؟ فقال رجل من القوم أصبت منهم مطهرة ، فقال : ردوها فان هؤلاء قوم ضماد .

وتفسير (ناعوس البحر) بأنه : قعره الأقصى - منقول عن صحيح مسلم ، من اضافة شارحة ، وهى كلمة غير معروفة من كلام العرب قال ابن الاثير فى (النهاية فى غريب الحديث ٨١\٥) عن أبى موسى : « هكذا وقع فى صحيح مسلم ، وفى سائر الروايات : (قاموس البحر) أى : وسطه ولجته » أقول : ولعلها لهجة ضماد .
(المراجع)

يرون أنهم يسرون تجاه نتائج مرضية - أن يتنبأوا بنتيجة معينة بكل يقين ، ولكن الزمن يبطل هذه الدعاوى ويكذبها دائما . . . والزمن نفسه هو الذى أثبت صحة ما جاء فى القرآن من التنبؤات فى حين أنها جميعا جاءت فى أحوال غير مواتية ، أن هذه التنبؤات - وقد وقعت فعلا على ما يحدثنا التاريخ - تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها . وما دمنا ندرسها فى ضوء علومنا المادية . فلن نستطيع ادراك حقائقها ، الا ان ننسبها الى مصدر غير بشرى .

كان نابليون بوناپرت من أعظم قواد الجيوش فى عصره ، وقد دلت فتوحاته الاولى على أنه سوف يكون ندا لقيصر ، والاسكندر المقدونى . وترتب على ذلك أن وجد الفرور منفذه الى رأس نابليون فأصبح يتوهم أنه هو مالك القدر . وازداد هذا الشعور لديه . حتى أنه ترك مستشاريه ، وأدعى أنه لم يكتب فى قدره غير الغلبة الكاملة على من فى الأرض . ولكننا جميعا نعرف النهاية التى كتبت له فى لوح القدر .

سار نابليون من باريس يوم ١٢ من يونية ، سنة ١٨١٥ ، مع جحفله العظيم ، ليقضى على اعدائه وهم فى الطريق . ولم تمض غير ستة أيام حتى الحق « دوق ولنجتون » شر هزيمة بجيش نابليون الجبار ، فى « ووترلو » بأراضى بلجيكا . وكان (الدوق) يقود جنود انجلترا وألمانيا وهولندا . ولما يئس نابليون ، وأيقن من مصيره المحتوم فر هاربا من القيادة الفرنسية متوجها الى أمريكا ولم يكد يصل الى الشاطئ حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه ، وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية ، وانتهى به القدر الى أن أرسل الى جزيرة غير معمورة بجنوب الأطلنطى ، هى جزيرة « سانت هيلينا » ، ومات القائد العسكرى فى هذه الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشقاء والوحدة ، فى ٥ مايو سنة ١٨٢١ .

والبيان الشيوعى المعروف ، الذى صدر سنة ١٨٤٨ ، تنبأ بأن أول البلاد التى ستقود الثورة الشيوعية هى (ألمانيا) ، ولكن ألمانيا

على الرغم من مضي مائة وعشرين عاما من هذه النبوءة ، لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة .

ولقد كتب **كارل ماركس** في مايو سنة ١٨٤٩ قائلا : « ان الجمهورية الحمراء تبزغ في سماء باريس ! » ورغم أنه قد مر على هذه النبوءة أكثر من قرن ، فان شمس الجمهورية الحمراء البازغة لم تشرق على أهالي باريس !

وقد قال **أدولف هتلر** في خطابه الشهير الذي ألقاه بميونخ في { من مارس سنة ١٩٣١ :

« اننى سائر في طريقى ، واثقا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبالى » (١) . والعالم بأجمعه يعرف اليوم أن الذى كتب فى قدر الجنرال الالماني العظيم كان هو الهزيمة والانتحار . .

وقد شاهدنا وقائع عديدة من هذه النبوءات المضحكة فى « الهند » . فقد أعلن زعيم الشيوعيين : س.ب. جوشي ، فى المؤتمر الثالث للحزب الشيوعى الهندى ، الذى انعقد فى (مدوراي) بجنوب الهند ، فى يناير سنة ١٩٥٤ ، بأن الحزب الشيوعى سوف يحكم ، مستقلا بنفسه ، فى الانتخابات العامة القادمة ، فى ولايات : تراونكو - كوتشين (كيرالا) ، ومدراس ، وآندھرا ، والبنغال الغربية ، وآسام . وقد أجريت ثلاثة انتخابات عامة (وانتخابات تكميلية اخرى) فى هذه المدة الطويلة ، ولم يستطع الحزب الشيوعى تأليف وزارة مستقلة فى أية ولاية من ولايات الهند (٢) .

وسط هذه الجحافل من المتنبئين والنبوءات ، لا نجد غير « القرآن » الذى تحققت نبوءاته حرفا حرفا . وهذا الواقع يكفى

(١) A Study of History (Abridgment) p. 447.

(٢) تمكن الحزب الشيوعى من تأليف وزارة ائتلافية فى كيرالا فى الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧ كما تمكنت الجبهة المتحدة فى البنغال الغربية من تأليف وزارة ائتلافية فى الانتخابات التكميلية التى أجريت فى الولاية فى ١٩٦٩ ، وكان الشيوعيون يتمتعون بالاغلبية فى الجهة المتحدة . (المترجم)

في ذاته لاثبات ان هذا الكلام صادر من عقل وراء الطبيعة يمسك بزمام الاحوال والحوادث ، وهو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الأزل الى الأبد .

وسوف نورد هنا خبرين من التنبؤات الكثيرة التي أدلى بها رسول الاسلام ، وتحققت بكاملها . والشهادتان اللتان سنذكرهما ، تتعلق احدهما بغلبة الاسلام نفسه ، على حين تتعلق بغلبة الروم مرة اخرى .

(١) عندما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته وقفت الجزيرة العربية كلها ضده ، وكان على النبي مواجهة ثلاث جبهات في وقت واحد :

أولها : القبائل المشركة ، بعد أن أصبحوا أعداء حياته .

وثانيها : الرأسمالية اليهودية .

وثالثها : أولئك المنافقون الذين تسربوا داخل المسلمين للقضاء على حركتهم ، من داخل معاقلهم .
وكان الرسول يجاهد في سبيل رسالته السامية على كل هذه الجبهات : قوة المشركين ، والرأسمالية اليهودية ، والطابور الخامس ، وقد وقف أمام هذا الطوفان الطاغى وقفات رائعة لا مثيل لها ، ولم يسانده في مواقفه غير حفنة من المهاجرين والأنصار ، وجماعة أسلمت من العبيد . ومما لا شك فيه أنه قد انضم اليه بعض كبار قريش ، ولكن سرعان ما انقطعوا عن أهلهم وذويهم ، وعاداتهم قريش كمعاداتها للنبي .

وقد سارت هذه الحركة بمكة قدما ، تكافح وتناضل ، حتى أصبحت الأمور غاية في السوء ، واضطر النبي وأصحابه أن يهاجروا الى جهات مختلفة ، حتى اجتمع شملهم في المدينة المنورة ، وهم في أشد حالات العوز والفقر ، بعد ما تركوا ثرواتهم في مكة — موطنهم

الأصلى . ويمكن قياس بؤس هؤلاء المهاجرين بتلك الجماعة التي عاشت في المسجد النبوى ، حيث لم تكن لديهم بيوت ، وكانوا ينامون على « صفة » في فناء المسجد النبوى ، فأطلق عليهم : « أهل الصفة » . ومما روى في كتب التاريخ أن تعداد هؤلاء الصحابة الكرام ، الذين عاشوا على « الصفة » بلغ في بعض الأحيان أربعمائة صحابى .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب ، فمنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من هو أسفل من ذلك ، فاذا ركع أحدهم قبض عليه ، مخافة أن تبدو عورته .

وعنه (أبى هريرة) رضى الله عنه أنه قال : « لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها ، فيقول الناس : أنه مجنون ، وما بى جنون ، ما بى إلا الجوع ! » .

وفى هذه الحالة البائسة ، حيث كان المسلمون فى أسوأ أحوالهم ، مكشوفين فى عراء المدينة المنورة ، خائفين ، يترقبون الأعداء من كل جانب ، مخافة أن يتخطفوهم فى أى وقت ، فى هذه الحالة نجد القرآن يبشرهم مرة بعد أخرى :

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » (١) .

وقال أيضا :

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » (٢) .

ولم تمض على هذه البشرى أيام طويلة ، حتى وجد المسلمون

(١) المجادلة : ٢١ .

(٢) الصف : ٨ و ٩ .

الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم ، فقد انتصرت أقلية ضئيلة
لا تملك الخيول ولا الأسلحة ، على أعداء يملكون الجيوش الكبيرة ،
والعدة ، والعتاد .

وليس بوسعنا تفسير هذه التنبؤات في ضوء المصطلحات المادية
الا أن نسلم بأن صاحب هذا الاخبار بالغيب لم يأت به من عند
نفسه ، وانما كان خليفة عن الله ، فلو أنه كان انسانا عاديا لاستحال
كل الاستحالة أن تصنع كلماته أقدار التاريخ . وكما قال
البروفيسور (ستوبارت) « أنه لا يوجد مثال واحد في التاريخ
الانسانى بأكمله يقارب شخصية محمد . »

وهو يضيف قائلا :

« .. ما أقل ما امتلكه من الوسائل المادية ، وما أعظم ما
جاء به من البطولات النادرة ، ولو أننا درسنا التاريخ من هذه
الناحية ، فلن نجد فيه اسما منيرا هذا النور ، وواضحا هذا
الوضوح ، غير اسم النبی العربی » (١) .

ان هذا الأمر هو أعظم دليل على كونه صلى الله عليه وسلم مرسلا
من لدن الحق تبارك وتعالى . وقد اعترف السير وليام ميور ،
ذلك العدو اللدود للاسلام ، بهذا الأمر بطريقة غير مباشرة ، حين
قال :

« لقد دفن محمد مؤامرات أعدائه في التراب ، وكان يثق
بانتصاره ليل نهار ، مع حفنة من الأنصار والأعوان ، رغم أنه كان
مكشوبا عسكريا من كل ناحية ، وبعبارة أخرى : كان يعيش في
عرين الأسد ، ولكنه أظهر عزيمة جبارة ، لا نجد لها نظيرا غير ما
ذكر في الانجيل ، من أن نبيا قال لله تعالى :

« لم يبق من قومي الا أنا (١) ! » .

(ب) أما النبوءة الثانية التى وردت فى القرآن ، فهى الاخبار بغلبة الروم على الفرس وقد جاء فى أول سورة الروم قوله تعالى :

**«بسم الله الرحمن الرحيم • ألم • غلبت الروم فى أدنى الأرض
وهم من بعد غلبهم سيفلبون فى بضع سنين » .**

**كانت الامبراطورية الفارسية تقع شرقى الجزيرة العربية ، على
الساحل الآخر للخليج العربى ، على حين كانت الامبراطورية
الرومانية تمتد من غربى الجزيرة على ساحل البحر الاحمر الى ما
فوق البحر الأسود . وقد سميت الاولى - ايضا - بالامبراطورية
الساسانية ، والآخرى بالبيزنطية . وكانت حدود الامبراطوريتين
تصل الى الفرات ودجلة ، فى شمال الجزيرة العربية . وكانتا أقوى
حكومتين شهدتهما ذلك العصر .**

ويبدأ تاريخ الامبراطورية الرومانية - كما يرى المؤرخ « جبن »
- فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وكانت تتمتع حينئذ بمكانتها كأرقى
دولة حضارية فى العالم .

وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم ، كما لم يشغلهم زوال
اية حضارة أخرى (٢) . وليس يغنى كتاب من الكتب التى الفت
حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى ، ولكن يمكن اعتبار كتاب
المؤرخ « ادوارد جبن » : « تاريخ سقوط واندحار الامبراطورية

(١) Life of Mohammad, p. 228. ربما يذكّرنا هذا الاقتباس بقول القرآن

حكاية على لسان موسى عليه السلام : « رب أنى لا أملك الا نفسى وأخى » -

(المراجع)

المائدة ٢٥

Western Civilization, p. 210.

(٢)

الرومانية « (١) أكثرها تفصيلا وثقة ، وقد ذكر المؤرخ في الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة ببحثنا هنا .

اعتنق الملك « قسطنطين » الدين المسيحي عام ٣٢٥ م ، وجعله ديانة البلاد الرسمية ، فأمنت بها أكثرية رعايا الروم . وعلى الجانب الآخر ، رفض الفرس - عباد الشمس - هذه الدعوة .

وكان الملك الذي تولى زمام الامبراطورية الرومانية في أواخر القرن السابع الميلادي هو « موريس » ، وكان ملكا غافلا عن شئون البلاد والسياسة ، ولذلك قاد جيشه ثورة ضده ، بقيادة « فوكاس Phocas » . وأصبح فوكاس ملك الروم ، بعد نجاح الثورة ، والقضاء على العائلة الملكية بطريقة وحشية ، وأرسل سفيرا له الى امبراطور ايران « كسرى أبرويز الثاني » ، وهو ابن « أنوشيروان » العادل .

وكان « كسرى » هذا مخلصا للملك « موريس » ، اذ كان قد لجأ اليه عام ٥٩٠ - ٥٩١ م ، بسبب مؤامرة داخلية في الامبراطورية الفارسية ، وقد عاونه « موريس » بجنوده لاستعادة العرش . ومما يروى أيضا أن « كسرى » تزوج بنت « موريس » ، أثناء اقامته ببلاد الروم ، وبذلك كان يدعو « بالأب » .

ولما عرف بأخبار انقلاب الروم ، غضب غضبا شديدا ، وأمر بسجن السفير الرومي ، وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة .

وأغار « كسرى أبرويز » على بلاد الروم ، وزحفت جحافلها عابرة نهر الفرات الى الشام . ولم يتمكن « فوكاس » من مقاومة

The History of the Decline and fall of the Roman.

(١)

Empire, by Edward Gibbon.

جيوش الفرس التي استولت على مدينتي « انطاكية والقدس » ،
فاتسعت حدود الامبراطورية الفارسية فجأة الى وادي النيل .
وكانت بعض الفرق المسحية - كالنسطورية واليعقوبية - حاقدة
على النظام الجديد في روما - فناصرت الفاتحين الجدد ، وتبعها
اليهود ، مما سهل غلبة الفرس .

وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية الى الحاكم الرومي في
المستعمرات الافريقية يناشدونه انقاذ الامبراطورية ، فأرسل الحاكم
جيشا كبيرا بقيادة ابنه الشاب « هرقل » ، فسار بجيشه في
الطريق البحرية ، بسرية تامة . . حتى ان « فوكاس » لم يدر
بمجيئهم الا عندما شاهد الأساطيل ، وهي تقترب من السواحل
الرومانية ، واستطاع هرقل - دون مقاومة تذكر - ان يستولى
على الامبراطورية ، وقتل « فوكاس » الخائن .

بيد أن هرقل لم يتمكن - برغم استيلائه على الامبراطورية ،
وقتل « فوكاس » - من ايقاف طوفان الفرس . . فضاع من الروم
كل ما ملكوا من البلاد في شرقي العاصمة وجنوبها . لم يعد العلم
الصليبي يرفرف على العراق والشام وفلسطين ومصر وآسيا
الصفرى ، بل علتها راية الفرس : « درفش كاوياني » !! وتقلصت
الامبراطورية الرومانية في عاصمتها ، وسدت جميع الطرق في حصار
اقتصادي قاس ، وعم القحط ، وفشت الأمراض الوبائية ، ولم
يبق من الامبراطورية غير جذور شجرها العملاق . وكان الشعب في
العاصمة خائفا يترقب ضرب الفرس للعاصمة ، ودخولهم فيها ،
وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق ، وكسدت التجارة
وتحولت معاهد العلم والثقافة الى مقابر موحشة مهجورة .

وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم للقضاء على المسيحية
. . فبدأوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة ، ودمروا
الكنائس ، وأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠.٠٠٠ (مائة الف) من
المسيحيين المسلمين وأقاموا بيوت عبادة النار في كل مكان ، وأرغموا

الناس على عبادة الشمس والنار ، واغتصبوا الصليب المقدس وأرسلوه الى « المدائن » .

ويقول المؤرخ « جين » فى المجلد الخامس من كتابه :
« ولو كانت نوايا « كسرى » طيبة فى حقيقة الأمر ، لكان اصطلاح مع الروم ، بعد قتلهم « فوكاس » ، ولاستقبل « هرقل » كخير صديق أخذ بثأر حليفه وصاحب نعمته « موريس » ، بأحسن طريقة ولكنه أبان عن نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب(١)

ويمكن قياس الهوة الكبرى التى حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه « كسرى » الى « هرقل » ، من بيت المقدس ، قائلا :
« من لدن الاله كسرى ، الذى هو أكبر الآلهة ، وملك الأرض كلها ، الى عبده اللئيم الغافل : هرقل : أنك تقول : أنك تثق فى الهك ! فلماذا لا ينقذ الهك القدس من يدى ؟! » .

واستبد اليأس والقنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة ، وقرر العودة الى قصره الواقع فى قرطاجنة « على الساحل الأفريقى . . فلم يعد يهتم أن يدافع عن الامبراطورية ، بل كان شغله الشاغل انقاذ نفسه . وأرسلت السفن الملكية الى البحر ، وخرج « هرقل » فى طريقه ليستقل احدى هذه السفن الى منفاه الاختيارى .

وفى هذه الساعة الحرجة تحايل كبير أساقفة الروم باسم الدين والمسيح ، ونجح فى اقناع « هرقل » بالبقاء ، وذهب « هرقل » مع الأسقف الى قربان « سانت صوفيا » يعاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت الا مع الشعب الذى اختاره الله له .

وبإشارة من الجنرال الايرانى سين (Sain) أرسل « هرقل » سفيرا الى « كسرى » طالبا منه الصلح ، ولكن لم يكد القاصد

(١) كتاب جين ، مجلد ٥ ص ٧٤ .

الرومي يصل الى القصر ، حتى صاح « كسرى » في غضب شديد :
لا أريد هذا القاصد ! وانما أريد هرقل مكبلا بالأغلال تحت عرشي ،
ولن أصالح الرومي حتى يهجر الهه ، الصليبي ، ويعبد الشمس
الهندية » (١) .

وبعد مضي ستة أعوام على الحرب ، رضی الامبراطور الايراني
ان يصالح هرقل على شروط معينة هي أن يدفع ملك الروم « ألف
تالنت (٢) من الذهب ، وألف تالنت من الفضة ، وألف ثوب (٣)
من الحرير ، وألف جواد ، وألف فتاة عذراء » .

ويصف « جبن » هذه الشروط بأنها « مخزية » دون شك ،
وكان من الممكن أن يقبلها « هرقل » ، لولا المدة القصيرة التي أتيحت
له لدفعها من المملكة المنهوبة ، والمحدودة الأرجاء ، ولذلك أثر أن
يستعمل هذه الثروة كمحاولة أخيرة ، ضد أعدائه .

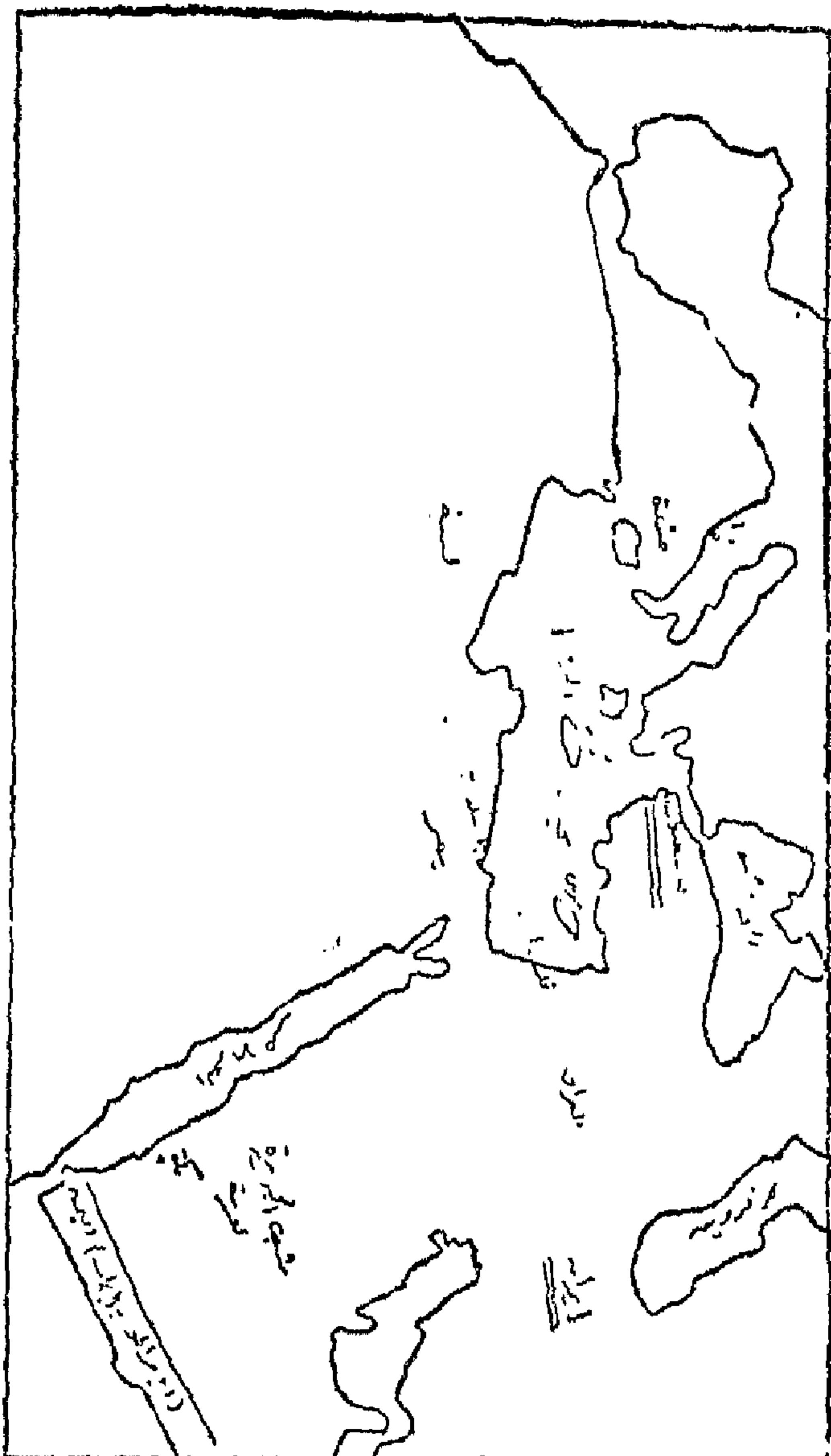
وبينما سيطرت على العاصمتين الفارسية والرومية هذه
الأحداث ، فقد سيطرت على شعب العاصمة المركزية في شبه
الجزيرة العربية - وهي « مكة » المكرمة - مشكلة مماثلة : كان
الفرس مجوسا من عباد الشمس والنار ، وكان الروم من المؤمنين
بالمسيح ، وبالوحي ، وبالرسالة ، وبالله تعالى . وكان المسلمون -
مع الروم - نفسيا - يرجون غلبهم على الكفار والمشركين ، كما كان
كفار مكة مع الفرس ، لكونهم من عباد المظاهر المادية . وأصبح
الصراع بين الفرس والروم رمزا خارجيا للصراع الذي كان يدور
بين أهل الاسلام وأهل الشرك في « مكة » . وبطريقة نفسية كانت
كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجى هي نفس
مآل صراعهما الداخلى . فلما انتصر الفرس على الروم عام ٦١٦ م .

(١) (ص - ٧٦ - ج ٥) .

(٢) Talent ميزان يوناني قديم حوالى ستة وعشرين كيلو جراما ،

لدى الاثينيين وقد يطلق على كمية النقود الذهبية أو الفضية التي تزنه - المراجع

(٣) الثوب : ثلاثون مترا من القماش تقريبا - المراجع .



در بطنه الأحمر أطوار من الممارسية والرومانية

واستولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم ، انتهزها
المشركون فرصة للسخرية من المسلمين ، قائلين : لقد غلب اخواننا
على اخوانكم ، وكذلك سوف نقضى عليكم ، اذا لم تصطلحوا معنا
تاركين دينكم الجديد !! وكان المسلمون بمكة في اضعف وأسوأ
احوالهم المادية ، وفي تلك الحالة البائسة ، صدرت كلمات من لسان
الرسول صلى الله عليه وسلم :

((بسم الله الرحمن الرحيم . ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض
وهم من بعد غلبهم سيفظلبون . في بضع سنين . لله الأمر من قبل
ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو
العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس
لا يعلمون)) - الروم : ١ - ٦ .

وتعليقا على هذه النبوءة يكتب « جبن » :

« في ذلك الوقت ، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة ، لم تكن أية
نبوءة أبعد منها وقوعا ، لأن السنين الاثنتى عشرة الاولى من
حكومة « هرقل » كانت تؤذن بانتهاء الامبراطورية الرومانية » (١)

ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيم
على كل الوسائل والأحوال ، ومن بيده قلوب الناس وأقذارهم ،
ولم يكد جبريل يبشر النبي بهذه البشرى ، حتى أخذ انقلاب يظهر
على شاشة الامبراطورية الرومانية !! .

ويرويه « جبن » على النحو التالى :

« انها من أبرز البطولات التاريخية ، تلك التى نراها فى
« هرقل » ، فقد ظهر هذا الامبراطور غاية فى الكسل والتمتع
بالملذات وعبادة الأوهام فى السنين الاولى والأخيرة من حكمته ،

(١) ص ٧٤ المجلد ه .

كان يبدو كما لو كان متفرجا أبله ، استسلم لمصائب شعبه ، ولكن الضباب الذى يسود السماء ساعتى الصباح والمساء ، يغيب حيناً من الوقت لشدة شمس الظهيرة ، وهذا هو ما حدث بالنسبة الى هرقل ، فقد تحول « أرقاديوس (١) القصور » الى « قيصر ميدان الحرب » (٢) فجأة ، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنّها ضد الفرس . وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة ، تبياناً لأسرار هذه اليقظة والنوم ، وبعد هذه القرون التى مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة ، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية ، فقد انقطع عن كافة الملذات ، حتى أنه هجر ابنة أخته « مارتينا » - التى تزوجها لشدة هيامه بها ، رغم أنها كانت محرمة عليه « (٣)

هرقل - ذلك الملك الغافل الفاقد العزيمة - وضع خطة عظيمة لقهر الفرس ، وبدأ فى تجهيز العدة والعتاد ، ولكن رغم ذلك كله ، عندما خرج هرقل مع جنوده ، بدا لكثيرين من سكان « القسطنطينية » أنهم يرون آخر جيش فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية .

وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة ، ولذلك أعد بحريته للاغارة على الفرس من الخلف . وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود الى « أرمينيا » ، وشن على الفرس هجوماً مفاجئاً فى نفس الميدان الذى هزم فيه الاسكندر جيوش الفرس ، لما زحف على أراضى مصر والشام ، ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الفارة المفاجئة ، فلابدوا بالفرار .

وكان الفرس يملكون جيشاً كبيراً فى « آسيا الصغرى » ، ولكن « هرقل » فاجأهم بأساطيله مرة أخرى ، وأنزل بهم هزيمة فادحة

(١) أرقاديوس (٣٧٧ - ٤٠٨ م) ، أحد أباطرة الرومان ، وهو الابن الأكبر لتيودوس الاول ، تولى العرش سنة ٣٩٥ م . واشتهر بالجبن - المراجع .
(٢) قيصر أو « سيراز » (١٤٤ - ١٠١ ق.م) قائد وسياسى رومى عظيم .
(٣) ص - ٧٦ - ٧٧ ، المجلد الخامس .

وبعد احراز هذا النصر الكبير عاد « هرقل » الى عاصمته « القسطنطينية » عن طريق البحر ، وعقد معاهدة مع الأفاريين (Avars) واستطاع بنصرتهم أن يسد سيل الفرس عند عاصمتهم .

وبعد الحربين اللتين مر ذكرهما شن هرقل ثلاثة حروب أخرى ضد الفرس في سنوات ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ م . واستطاع أن ينفذ الى اراضى العراق القديم (ميسو بوتانيا) عن طريق البحر الاسود واضطر الفرس الى الانسحاب من جميع الأراضى الرومية ، نتيجة هذه الحروب ، وأصبح « هرقل » فى مركز يسمح له بالتوغل فى قلب الامبراطورية الفارسية ، وكانت آخر هذه الحروب المصرية - تلك الحرب التى خاضها الفريقان فى « نينوا » على ضفاف « دجلة » فى ديسمبر عام ٦٢٧ م .

ولما لم يستطع « كسرى أبرويز » مقاومة سيل الروم ، حاول الفرار من قصره الحبيب « دستكرد » ، ولكن ثورة داخلية نشبت فى الامبراطورية ، واعتقله ابنه « شيرويه » ، وزج به فى سجن داخل القصر الملكى ، حيث لقى حتفه ، لسوء الاحوال فى اليوم الخامس من اعتقاله ، وقد قتل ابنه « شيرويه ثمانى عشرة من أبناء أبيه (كسرى) أمام عينيه .

ولكن « شيرويه » هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر ، حيث قتله أحد أشقائه ، وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكى ، وتولى تسعة ملوك زمام الحكم فى غضون أربعة أعوام . ولم يكن من الممكن ، أو المعقول فى هذه الأحوال السيئة ، أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم . فأرسل « قباد الثانى » ابن كسرى أبرويز الثانى يرجو الصلح ، وأعلن تنازله عن الأراضى الرومية ، كما أعاد الصليب المقدس ، ورجع « هرقل » الى عاصمته « القسطنطينية » فى مارس عام ٦٢٨ م ، فى احتفال رائع ، حيث

كان يجر مركبته أربعة أفيال ، واستقبله آلاف مؤلفة من الجماهير ،
خارج العاصمة ، وفي أيديهم المشاعل وأغصان الزيتون (١) !!

وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم في مدته
المقررة ، أى فى أقل من عشر سنين ، كما هو المراد فى لغة العرب من
كلمة : « بضع » !

وقد أبدى « جبن » حيرته وأعجابه بهذه النبوءة ، ولكنه كى
يقلل من أهميتها وربطها برسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى
« كسرى » .

يقول جبن :

« وعندما أتم الامبراطور الفارسى نصره على الروم وصلته رسالة
من مواطن خامل الذكر ، من « مكة » دعاه الى الايمان بمحمد ،
رسول الله ، ولكنه رفض هذه الدعوة ومزق الرسالة . عندما بلغ
هذا الخبر رسول العرب ، قال : سوف يمزق الله دولته تمزيقا ،
وسوف يقضى على قوته .

« ومحمد ، الذى جلس فى الشرق على حاشية الامبراطوريتين
العظيمتين ، طار فرحا ، مما سمع عن تصارع الامبراطوريتين
وقتالهما ، وجروا فى ابان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة أن يتنبأ
بأن الغلبة تكون لراية الروم بعد بضع سنين . وفى ذلك الوقت ،
حين ساق الرجل هذه النبوءة ، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعا ،
لأن الاعوام الاثنى عشر الأولى من حكومة هرقل كانت تشى بنهاية
الامبراطورية الرومانية » (٢) .

بيد أن جميع مؤرخى الاسلام يعرفون معرفة تامة أن هذه
النبوءة لا علاقة لها بالرسالة التى وجهها النبى الى « كسرى »

(١) جبن : ص - ٩٤ ، ج - ٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٣ - ٧٤ .

أبرويز » ، لأن تلك الرسالة انما أرسلت في العام السابع من الهجرة بعد صلح الحديبية ، أى عام ٦٢٨ م ، في حين أن آية النبوة المذكورة نزلت بمكة عام ٦١٦ م ، أى قبل الهجرة بوقت طويل ، فبين الحدثين فاصل يبلغ اثني عشر عاما (١) .

ثالثا : القرآن والكشوف الحديثة :

والميزة الثالثة التى سوف أدرسها في هذا الباب للإبانة عن صدق القرآن وحقيقته ، هى أنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة ، لم يتمكن أحد من اثبات أية أخطاء علمية فيه ، ولو أنه كان كلاما بشريا لكان هذا ضربا من المستحيل .

كانت بعثة لطلبة الصين تدرس بجامعة كاليفورنيا منذ بضع سنين ، وقد ذهب اثنا عشر من هؤلاء الطلبة الى كاهن « كنيسة بركلى » طالبين منه أن ينظم لهم دراسة حول الدين المسيحى في أيام الأحد ، وقالوا له بكل صراحة : أننا غير راغبين في اعتناق المسيحية ولكننا نريد أن نعرف مدى تأثير هذا الدين على الحضارة الأمريكية واختار القسيس عالما في الرياضة والفلك ، هو البروفيسور « بيتر و. ستونر » ، للتدريس لهؤلاء الشبان . وبعد أربعة أشهر من هذا الواقع اعتنقوا الدين المسيحى !!

أما الدوافع وراء هذا العمل المدهش ، فلنسمعها من الاستاذ نفسه :

« لقد كان السؤال الأول أمامى : ماذا أقول لهم عن الدين ؟ انهم لا يؤمنون بالانجيل اطلاقا ، وتدريس الانجيل على الطريقة التقليدية لن يأتى بفائدة ما ، وفي ذلك الوقت تذكرت أنى أثناء دراستى كنت لاحظ علاقة كبيرة بين العلوم الحديثة وسفر التكوين

(١) انظر : Encyclopaedia of Religion and Ethics ج ١٠ ، ٥٤٠ - ٥٤٥

في الإنجيل ، ولذلك رأيت ان أعرض هذا الكلام أمام هذه الجماعة من الشباب .

« وكنا - أنا والطلبة - نعرف بطبيعة الحال ان ما جاء في هذا الكتاب عن بدء الكون قد كتب آلاف السنين من كشف العلوم الحديثة عن الأرض والسماء ، وكنا نشعر كذلك أن أفكار الناس في زمن موسى ستبدو لغوا باطلا ، لو درسناها في ضوء معلومات العصر الحاضر .

« وقد أمضينا فترة الشتاء كلها ندرس في سفر التكوين ، وكان الطلبة يكتبون الأسئلة حول ما جاء في هذا السفر ، ثم يبحثون عن أجوبتها بكل جهد في مكتبة الجامعة . وعند انتهاء الشتاء أخبرني القسيس أن الطلبة حضروا اليه ليخبروه أنهم يريدون اعتناق المسيحية ، وقد أقرروا أنه ثبت لهم أن الإنجيل كتاب موحى من عند الله » (١) .

وعلى سبيل المثال يقول سفر التكوين عن حالة الأرض في بداية الأمر :

« لقد غشى على الأغوار ظلام » (٢) .

وهذا هو أحسن تصوير للحالة التي وجدت في الأرض في ذلك الوقت ، كما عرفناها من العلوم الحديثة ، فكان سطح الأرض حارا جدا ، وتبخرت المياه بسبب هذه الحرارة ، ولم يصل النور الى سطح الأرض ، لأن مياه بحارنا كانت معلقة في صورة سحب كثيفة ، في الفضاء ، وكان ظلام حالك يسود الأرض .

اننا نؤمن بأن الإنجيل والتوراة من الكتب الالهية ، مثل القرآن الكريم ، ولذلك توجد فيهما قبسات من العلم الالهي ، ولكن النصوص

The Evidence of God pp. 137 - 38.

(١)

(٢) تقول الترجمة العربية للتوراة (المنقولة عن اليونانية) : « وكانت الأرض

خربة وخالية ، وعلى وجه القمر ظلمة » . الاصحاح : ١ - (المراجع) .

الأصلية قد ضاعت ، وطراً فارق كبير بين الانجيل الحقيقي وانجيل هذا العصر ، بعد مضي ألفى عام حافلة بعمليات الترجمة من لغة الى اخرى ، ثم بأعمال التحريف البشرى Human Interpolation الذى أصاب النسخة الالهية أكثر ما أصاب ، على حد تعبير العالم الأمريكى « كريسى موريسون » (١) .

ولما كانت هذه الصحائف قد فقدت قيمتها ، نتيجة لما حدث ، فقد أرسل الله تعالى « **طبعة جديدة** » من كتابه الى البشر ، وهذا الكتاب هو « القرآن الكريم » وهو يحمل ، من أجل صحته وكماله ، كل الميزات والخصائص التى لا توجد منها سوى لمحات فى الكتب القديمة .

وسوف أستعرض هنا هذه الخاصة دليلاً ثالثاً من أدلتى على صدق القرآن الكريم ، ولقد أنزل القرآن قبل عصر النهضة ، ولكن احداً من الناس لم يستطع ابطال شئ مما جاء به ، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر ، لعد ذلك ضرباً من ضروب الاحالة .

نزل القرآن فى عصر لم يكن الانسان يعرف عن الطبيعة الا القليل النادر ، وكانوا يرون أن الامطار تنزل من السماء وأن الأرض مستوية ، كالفراش وأن السماء سقف الأرض ، وكانوا يرون أن النجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة فى قبة السماء ، أو أنها قناديل معلقة فى الفضاء ! وكان أهل الهند الاقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرنى « البقرة الأم » ، وهى حين تقوم بنقل أرض من قرن الى آخر يحدث زلزال على البسيطة (٢) . وكان

(١) Man does not stand None, p. 120 ومن الثابت أن الاناجيل لم

تكتب فى حياة المسيح ، ولا حتى بعد وفاته بنصف قرن كما أن التوراة آخر ما كتب من عصر السبى البابلى (٥٨٦ - ٥٣٨ ق.م) (المراجع) .

(٢) شاعت هذه العقيدة الخرافية كذلك فى اوساط العوام وأشباه المتعلمين فى شرقنا العربى ، وان كان تيار المعرفة العامة الآن يقضى على مثل هذه الخرافات - (المراجع) .

العلماء يرون أن الشمس ساكنة بلا حراك ، وأن الأرض تدور حولها الى أن جاء « كوبر نيك » (١٤٧٣\١٥٤٣ م) ، وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس .

وهكذا تقدم العلم رويدا رويدا ، الى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الانسان ، فكشف عن أسرار كثيرة ، والآن لا نجد جزءا ما من معلوماتنا عن أجزاء الجسم ، وشعب العلم المختلفة ، الا وقد تغيرت نظرتنا اليه كلية ، وثبت بطلان عقائد العصر القديم .

ويدل هذا بكل صراحة على أنه لا وجود لكلام انساني تدوم صحته كليا . . لأن الانسان يتكلم عما هو معروف من المعتقدات والعلوم في عصره ، أنه سوف يسرد ما وجدته في زمنه ، سواء وقع كلامه في دائرة الشعور أو اللاشعور . ولذلك لا نجد كتابا مضى عليه حين من الدهر الا وهو مملوء بالاغلاط والأخطاء من جميع نواحيه ، نظرا الى الكشف الجديدة في كل الميادين .

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية ! فهو حق وصادق في كل ما قاله ، كما كان في القرون الغابرة ولم يطرأ على مقاله أى تغير رغم مضى قرون وعصور طويلة ، وهذا في نفسه دليل على أن منبعه عقل جبار يخطط بالأزل وبالأبد علما ، وهو يعلم جميع الحقائق في صورها التمهائية والحقيقية ، ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمكان والأحوال . ولو كان هذا الكلام صادرا عن بشر محدودى النظر والعلم لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة ، كما يحدث لكل كلام انساني في مستقبله .

إن المحور الحقيقى لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية ، فهو بذلك لا يدخل في دائرة أى من علومنا وفتوتنا الحديثة . ولكن حيث أنه يخاطب « الانسان » في حقيقة الأمر ، فهو يمس كل ما هو متعلق بالانسان ، وهى مسألة دقيقة ، وموقف جد خطير . . لأن المرء حين يكون جاهلا ، أو ناقص المعلومات حول مشكلة ما ، ثم يتجرا ليتكلم

من تلك المشكلة - ولو اجمالاً - فلا بد أن يكبو في حديثه ، وذلك حين يستخدم كلمات أو عبارات لا علاقة لها بالواقع والحقائق !

وعلى سبيل المثال : قال أرسطو استدلالاً على أسبقية الرجل على المرأة : ان فم المرأة يحوى أسناناً أقل عدداً من أسنان الرجل !! ومن المعروف أن هذا الكلام لا علاقة له بعلم الاجسام ، بل هو يدل على أن صاحبه جاهل بهذا العلم ، فان عدد الاسنان سواء لدى الرجل والمرأة . ولكن من المدهش حقاً أن القرآن - حتى فيما يمس أكثر العلوم الحديثة من ناحية أو أخرى - لا يحتوى كلمة ما أثبت العلم فيما بعد ، أنها من صنع رجل جاهل بذلك الموضوع ، وهذا يوضح صراحة أنه كلام موجود فوق الطبيعة ، وهو على معرفة تامة بكل شيء على حين لم يكن أحد يعلم شيئاً ، وهو يعلم أيضاً كل ما يجهله البشر في هذا العصر ، مع تقدم العلوم . .

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة التي تدل صراحة على أن القرآن الكريم يحيط بالحقائق التي لم تعرف الا في عصرنا هذا ، وأن كانت احاطته هذه ضمن اشارات غير مقصودة لذاتها .

ويجب أن أقول ، تمهيداً لهذا البحث : ان مطابقة كلمات « القرآن » والفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة موضوع البحث ، فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الاشارات القرآنية في ذلك الموضوع ، ولو أن دراسة المستقبل في موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كلياً أو جزئياً فليس هذا بضائر مطلقاً صدق القرآن ، بل معناه أن المفسر أخطأ في محاولته لتفسير اشارة مجملة في القرآن ، وائنى لعلى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر ايضاحاً لإشارات القرآن ، وأكثر بياناً لمعانيه الكامنة

تقسيم آيات القرآن :

ونستطيع أن نقسم الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب الى نوعين :

الأول : ما عرف عنه الانسان — حتى ذلك العصر — أمورا جانبية وسطحية .

والثانى : ما لم يعرف عنه ذلك الانسان شيئا ، مطلقا .

أن هناك أشياء كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية ، وكانت معرفتهم هذه ناقصة جدا بالنسبة الى المعرفة التى أتاحت للانسان اليوم ، بفضل الاختراعات الحديثة . وقد واجه القرآن فى هذا الصدد مشكلة كبرى . فهو لم يكن كتابا فى العلوم والهندسة ، ولذلك لو أنه كان بدأ يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس فيما بينهم حول ما جاء فى القرآن ، ولاستحال عندئذ بلوغ الهدف الحقيقى من نزول القرآن ، وهو اصلاح العقل الانسانى وتزكيته . فمن اعجاز القرآن أنه تكلم فى لغة العلم ، قبل كشفه كما أنه استعمل كلمات وتعابير لم يستوحشها أذواق الأقدمين ، ولا معارفهم ، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث !

النوع الأول :

(١) ذكر القرآن الكريم قانونا خاصا بالماء فى سورتين : هما الفرقان والرحمن . وجاء فى السورة الاولى :

« وهو الذى مرج البحرين . هذا عذب فرات ، وهذا ملح اجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » (١) .

وأما الآية التى وردت فى السورة الأخرى فهى تقول :

« مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » (٢) .

ان الظاهرة الطبيعية التى يذكرها القرآن فى هذه الآيات معروفة عند الانسان منذ أقدم العصور ، وهى أنه اذا ما التقى نهران فى

(١) الفرقان : ٥٣ .

(٢) الرحمن : ٢٠ - ٢١ .

ممر مائى واحد فماء أحدهما لا يدخل (أى لا يذوب) فى الآخر .
وهناك ، على سبيل المثال ، نهران يسيران فى « تشاتغام » بباكستان
الشرقية الى مدينة « أركان » ، فى « بورما » ، ويمكن مشاهدة
النهرين ، مستقلا أحدهما عن الآخر ، ويبدو أن خيطا يمر بينهما ،
حدا فاصلا ، والماء عذب فى جانب ، وملح فى جانب آخر . وهذا
هو شأن الانهار القريبة من السواحل ، فماء البحر يدخل ماء النهر
عند حدوث « المد البحرى » ، ولكنهما لا يختلطان ، ويبقى الماء
عذبا تحت الماء الأجاج . وهكذا شاهدت عند ملتقى نهري الكنج
والجامونا ، فى مدينة « الله أباد » ، فهما رغم التقائهما لم تختلط
مياههما ، ويبدو أن خيطا فاصلا يميز أحدهما من الآخر (١) .

ان هذه الظاهرة ، كما قلت ، كانت معروفة لدى الانسان
القديم . . . ولكننا لم نكشف قانونها الا منذ بضع عشرات من السنين
فقد اكدت المشاهدات والتجارب ان هناك قانونا ضابطا للأشياء
السائلة ، يسمى « قانون المط السطحى Surface Tension »
وهو يفصل بين السائلين ، لان « تجاذب » الجزيئات يختلف من
سائل لآخر ، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله فى مجاله ، وقد
استفاد العلم الحديث كثيرا من هذا القانون ، الذى عبر عنه القرآن
الكريم بقوله سبحانه : « بينهما برزخ لا يبغيان » . وملاحظة هذا
البرزخ لم تخف عن أعين القدماء ، كما لم تتعارض مع المشاهدات
الحديثة ، ونستطيع ، بكل ثقة ، ان نقول : ان المراد من « البرزخ »
انما هو « المط او التمدد السطحى » ، الذى يوجد فى المسائين ،
والذى يفصل أحدهما عن الآخر .

ويمكن فهم هذا المط السطحى بمثال بسيط ، وهو : انك لو
ملأت كوبا بالماء ، فانه لن يفيض الا اذا ارتفع عن سطح الكوب قدرا

(١) وهو ما كان يشاهد عند التقاء النيل بالبحر الابيض قبل بناء السد

العالى - (المراجع)

معينا . . والسبب في ذلك أن « جزئيات » السوائل عندما لا تجد شيئا تتصل به فوق سطح الكوب ، تتحول الى ما هو تحتها ، وعندئذ توجد « غشاوة مرنة » Elastic Film على سطح الماء ، وهذه الغشاوة هي التي تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة ، وهي غشاوة قوية لدرجة أنك لو وضعت عليها ابرة من حديد فانها لن تغوص ! وهذه الظاهرة هي ما يسمى بالمط السطحي ، الذي يحول دون اختلاط الماء والزيت ، والذي يفصل بين الماء العذب والملح .

(ب) وجاءت في القرآن بيانات مماثلة ، وعلى سبيل المثال :

((الله الذي رفع السموات ، بغير عمد ترونها)) (١) .

وهذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم ، فانه كان يشاهد عالما كبيرا قائما بذاته في الفضاء ، مكونا من الشمس والقمر والنجوم ولكنه لم ير لها أية ساريات أو أعمدة ، والرجل الجديد يجد في هذه الآية تفسيراً لمشاهدته ، التي تثبت أن الاجرام السماوية قائمة دون عمد في الفضاء اللانهائي ، بيد أن هنالك «عمدا غير مرئية» تتمثل في قانون « الجاذبية » Gravitation Pull ، وهي التي تساعد كل هذه الاجرام على البقاء في أمكنتها المحددة .

(ج) وقد قال القرآن عن الشمس والنجوم :

((وكل في فلك يسبحون)) (٢) .

وكان الانسان في العصر الغابر يشاهد ان النجوم تتحرك وتبتعد عن امكنتها بعد وقت معين . ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع دهشتهم واستغرابهم ، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت

(١) الرعد : ٢ .

(٢) يس : ٤٠ .

على هذه التعبيرات ثوبا جديدا ، فليس هنالك تعبير أروع ولا أدق من « السباحة » لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف !

(د) وقال القرآن الكريم عن الليل والنهار :

((يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثا)) (١)

ان هذه الآية الكريمة تشرح للانسان القديم سر مجيء الليل بعد النهار . . ولكنها تحوى اشارة رائعة الى دوران الارض محوريا وهو الدوران الذى يعتبر سبب مجيء الليل والنهار، طبقا لمعلوماتنا الحديثة . .

وسوف أذكر القراء - هنا - بأن من بين المشاهدات التى أدلى بها رجل الفضاء الروسى « جاجارين » ، بعد دورانه فى الفضاء حول الأرض : انه شاهد « تعاوبا سريعا » Rapid Succession للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحورى حول الشمس . وهناك بيانات كثيرة جدا من هذا القبيل فى القرآن الكريم .

النوع الثانى من الآيات :

وأما النوع الثانى من الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع ، فلم يعرف عنها الرجل القديم شيئا ما على الاطلاق ، وقد تناول القرآن تلك الموضوعات ، كاشفا الفطاء عن أسرار بالغة الأهمية ، ثبت صدقها بعد الدراسات الحديثة ، وسوف أعرض فى الصفحات التالية بعض الأمثلة من مختلف فروع العلوم الحديثة .

أولا : علم الفلك :

يطرح القرآن الكريم فكرة معينة ومحدودة المعالم حول بداية الكون المادى ونهايته ، وكانت هذه الفكرة غير معروفة لدى الانسان

(١) الاعراف : ٥٤ .

الجديد قبل قرن من الزمان . . أما الانسان القديم فلا مجال للقول بأنه كان من الممكن أن يتطرق عقله الصغير الى هذه الفكرة أو أجزائها ، وجاء العلم الجديد ليشهد على ما جاء في القرآن الكريم .

يعبر القرآن عن بداية الكون على النحو التالى :

((أو لم ير الذين كفروا ان السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما)) (١) .

أما عن نهاية الكون ، فهو يقول :

((يوم نظوى السماء كطى السجل للكتب)) (٢) .

فالكون ، بناء على تفسير هذه الآيات كان منضما ومتماسكا (الرتق : منضم الأجزاء) ، ثم بدأ يتمدد فى الفضاء ، ويمكن رغم هذا التمدد تجميعه مرة أخرى فى حيز صغير .

وهذه هى الفكرة العلمية الجديدة عن الكون ، فقد توصل العلماء ، خلال أبحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون ، الى أن «المادة» كانت جامدة وساكنة فى أول الأمر ، وكانت فى صورة غاز ساخن ، كثيف ، متماسك . وقد حدث انفجار شديد فى هذه المادة قبل سنة على الأقل ، فبدأت المادة تتمدد وتباعد أطرافها . ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمرا حتميا ، لا بد من استمراره ، طبقا لقوانين الطبيعة ، التى تقول : أن قوة «الجاذبية» فى هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجيا بسبب تباعدها (ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة) .

ويعتقد العلماء أن دائرة المادة كانت . . . ١ مليون سنة ضوئية فى أول الأمر . وقد أصبحت هذه الدائرة الآن ، كما يقول البروفيسور

(١) الانبياء : ٣٠ .

(٢) السابقة : ١٠٤ .

« ايدنجتون » : عشرة أمثال بالنسبة الى الدائرة الحقيقية . وهذه العملية من التوسع والامتداد مستمرة دون ما توقف . وكما يقول البروفيسور « ايدنجتون » :

« أن أمثال النجوم والمجرات : كنقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط ، وهو ينتفخ باستمرار ، وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها بحركاتها الذاتية ، في عملية التوسع الكوني » (١) .

وأما الأمر الآخر ، فقد ثبت لنا صدقه كما ورد في القرآن . فكان الانسان القديم يرى أن النجوم يبتعد بعضها عن بعض رأى العين ، ولكننا نراها متقاربة لبعدها الهائل عن الارض وهى فى حقيقة الأمر متباعدة بمسافات قياسية .

ولم يقف الأمر بنا عند هذا الحد ، بل عرفنا أيضا أن تلك الأجسام والأجرام التى كنا نشاهدها فى قديم الزمن ، وكنا نحسبها كاملة وسالمة ، أكثرها يحتوى على فضاء خال . وقد عرفنا أن كل جسم مادي يدور حول نظام له ، مثل النظام الشمسى الذى يدور حوله نجوم وسيارات كثيرة . ومن أمثلته نظام « الذرة » . فنحن نشاهد الفضاء الخالى فى « النظام الشمسى » ، ولكننا نعجز عن مشاهدة فضاء « النظام النووى » لصغر حجمه المتناهى .. حتى أنه يستحيل مجرد مشاهدة هذا النظام (٢) . ومعنى ذلك أن كل شئ حتى لو بدأ متماسكا - يحوى حيزا من الفضاء فى داخله . ومثاله : اننا لو جردنا الفضاء أو المكان (Space) من الذرات المادية فى الجسم الانسانى ، ذات الستة الأمتار ، فلن نجد الا كمية قليلة جدا من المادة ، تكاد تكون متناهية الوجود .

The Limitations of Science, p. 20.

(١)

(٢) انظر التفصيلات من « الذرة » فى الباب الرابع من هذا الكتاب .

وهكذا يرى علماء الطبيعة الفلكية (Astro-Physicists) أننا لو طوينا كل شيء في الكون بدون أن نترك للفضاء مكانا، فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفا من حجم الشمس !! ويمكن قياس سعة الكون من أن أبعد مجرة استطاع الإنسان الكشف عنها تبعد بضعة ملايين من السنين الضوئية عن النظام الشمسي .

٣ - لقد توصل العلماء، خلال أبحاثهم ، الى انه لابد في المستقبل القريب - وطبقا لقانون دوران الاجرام السماوية - أن يقترب القمر من الأرض ، حتى ينشق من شدة الجاذبية ، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء (١) . وسوف تحدث عملية انشقاق القمر هذه بناء على نفس القانون الذي يحكم المد والجزر في البحار . فالقمر هو أقرب جيراننا في الفضاء ، ولا يبعد عن الأرض غير ٢٤٠.٠٠٠ ميلا ، وهذا القرب يؤثر على البحار مرتين يوميا ، حيث ترتفع فيها أحيانا أمواج يبلغ طولها ستين مترا ، وأما تأثير هذه الجاذبية على سطح الأرض فيبلغ عدة بوصات .

أن المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماما لصالح أهل الأرض . ولو نقص هذا الفاصل الى خمسين ألفا من الأميال - على سبيل المثال - فسوف يحدث طوفان شديد في البحار ، وسوف تغطي أمواجه أكثر مناطق الأرض المأهولة ، وسوف يفرق كل شيء ، حتى لتتحطم الجبال من شدة تموج البحار ، وسوف تحدث شقوق مروعة على سطح الأرض من وطأة الجاذبية !!

ويرى علماء الفلك أيضا ان الأرض قد مرت بكل هذه الأدوار أثناء عملية التكوين ، حتى وصلت الى بعدها الحالي من القمر ، بناء على قانون الفلك ، وهذا القانون هو نفسه سوف يأتي بالقمر قريبا من الأرض مرة أخرى . . . ويرون أن من المتوقع حدوث هذا قبل

بليون سنة (١) . وعندئذ سوف ينشق القمر ، وسوف يتناثر حول
فضاء الأرض في صورة حلقة .

أليست هذه النظرية من أعظم موافقات العلم لتلك النبوءة
الواردة في القرآن الكريم ، حول انشقاق القمر ، حين تقترب
القيامة (٢) ؟

اقرأوا قوله تعالى :

**« اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا
سحر مستمر » (٣) .**

(١) هذا مجرد تعبير عن الامكان العلمى ، وحدوده الزمنية . وليس ببعيد أن
تقع هذه الظاهرة في وقت أقل مما حدده الفلكيون ، وكلامهم لا ينفي هذا .

(٢) رويت معجزة « انشقاق القمر » في الصحيحين وكتب الحديث الاخرى ،
بروايات صحيحة الاسناد ، ومنها ما رواه عبد الله بن مسعود (رضى الله تعالى عنه) ،
وهو من الشهود العيان لذلك الحادث الخارق ، ويرقم ذلك لا تزال مسألة
« انشقاق القمر » موضع خلاف شديد بين المفسرين والعلماء . . . فيرى الجمهور أنه
قد حدث فعلا ، « . . . وقال بعض المفسرين : سينشق » كما يرى صاحب التفسير
« الكبير » ، ومن القائلين به الامام الحسن البصرى ، وقد نقل عنه أبو حيان
الاندلسى القول التالى : « ان المعنى اذا جاءت الساعة وانشق القمر بعد النفخة
الثانية » . البحر المحيط ، ج ٨ - ص ١٧٣ وهناك فئة ثالثة من العلماء تؤثر
« التوفيق » بين الرايين فهم يرون أن معجزة شق القمر ، التى جاء ذكرها في
الاحاديث وقعت أمام جمع من المسلمين والمشركين « بمنى » فى مكة المكرمة . ويرى
الامام الغزالى والشاه ولى الله الدهلوى أنها وقعت « بتصرف البصر » . ومن
الممكن أن تكون قد حدثت فعلا نتيجة انشقاق فلكى . وهكذا ستكون الواقعة الاولى
آية للاحداث التى سوف يجرى وقوعها قرب القيامة ، وفيها يقول المفسر الهندى
الكبير العلامة شبير احمد العثماني في تفسيره للقرآن :

« لقد كانت معجزة شق القمر مثالا على أن كل شيء سينشق هكذا عند
اقتراب القيامة » .

(٣) القمر : ١ و ٢ .

ثانيا - علم طبقات الأرض :

١ - جاء في القرآن الكريم ، غير مرة ، ان الجبال أرسيت في الأرض حفاظا على توازنها ، ومن ذلك قوله تعالى :

« والقي في الأرض رواسي أن تميد بكم » (١) .

ولقد ظل العلم جاهلا بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية ، ولكن دارسى الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيدا تحت اسم « قانون التوازن » Isostasy ولا يزال العلم الحديث في مراحلہ البدائية بالنسبة الى أسرار هذا القانون ، ويقول الأستاذ انجلن :

« من المفهوم الآن أن المادة - الأقل وزنا - ارتفعت على سطح الأرض، على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية، وهى التى نراها الآن فى شكل البحار. وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض (٢) .

ويرى عالم آخر من باحثى الجغرافيا :

« وفى البحار ، أيضا ، توجد وديان مثل وديان البر ، ولكن وديان البحر أكثر غورا وأبعد عمقا من تلك التى توجد فى البر ، كما أنها بعيدة عن المجال التجريبي للإنسان . ويبدو أنه قد حدثت مغارات عميقة فى البحار . (ويبلغ عمق بعض هذه الوديان ٣٥ ألف قدم عن سطح البحر ، وهذا العمق أعلى من أعظم جبال العالم ارتفاعا . ويبلغ من عمق هذه الوديان البحرية أحيانا أنه لو وضعت فيها قمة « ايفرست » ، من سلسلة جبال « الهملايا » ، والتى يبلغ طولها ٢٩٠٠٠ ، فسيكون سطح البحر فوقها بمسافة ميل كامل) .

(١) لقمان : ١٠ .

(٢) C.R. Von Angien, Geomorphology, pp. 26-27, (N.Y., 1948)

« ومن الظواهر المحيرة أن هذه الخنادق البحرية توجد قرب السواحل البرية بدل أن توجد في أعالي البحار . ومن ذا يستطيع أن يعلم قدر ذلكم الضغط الهائل ، الذي أحدث هذه المفارات السحيقة في قاع البحار . ولكن قرب هذه الوديان من الجزر والبراكين يدل على أن هناك علاقة بين طول الجبال والخنادق البحرية . . وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق (في أجزائها المختلفة) . ويرى بعض كبار علماء الجغرافيا أنه من الممكن أن تكون الأغوار البحرية علامات على جزر قد تظهر في المستقبل وسببه أن الرواسب والمخلفات لكل من البر والبحر تترسب في هذه الوديان ، وقد سويت مناطق كبيرة من هذه الوديان بعد أن ملأتها هذه الرواسب . ولهذا من الممكن - بناء على عدم التوازن الذي يحدث عن هذه العملية - أن تبرز جبال جديدة في أي وقت ، أو تظهر سلسلة جديدة من الجزر ، ومما يؤكد ذلك أنه قد وجدت آثار الرواسب البحرية في بعض الجبال الساحلية .

وعلى كل حال ، لا توجد نظرية - في ضوء المعلومات الحالية للإنسان - لتقوم بتفسير الوديان البحرية ، وهذه المفارات الدائمة البرودة ، والتي توجد في ظلام حالك ، وتحت ضغط قدره سبعة أطنان على كل بوصة - لا زال ذلك كله لغزا أمام الإنسان ، كالأغاز البحر الأخرى (١) !! » .

٢ - وقد جاء في القرآن الكريم أنه قد مضى على الأرض زمن طويل سواها الله خلاله ، قال تعالى :

« والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها » (٢) .

وهذه الآية الكريمة تطابق مطابقة عجيبة أحدث الكشف العلمي ، وهو : « نظرية تباعد القارات » أو انتشارها

The World We Live In, N.Y., 1955.

(١)

(٢) النازعات : ٣٠ - ٣١ .

(Theory of Drifting Continents) ومغزى هذه النظرية : ان جميع القارات كانت فى وقت من الاوقات أجزاء متصلة، ثم انشقت وبدأت « تنقذف » ، أو تنتشر من تلقاء نفسها ، وهكذا وجدت قارات تحول دونها بحار واسعة .

وقد طرحت هذه النظرية فى العالم عام ١٩١٥ ، لأول مرة، حين أعلن خبير طبقات الأرض الألماني الأستاذ « ألفريد واجنر » أنه لو قربت القارات جميعا ، فسوف تتماسك ببعضها ، كما يحدث فى ألعاب الألغاز التى تسمى Jigsaw Puzzle ويمكن مشاهدتها فى الأشكال الثلاثة ، التى تبين هذه النظرية « أنظر ص ١٣١ » .

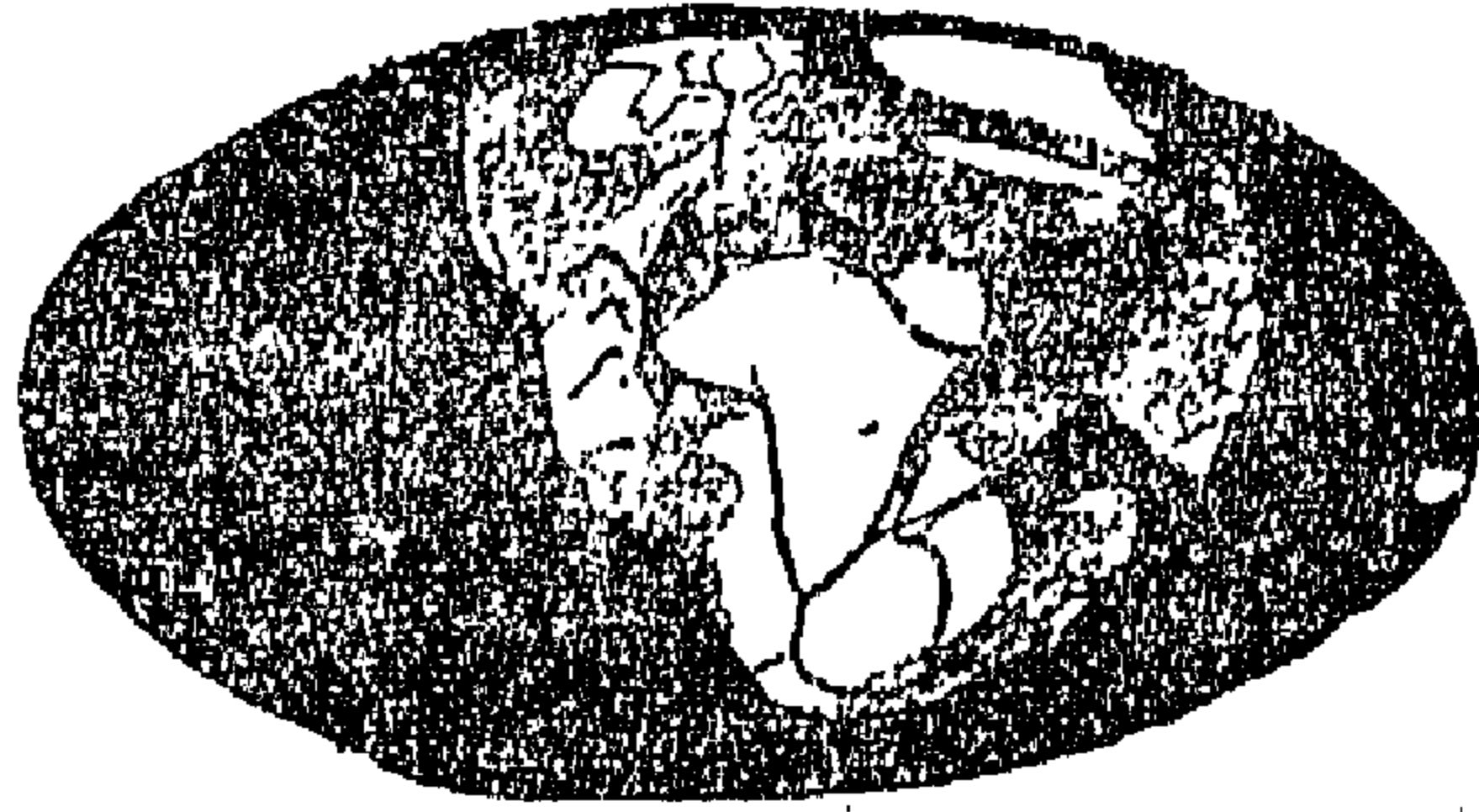
وهناك شبه كبير يوجد على سواحل البحار المختلفة ، كأن نجد جبلا متماثلة عمرها الأرضى (واحد) . وكأن نجسب فيها دوابا وأسماكا ونباتات متماثلة أيضا ! وهذا هو ما دفع عالم النباتات البروفيسور رونالد جود (Rand Good) فى كتابه : جغرافية نباتات الزهور (Geography of Flowering plants) الى أن يقول :

« لقد اتفق علماء النباتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متماثلة فى مختلف قارات العالم إلا اذا سلمنا بأن أجزاء الأرض هذه كانت متصلا بعضها ببعض فى وقت من الاوقات » .

وقد أصبحت هذه النظرية علمية تماما بعد تصديق « الجاذبية الحجرية » لها (Magnetism Fossil) ، فان العلماء اليوم - بعد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة - يستطيعون تحديد موقع أى بلد وجدت به هضبة تلك الحجارة فى الزمن القديم وقد أكدت هذه الدراسة فى « الجاذبية الأرضية » أن أجزاء الأرض لم تكن موجودة فى القديم بالامكنة التى توجد بها اليوم ، وانما كانت فى ذلك المكان الذى تحدده « نظرية تباعد القارات » ، وفى هذا الأمر يقبل البروفيسور بلاكيت (١) :

البروفيسور بلاكيت (١) :

(١) P.M.S. Blacket ، أستاذ (الطبيعة فى الكلية الملكية بلندن) - العرب .



الشكل الأول

يبين حالة الأرض في بداية أمرها قبل ثلاثمائة مليون سنة



الشكل الثاني

يبين حالة الأرض أثناء عملية انتشار وتباعد قاراتها وقد بدأت
هذه العملية قبل خمسين مليون سنة



الشكل الثالث

يبين الأرض بعد أن استقر أمرها قبل مليون سنة

« ان دراسة أحجار الهند تبين أنها كانت توجد في جنوب خط الاستواء قبل سبعين مليون سنة ، وهكذا تثبت دراسة جبال جنوب أفريقيا أن القارة الافريقية انشقت عن القطب الجنوبي قبل ثلاثمائة مليون سنة » (١) .

لقد ورد في الآية المذكورة آنفا لفظة « الدحو » ، ومعناه تسوية الشيء ونشره ، كما يقال « دحا المطر الحصى عن وجه الأرض » ، وهذا هو نفس مفهوم الكلمة الانجليزية « Drift » التي استخدمت في التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة .

لسنا نملك أمام هذا التوافق المدهش بين ما ورد في الماضي البعيد ، وما اكتشف بالامس القريب - إلا أن نؤمن بأن هذا الكلام صادر عن موجود يحيط علمه بالماضي ، والحال ، والمستقبل ، على السواء .

ثالثا - علم الأغذية :

ان قائمة الأغذية التي يقررها لنا القرآن الكريم تحرم (الدم) ، وكان الانسان غافلا عن أهمية هذا التحريم ، ولكن التحليلات التي أجريت للدم قد أكدت ان هذا القانون كان مبنيًا على أهمية خاصة بالنسبة الى الصحة فالتحليل يثبت أن (الدم) يحتوى كمية كبيرة من « حمض البوليك » Uric Acid ، وهو مادة سامة تضرب بالصحة لو استعملت غذاء . وهذا هو السر في الطريقة الخاصة التي أمر بها القرآن في ذبح الحيوانات . والمراد من « الذبح » في المصطلح الاسلامي هو الذبح بطريقة معينة حتى يخرج كل الدم من جسم الحيوان وهي أن تقطع الوريد الرئيسى . الذى يوجد في العنق فقط . وان نمتنع عن قطع الاوردة الاخرى ، حتى يمكن استمرار علاقة المخ بالقلب الى أن يموت الحيوان ، لكيلا يكون سبب الموت الصدمة

(١) انظر للتفصيل : ريدرز دايجست ، عدد يونية (حزيران) من عام ١٩٦١ .

العنيفة التى وجهت الى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية ، كالدماع ، أو القلب ، أو الكبد ، والمقصود من هذا هو أن الدماء تتجمد فى العروق ، وتسرى الى أجزاء الجسم ، لو مات الحيوان فى الحال - على أثر صدمة عنيفة - وهكذا يتسمم اللحم كله ، نتيجة سريان « حمض البوليك » فى انحاءة .

ولقد حرم القرآن لحم (الخنزير) ، ولم يعرف الانسان فى الماضى شيئاً عن أسرار هذا التحريم ، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب امراضاً كثيرة ، لأنه يحتوى أكبر كمية من « حمض البوليك » بين سائر الحيوانات على ظهر الارض ، أما الحيوانات الأخرى ، غير الخنزير ، فهى تفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول . وجسم الانسان يفرز ٩٠ ٪ من هذه المادة بمساعدة (الكليتين) . ولكن الخنزير لا يتمكن من اخراج « حمض البوليك » إلا بنسبة اثنين فى المائة (٢ ٪) ، والكمية الباقية تصبح جزءاً من لحمه ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل ، والذين يأكلون لحمه هم الآخرون ، يشكون من آلام المفاصل ، والروماتيزم (١) ، وما الى ذلك من الأمراض المماثلة (٢) .

ان الباحث فى القرآن الكريم يجد أمثلة لاحصر لها من هذا القبيل الذى أشرنا الى بعضه فى الصفحات الماضية ، وهى دليل

(١) ليكن مفهوما هنا أنه عند وصف تأثير أى غذاء ، لا يمكن إلا بيان تأثيره الذاتى من المنافع والمضار ، وليس معناه أن تأثير ذلك الغذاء سوف يكون واحداً لدى كل انسان يأكله . والسبب فى ذلك أن الانسان لا يأكل شيئاً بمفرده ، وإنما يتعلمه مع مأكولات من أنواع عديدة ، ولذلك قد ينقص تأثير ذلك الغذاء ، أو يزول فى بعض الاحايين ، نتيجة ردود الفعل والأغذية المضادة لتأثير ذلك الغذاء ، وعلى رغم ذلك كله فلا يمكننا وصف تأثير أى شئ إلا بما عرف عنه بصفته الفردية .

(٢) لعل العلة الأخرى فى تحريم الخنزير أساساً أنه حيوان قذر ، يأكل النجاسات ، فالى جانب التحريم القطعى النصى له ، يمكن أن نلاحظ فيه علة تحريم (الجلالة) التى تأكل النجاسة ، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكلها أو شرب البائها . انظر : بداية المجتهد لابن رشد - ٢ / ٤٨١ (المراجع)

قطعى على أن القرآن صادر عن عقل غير انسانى . وتؤكد البحوث التى اضطلع بها العلماء فى العصر الحاضر بطريقة مذهشة صدق تلکم النبوءة ، التى وردت فى القرآن الكريم .

((سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)) (١) .

وسوف أختتم هذا الباب بواقعة رواها العالم الهندى المغفور له الدكتور عناية الله المشرقى ، وهو يقول :

« كان ذلك يوم أحد ، من أيام سنة ١٩٠٩ . وكانت السماء تمطر بغزارة ، وخرجت من بيتى لقضاء حاجة ما ، فإذا بى أرى الفلكى المشهور السير جيمس جينز - الأستاذ بجامعة كمبردج - ذاهبا الى الكنيسة ، والانجيل والشمسية تحت ابطه ، فدنوت منه ، وسلمت عليه ، فلم يرد على ، فسلمت عليه مرة اخرى ، فسألنى : « ماذا تريد منى ؟ » فقلت له : « أمرين ، يا سيدى ! الاول هو : أن شمسيته تحت ابطك رغم شدة المطر ! فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور . فقلت له : « وأما الأمر الآخر فهو . ما الذى يدفع رجلا ذائع الصيت فى العالم - مثلك - أن يتوجه الى الكنيسة ؟ » وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ، ثم قال : « عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندى » . وعندما وصلت الى داره فى المساء ، خرجت « ليدى جيمس » فى تمام الساعة الرابعة ، بالضبط ، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني . وعندما دخلت عليه فى غرفته ، وجدت امامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي . وكان البروفيسور منهمكا فى افكاره . وعندما شعر بوجودي ، سألنى « ماذا كان سؤالك ؟ » ، ودون ان ينتظر ردى ، بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الاجرام السماوية ، ونظامها المدهش ،

وأبعادها وفواصلها اللامتناهية ، وطرقها ، ومداراتها وجاذبيتها ،
وطوفان أنوارها المذهلة ، حتى أننى شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله
وجلاله . وأما (السير جيمس) فوجدت شعر رأسه قائما ،
والدموع تنهمر من عينيه ، ويداه ترتعدان من خشية الله ، وتوقف
فجأة . ثم بدأ يقول « يا عناية الله ! عندما ألقى نظرة على روائع
خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الالهى وعندما أركع أمام
الله وأقول له : « انك لعظيم ! » أجد أن كل جزء من كيانى
يؤيدنى فى هذا الدعاء ، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين . وأحس
بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة ، أفهمت ، يا عناية الله خان
لماذا أذهب الى الكنيسة ؟ » .

ويضيف العلامة عناية الله قائلا : لقد أحدثت هذه المحاضرة
طوفانا فى عقلى ، وقلت له : « يا سيدى لقد تأثرت جدا بالتفاصيل
العلمية التى رويتموها لى ، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آى كتابى
المقدس ، فلو سمحتم لى ، لقراءتها عليكم » فhez رأسه قائلا : « بكل
سرور » ، فقرأت عليه الآية التالية :

**((ومن الجبال جدد بيض وحمر ، مختلف الوانها وغرايب
سود . ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك . انما
يخشى الله من عباده العلماء)) (١) . .**

فصرخ السير جيمس قائلا :

ماذا قلت ؟ - انما يخشى الله من عباده العلماء ؟ ! مذهش !
وغريب ، وعجيب جدا !! ان الأمر الذى كشفت عنه دراسة ومشاهدة
استمرت خمسين سنة ، من أنبا محمدا به ؟ هل هذه الآية موجودة
فى القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك ، فاكتب شهادة منى أن
القرآن كتاب موحى من عند الله .

ويستطرد السير جيمس جينز قائلا :

لقد كان محمد أميا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه،
ولكن « الله » هو الذي أخبره بهذا السر . . مدهش . . ! وغريب،
وعجيب جدا (١) .

(١) مجلة « نقوش » الباكستانية ، العدد الخاص بالشخصيات العالمية ،
شخصية (المرحوم - العلامة عناية الله المشرقي - ص ١٢٠٨ - ٩)

- والعلامة « المشرقي » هذا من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات
ويتمتع بشهرة كبيرة في الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة ، وهو أول
من عرض فكرة القنبلة الذرية ، غير أنه ترك الميدان العلمي ، فخاض غمار السياسة
نظرا لسوء حالة المسلمين في الهند (كان ذلك قبل الاستقلال) فأسس «حزب الخدام
الالهيين» khaa ksar Party وكان رجاله (المتطرفون) يؤمنون بوجوب إقامة الفر
الدينية بالقوة ، واتخذوا من « المعول » شعارا لحركتهم . ومن أهم مؤلفات العلامة
« التكملة » (لرسالة الاسلام) ، وقد طلبت منه « لجنة جائزة نوبل » أن
يترجم هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية لامطائه جائزة العلم ، ولكن العلامة رفض
الفكرة بشدة قائلا :

« لست في حاجة الى جائزة لا تعترف لجنتها باللغة الاردية العظيمة ! »

العرب .

الباب الثامن

الدين ومشكلات الحضارة

التشريع

السؤال الاساسى الذى يفرض نفسه عند البحث فى المشكلات الحضارية يكون دائما عن التشريع أو الدستور . فهذه المشكلات تنشأ عن علاقة الفرد بغيره ، والتشريع هو الذى يحدد هذه العلاقة على أساس من العدل والانصاف . ولكن من المذهل أن أقول : أن الإنسان لم يفلح الى الآن فى الكشف عن دستور حياته ! صحيح أن جميع الدول فى العالم قائمة على أسس الدستور ، ولكن هذه الدساتير مخففة تماما فى الوصول الى أهدافها ، بل لا يوجد هناك ما يسوغ وجود هذه الدساتير سوى أنها تنفذ بالقوة والاجبار .

ومن الحقائق المعروفة لرجال القانون أن جميع الدساتير الرائجة فى هذا العصر تفقد أية أسس علمية أو نظرية تجيز بقاءها . ويرى الاستاذ « فولر » L.L. Fuller أن « القانون لم يكشف عن نفسه بعد ! » . . وفولر هذا هو الذى وضع كتابا أسماه : « القانون يبحث عن نفسه » . « The Law in Quest of Itself »

وقد وضعت كتب لا حصر لها حول هذا الموضوع بالذات ، وبذلت عقول جبارة من علمائنا أوقاتها فى سبيل البحث عن مقومات القانون . وكما يرى محرر « موسوعة تشامبرز » لقد أعطى القانون أهمية علم هام ، حتى رفع من شأنه الى أقصى الحدود . ولكن كل هذه الجهود لم توفق فى الحصول على صورة متفق عليها من القانون . وقد تشعبت بهم السبل ، حتى قال خبير فى التشريع :

« لو طلبت من عشرة خبراء أن يعرفوا القانون ، فعليك ان تستعد لسماع أحد عشر جوابا !! » .

وقد انقسم خبراء التشريع الى مدارس فكرية كثيرة ، ولكننا - رغم تعدد هذه المدارس - قد لا نجد لبعض كبار علماء القانون فيها مكانا ! يقول البروفيسور « باتون » G.W. Paton عن « جون آستين » : « انه لا يصلح لاي من الأقسام العريضة Broad Divisions (١) » : للقانون

وأما السبب وراء هذا الاختلاف بين خبراء التشريع ، فهو عدم توصلهم الى أساس صحيح يمكن إقامة صرح التشريع عليه . انهم يجدون أن القيم التي يحاولون جمعها في هيكل الدستور يستحيل وضعها في ميزان واحد . ومثل رجل القانون في محاولته هذه كممثل الرجل الذي يزن مجموعة من الضفادع بمجموعة أخرى مماثلة فكلما وضع مجموعة في كفة وجد أن ضفادع الكفة الثانية قد وثبت الى الماء مرة أخرى !!

ومن ثم باءت كل الجهود - التي استهدفت الحصول على الدستور المثالي - بالفشل الذريع .

ويعبر الأستاذ « و . فريدمان » عن هذه المشكلة قائلا : « وانها لحقيقة : أن الحضارة الغربية لم تجد حلا لهذه المشكلة غير أن تنزلق من وقت لآخر ، من نهاية الى نهاية أخرى (٢) ! » .

وقد لاحظ « جون آستين » ان الدستور - أي دستور - لا يصبح نافذ المفعول الا اذا كانت تسنده قوة من ورائه ، فعرف

A Text Book of Jurisprudence, 1905, p. 5.

(١)

W. Friedman, Legal Theory, p. 18.

(٢)

« القانون فى كتابه ، الذى نشر لأول مرة عام ١٨٦١ ، على النحو التالى :

« القانون هو الحكم الذى أصدره «رجل رفيع المنزلة سياسيا
من هو أدنى منه فى المرتبة السياسية (١) » .

وقد أصبح التشريع بناء على هذا التعريف « مرسوما لصاحب
السيادة (٢) » . ولذلك شن المحدثون من العلماء حملة شديدة على
هذه الفكرة ، وقالوا : انه لا يمكن منع انحرافات الحكام الا اذا كان
« رضا الشعب العام » دعامة اساسية فى التشريع . . وانكروا أى
قانون أو دستور لا يحرز رضا الجماهير ، وترتب على ذلك أن ضوابط
كثيرة ، يجمع على صحتها وافادتها جميع أهل العلم ومعلمى الاخلاق
- لا يمكن تنفيذها ، لان الشعب لا يوافق عليها . وعلى سبيل المثال
لم يتمكن الأمريكيون من ادخال مشروع قرار يحرم الخمير ، لأن
الشعب لم يرض عنه . . كما اضطر البريطانيون الى ادخال تعديلات
هامة فى قانون عقوبة القتل ، واضطروا الى اباحة أنواع محرمة من
العلاقات الجنسية ، على الرغم من ضجيج المثقفين ، واحتجاج علماء
القانون !

وهناك مسألة أخرى اختلف حولها علماء القانون : هل القانون
قابل للتغير أو لا ؟

لقد لقيت نظرية « القانون الطبيعى » رواجا كبيرا فى القرون
الوسطى ، وفى العصور التى تلتها ، ومؤداها ان الطبيعة البشرية
هى المصدر الحقيقى للتشريع :

« فالطبيعة تطالب أن يكون حق السيطرة والحكومة لمطالبها
الطبيعية ودعائهم الرائدة . وقد أعطت الطبيعة هذه الدعائم

A Text Book of Jurisprudence, p. 56.

(١)

(٢) المرجع السابق - ص ٤ .

للإنسان في صورة « العقل » ، ولذلك لا بد من إقامة حكومة بقوة العقل (١) .

وقد أعطت هذه النظرية أساسا كونيا للشرعين ، فقليل : انه لا بد من دستور موحد صالح لكل العصور . وهذه هي نظرية علماء القرنين السابع والثامن عشر حول القانون . ثم جاءت مدرسة أخرى ادعت استحالة معرفة الأسس الكونية للدستور . ويقول (كوهلير) في هذا :

« ليس هناك دستور أبدي ، وأى تشريع يصلح لعصر ما ليس — بالضرورة — صالحا لعصر آخر ، وليس لنا الا ان نجهد انفسنا في البحث عن دستوريلائم كل حضارة ، على حدة . فقد يكون دستور ما خيرا لطائفة من الناس ، ثم يسبب هلاك طائفة أخرى (٢) » .

وقد قضت أفكار هذه المدرسة الأخيرة على تحكم القانون واستقراره ، فهي تدعو الإنسان الى فكرة التغيير العمياء ، والنسبية Relativism وهي لن تنتهي الى حد ما ، حيث انها تفتقر الى الأساس . وقد قلبت هذه الفكرة جميع القيم الإنسانية رأسا على عقب .

وهناك مدرسة أخرى تدعو الى احراز اكبر قدر من مقومات العدل في التشريع . ويكتب « اللورد رايت » Lord Wright معلقا على فكرة « دين راسكو باوند » :

« ان راسكو باوند يدعو الى فكرة — اطمأنت الى صدقها بعد جميع تجاربي ودراستي في القانون — وهي أن الهدف الأساسي والابتدائي للتشريع هو « البحث عن العدل » (٣) .

Boden Liener, Jurisprudence, p. 164.

(١)

Philosophy of Law, p. 5.

(٢)

Interpretation of Modern Legal Philosophies,

(٣)

N.Y. 1947, p. 794.

فاذا سلمنا بهذه النظرية واجهنا سؤالاً هاماً هو : « ما العدل؟ »
« وكيف يمكن تعيينه ؟ » وهكذا مرة أخرى ، نرجع الى « جون
آستين » !

ومرة أخرى نقف امام ظاهرة أن الانسان لن يستطيع الكشف
على أساس واقعي للتشريع ، رغم الجهود الجبارة التي بذلت في
هذا الحقل منذ مئات السنين ، ويزداد يوماً بعد يوم شعور بالمرارة
وخيبة الأمل بين رجال التشريع ، لأن الفلسفة الحديثة قد فشلت
في بحثها عن أهداف الدستور .

ويتساءل البروفيسور جورج هيتكروس باتون قائلاً :

« ما (المصالح) التي لا بد للدستور المثالي ان يحافظ عليها ؟
انه سؤال يتعلق « بالقيم » ، ويدخل في دائرة فلسفة التشريع .
وما أكثر ما نرجو من الفلسفة أن تساعدنا ، ولكن ما أقل ما هي
مستعدة لبذله في هذه السبيل . فقد فشلنا في الكشف عن «ميزان
للقيم » يمكن قبوله لدى جميع الأطراف .

والحقيقة أنه ليس هناك من أساس لشيء من النظم الا للدين،
ولكن الحقائق الدينية تصلح كعقيدة ووجدان ، ولا يمكن قبولها
على أساس الاستدلال المنطقي » (١) .

وقد نقل البروفيسور « باتون » رأياً لبعض علماء التشريع -
يقول : ان جميع محاولات الدراسة الفلسفية للبحث عن «الأهداف»
في فلسفة التشريع قد انتهت الى غير ما نتيجة (٢) . ويتساءل

A Text Book of Jurisprudence, p. 104.

(١)

(٢) المصدر السابق - ص ١٠٦ .

« باتون » : أهنأك حقا « قيم مثالية » تحدد الأسس عند تطوير التشريعات ؟ لم يتمكن المشرعون من التوصل الى هذه القيم حتى الان ، غير انها لا بد منها » .

ويستطرد قائلا :

« لقد استخرج أصحاب نظرية (القانون الطبيعي) القديمة أسسهم من الحقائق الالهامية في الدين . ولكن اذا ما أردنا نحن ان نأتى بتشريع علمانى ، فأين سنجد أساس القيم المتفق عليها ؟ » (١) .

وهذه التجربة المريرة تدعو الانسان للعودة الى الجهد الذى انحرف عنها منذ قرون . فقد كان الدين يسهم اسهاما فعلا فى وضع دساتير الزمن القديم . . . ويرى خبير القانون المعروف السير هنرى مين : أنه « لا يوجد مثال واحد فى القوانين ، التى تم تسجيلها كتابة من قانون الصين الى بيو ، الا وكان ذا علاقة بالطقوس الدينية والعبادات منذ بداية أمره (٢) .

لقد آن الأوان أن نعترف بالحقيقة القائلة : بأن البشر لا يستطيعون وضع دستور لهم بدون هدى الله . وبدلا من المضى فى الجهود التى لا تأتى بنتائج مثمرة ، علينا أن نعترف بالواقع الذى يدعونا اليه « الدكتور فريدمان » ، حين يقول :

« يتضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفة انه لا بد من هداية الدين لتقييم المعيار الحقيقى للعدل . والاساس الذى يحمله الدين لاعطاء العدل صورة عملية ينفرد هو به فى حقيقته وبساطته » (٣) .

(١) المصدر السابق - ص ١٠٩ .

Sir Henry Maine, Early Law & Custom, p. 5.

(٢)

Legal Theory, p. 450.

(٣)

اننا نجد في الدين جميع الأسس اللازمة التي يبحث عنها
المشرعون لصياغة دستور مثالي ، ولكي يتضح صدق ما نقوله ،
نأتي بالدراسة الوجيزة التالية في أهم مشكلات التشريع الانساني .

أولا - مصدر التشريع :

· وأول الأسئلة وأهمها بالنسبة لأي تشريع هو البحث عن مصدر
هذا التشريع : من الذي يضعه ؟ ومن ذا يعتمد عليه حتى يصبح نافذ
المفعول ؟

لم يصل خبراء التشريع الى اجابة عن هذا السؤال حتى الان .
ولو اننا خولنا هذا الامتياز للحاكم ، لمجرد كونه حاكما ، فليس هناك
اساس نظري وعلمي يميز تمتعه - هو أو شركاؤه في الحكم - بذلك
الامتياز ، ثم ان هذا التحويل من ناحية أخرى لا يجدي نفعا ، فان
اطلاق أيدي الحكام ليصدروا أي شيء لتنفيذه بوسيلة القوة - أمر
لا تطبيقه ولا تحتمله الجماهير .

ولو اننا خولنا سلطة التشريع لرجال المجتمع ، فهم أكثر جهالة
وحمقا ، لأن المجتمع - أي مجتمع - اذا نظرنا اليه ككل ، لا يتمتع
بالعلم والعقل والتجربة ، وهي أمور لا بد منها عند التشريع . فهذا
العمل يتطلب مهارة فائقة وعلم وخبرة ، وهو ما لا تستطيع العامة
من الجماهير الحصول عليه ، كما أنها ، وان أرادت ، لن تجد
الوقت الكافي لدراسة المشكلات القانونية وفهمها .

وللخروج من هذه المشكلة توصل رجال القانون الى حل وسط
وهو أن يقوم (البالفون) من أفراد المجتمع بانتخاب ممثلين لهم ،
وهؤلاء بدورهم يصدرون التشريعات باسم الشعب .

ومن الممكن أن ندرك حماقة هذا الحل الوسط ، حين نجد ان
حزبا سياسيا لا يتمتع الا بأغلبية ٥١ ٪ من مقاعد البرلمان يحكم

على حزب الأقلية ، الذى يمثل ٤٩ ٪ من أفراد المجتمع البالغين .
والأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل أن هذا الحل يحتوى على فراغ
كبير جدا تنفذ منه « أقلية » لتحكم على أغلبية السكان . وعلى
سبيل المثال ، فإن الحكومة التى تحكم الهند الآن ، قد وصلت الى
مقاليد الحكم عن طريق الانتخابات العامة الخمسية الثالثة ، التى
أجريت فى البلاد عام ١٩٦٢ . وقد فاز حزب « المؤتمر القومى »
بنسبة ٧٠ ٪ من مقاعد البرلمان ، فى حين أن نواب هذا الحزب لم
يحصلوا الا على ٤٠ ٪ من أصوات الشعب ، فى الانتخابات . وهذا
هو ما حدث فى الانتخابات الخمسية الاولى والثانية ، التى أجريت
قبل سنة ١٩٦٢ (١) ، وحصل حزب المؤتمر فى كليهما على أقل
من ٥٠ ٪ من مجموع الأصوات ! ولكنه رغم ذلك كان له الحق فى

(١) أجريت الانتخابات العامة الاولى والثانية فى عامى ١٩٥١ - ١٩٥٢ ،
وعام ١٩٥٧ ، كما أن الانتخابات العامة الرابعة أجريت فى عام ١٩٦٧ ، أى بعد
صدور هذا الكتاب ، وفى هذه الانتخابات « فقد المؤتمر » لأول مرة فى تاريخه ثمانى
ولايات : غلبت فيها أحزاب أو مجموعة نيابية ائتلافية . وقد سبق فى انتخابات
سنة ١٩٦٢ و (١٩٥٧) أن ألف الشيوعيون حكومة ائتلافية بالاستعانة ببعض
الاحزاب السياسية فى ولاية (كيرالا) . أما فى انتخابات ١٩٦٧ فقد انهزم حزب
المؤتمر هزيمة فادحة فى ولايات : كيرالا ، ومدراس ، وأوريسا ، وبيهار ، كما لم
يتمكن من احراز أكثرية مطلقة (تمكنه من تأليف الوزارة) فى ولايات البنغال
الغربية ، وأوتار براديش ، وراجستان وبنجاب .

ومعناه : أن حزب المؤتمر فقد الحكم على نصف الولايات (البالغ عددها ست
عشرة ولاية) . ورغم ذلك تمكن هذا الحزب من تشكيل الحكومة الاتحادية (المركزية)
لأن نوابه « الذين أحرزوا هذه المرة أقل من نصف مقاعد البرلمان : » يمثلون
الأغلبية بالنسبة الى عشرات من الاحزاب الاخرى المتنازعة فيما بينها على المصالح
والمناقشات الفقهية العقيمة ! ولو اتفقت هذه الاحزاب فيما بينها فكونت جبهة
نيابية ائتلافية (كما فعلته بعض الاحزاب فى الولايات الاقليمية) لاحتلت مقاعد
الحكم ولاضطر نواب حزب المؤتمر الى الجلوس فى مقاعد « المعارضة » !

ويتضح من هذا جليا : « كيف تنفذ أقلية فى الفراغ الدستورى الموجود فى
تشريعاتنا فتحكم على الاغلبية ! » - العرب .

تشكيل الحكومة ، لأن أصوات الناخبين الأخرى كانت موزعة بين نواب الأحزاب (المعارضة) . ولم تكن بطولة حزب المؤتمر إلا في أنه أحرز أصواتا أكثر من أى حزب آخر « على حدة » .

ولاستثنى من هذه القاعدة إلا الانتخابات المزعومة، التى تجرى فى الدول الشيوعية فيفوز زعمائوها بأرقام خيالية للأصوات ! وهكذا نقف مرة أخرى أمام ظاهرة البحث عن أساس للقانون ومصدره .

والدين يستجيب لهذا التحدى الخطير ، الذى قد يدمر سعادة البشرية كلها . . أنه يقول : أن مصدر « التشريع » هو « الله » وحده خالق الأرض والكون فالذى أحكم قوانين الطبيعة هو وحده الذى يليق أن يضع دستور حضارة الإنسان ومعيشتة . وليس هناك من أحد غيره سبحانه ، يمكن تخويله هذا الحق .

أن هذا الجواب معقول وبسيط لدرجة أنه يصرخ قائلا ، لو استطعنا أن نسمع نداءه : هل هناك أحد غير الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يسوى هذه المشكلة المصيرية ؟

لقد وصلت بنا هذه الإجابة الى مكانها الحقيقى من التشريع والمشرع ، بعد أن استحال علينا المضى خطوة ما فى ظلام الضلالة عن الهدى الحقيقى .

انه لا يمكن قبول انسان حاكما ومشرعا للانسان ، ولا يتمتع بهذا الحق الا خالق الانسان ، وحاكمه الطبيعى : الله .

ثانيا - العناصر الأساسية للتشريع :

ومن أهم الاسئلة لدى علماء القانون تحديد عناصر التشريع . . هل هى كلها اضافية ، أو أن هناك عنصرا أو عناصر أساسية لا يمكن الاستغناء عنها فى أى دستور عند تعديله ، أو تجديده ، أو تغييره ؟

لم يستطع خبراء التشريع الوصول الى اتفاق في هذا الصدد ، رغم البحوث الطويلة التي أجريت في هذا الباب . وهم يسلمون ، نظريا ، بأنه لابد من عنصر في التشريع يتمتع بالدوام والابدية ، مع عناصر أخرى تتصف بالمرونة، فيمكن الاستغناء عنها عند الضرورة.

ويرون أيضا ان افتقار الدستور الى أحد العنصرين : « الأبدى والاضافي » سوف يكون مصدر شقاء دائم للبشرية . وقد عبر عن هذه الحالة أحد قضاة الولايات المتحدة الامريكية ، وهو القاضي كاردوزو Caradozo على النحو التالي :

« ومن أهم ما يحتاج اليه التشريع اليوم : أن نصوغ له فلسفة للتوفيق بين الرغبات المتحاربة حول ثبات عنصر ، وتغير عنصر آخر » (١) .

ويقول خير آخر في شئون القانون، وهو البروفيسور «راسكو باوند» :

« لا بد من عنصر التحكم في التشريع ، ولكن هذا لا يعنى ان يصبح التشريع جامدا . ولذلك بذل الفلاسفة قصارى جهودهم للتوفيق بين مقومات التحكم والتغير في هذا المجال (٢) .

والحق أنه لا يمكن التوصل الى أساس يميز بين عناصر القانون الذى وضعه الانسان ، بعضها وبعض ، فكل عنصر يدعى أنه صالح للدوام يلزمه ان يقدم دليلا على ذلك ، وهو عاجز تماما عن الاتيان بذلك الدليل ، فقد نرى اليوم عنصرا من الدستور صالحا للدوام ، ثم يأتى رجال الغد يعلنون الاستغناء عن ذلك العنصر من دستورهم

The Growth of Law.

(١)

Interpratation of Legal History, p. 1.

(٢)

ما دام الدستور يصاغ بناء على رغبات الشعب ، فقد لا يعجبهم ذلك ، أو يرونه قد فقد صلاحيته بمضى الزمن .

أما الحل الوحيد لمشكلتنا فهو « **الشرع الإلهي** » الذي يمنحنا جميع العناصر الأساسية الضرورية ، فهذا الشرع يضع جوانب أساسية جذرية ، ثم يترك الباقي مفتوحا للاجتهادات المختلفة ، بحسب الزمان والمكان .

انه يحدد العناصر الأساسية وغير الأساسية بالنسبة الى دستور ما . ثم هو الى جانب ذلك يتصف وتتمتع بدليل الترجيح والتفضيل لصالحه ، حيث انه من عند الله سبحانه وتعالى ومن ثم لا بد لنا أن نعتبره حقا وأن نعتده الكلام الأخير في الموضوع ، الذي لا كلام بعده . وتلك ميزة هامة في التشريع الإلهي ، لا يستطيع الانسان أن يأتي بديل عنها .

ثالثا - تحديد مفهوم الجريمة :

ومما لا بد أن يتوفر لأي دستور أن يكون لديه دليل معقول يستند اليه . لاعتبار عمل ما « جريمة » . ويقول الدستور الذي وضعه الإنسان . أن الجريمة هي : « كل عمل يضر بالأمن العام ، أو نظام الحكم القائم » ، والتشريع الانساني لا يجد أساسا غير هذا لاعتبار عمل ما جريمة . وقد دفع هذا الأساس القانون الجديد الى اقرار أن جريمة « الزنا » ليست بجريمة ، الا اذا تمت جبرا أو اكراها لاحد الطرفين . فالقانون الجديد لا يعتبر « الزنا » جريمة ، وانما الجريمة الحقيقية عنده هي الجبر والاكراه الذي سبق « الزنا » .

ان الاستيلاء على اموال أحد المواطنين حرام ، وكذلك اهدار عصمتهم والنيل من عفتهم . ولكن اموال انسان من الناس تصبح مباحة لرجل آخر ، اذ تم ذلك برضاء (الطرف الاول) - صاحب

المال! وكذلك يرى القانون أن عصمة أحد الطرفين تباح للثاني مادام راضيا ، فعند رضا الجانبين يصبح القانون حاميا لهما ، ومدافعا عنهما ، ولو حاول « طرف ثالث » التدخل في الأمر ، فهو الذي سوف يعد مجرما ، وليس الطرفان الأولان !

أن جريمة « الزنا » تفشى فسادا كبيرا في المجتمع ، فهي تخلق مشكلات أطفال الحرام (غير الشرعيين) ، وتضعف روابط الزواج ، وهي كذلك تصدر عن عقلية تفضل الذات السطحية في الحياة ، وتربى عقلا خائنا ، وتخلق السرقة واللصوص ، وتروج الاغتيالات والانتحار والخطف ، **ومن ثم تفسد المجتمع كله** ، ولكن القانون - رغم ذلك - لا يستطيع تحريمها ، فهو لا يجد أساسا لتحريم « الزنا » الذي تم بالرضا المتبادل !

ولم يستطع القانون الجديد أن يحرم « الخمر » ، لأنه يؤمن بأن الأكل والشرب حق من الحقوق الطبيعية للإنسان ، وهو حر في اقتناء كل ما يريد أن يأكله ويشربه ، وليس للقانون أن يتدخل في حقوقه الطبيعية ، ومن ثم لم يكن شرب الخمر والسكر الذي يتبعه جريمة في الواقع ، إلا إذا اعتدى شارب الخمر على أحد المواطنين في هذه الحالة من السكر ، أو خرج إلى الشارع وهو سكران ، فالجريمة ليست هي حالة السكر ، بل الاعتداء على الآخرين في تلك الحالة !

والخمر تضر بالصحة ، وتبدد أموال الناس ، وتؤدي بدمنيها إلى كوارث اقتصادية محققة ، وتضعف الشعور الأخلاقي ، حتى أن الإنسان يتحول إلى حيوان رويدا رويدا . والخمر خير مساعد للمجرمين ، فهي تشمل الاحساسات اللطيفة ، حتى يستطيع الإنسان اقتراف أية جريمة من السرقة والقتل ، وهدر العصمة . ولكن القانون الإنساني رغم هذه المعايير الشنيعة - لم يتمكن من تحريم الخمر ، لأنه لا يجد جوابا يسوغ تدخله في حق من حقوق الإنسان الطبيعية !!

ولن نجد حلا لهذه المشكلة الا في قانون الله ، أن قانونه يبين رضا حاكم الكون ، فان كون أى قانون قانون الله يحمل معه أولوية تنفيذه ، ولا يحتاج بعد ذلك دليلا آخر . وهكذا يسد القانون الالهى فجوة عميقة ، فتمكن بعدها من احالة أى عمل الى دائرة القانون .

رابعا - القانون والأخلاق :

لا يستطيع القانون ان يستقل بذاته فى أى وقت من الاوقات ، بل لا بد له أن يقترن بالأخلاق . ولتوضيح هذه النقطة نقول :

١ - لو طرحت قضية أمام القانون - على سبيل المثال - وتعتمد الفريقان وشهودهما الكذب فلم يتبين الصدق أمام القاضى فسوف يقضى على العدل ، ولن يتمكن القاضى من الحصول عليه مهما حاول . ولذلك كان لا بد من قانون آخر « وراء القانون » ، يحرك الناس ، ويحملهم على الادلاء بالبيانات الصادقة للوصول الى العدل . وقد اعترفت جميع محاكم العالم بهذا المبدأ ، حتى انها تلزم كل شاهد (أن يقسم بالله ان يقول الحق) قبل الادلاء بشهادته . . وهو دليل واضح يؤكد أهمية العقائد الدينية لصون حرمة القانون . بيد ان المجتمع الجديد قد قضى على أهمية المعتقدات الدينية ، حتى اصبحت ايمان المحاكم اضحوكة ، وتقليدا لا يأتى بنفع ، أى نفع !

٢ - ومما لا بد منه أن يكون أى « عمل » يعاقب عليه القانون (جريمة) فى نظر المجتمع أيضا ، وأى بند من قانون مكتوب لا يمكنه أن يخلق نفسية فى المجتمع ، ترى فى عمل ما جريمة ، كما يراه القانون اذ لا بد من أن يشعر مرتكب الجريمة بأنه « مذنب » ويعتبره المجتمع مذنباً . ويقبض عليه رجال الشرطة بكل اقتناع ، ثم يصدر قاضى المحكمة - وهو فى غاية الاطمئنان - حكما ضد ذلك الرجل . ولذلك كان لا بد أن تكون كل جريمة « ذنبا » أيضا . وهذا هو ما يراه اصحاب المدرسة التاريخية من رجال القانون :

« أن أى تشريع لن يصيب هدفه إلا اذا كان مطابقا للاعتقادات السائدة عند المجتمع الذى وضع له ذلك القانون ، ولو لم يطابق التشريع اعتقادات المجتمع ، فلا بد من فشله » (١) .

هذا الرأى الذى عبرت عنه « المدرسة التاريخية » لرجال القانون غير صائب فى مغزاه الحقيقى الذى يرمى اليه اطلاقا، ولكنه ذو صدق خارجى .

٣ - ان خوف الشرطة والمحكمة لا يكفى لدرء الجرائم ، وانما لابد أن يكون هناك وازع فى المجتمع يمنع الناس من ارتكاب الجرائم لان الرشاوى والمحسوبيات ، وخدمات المحامين البارعين ، وشهود الزور - كل هذه العوامل تكفى لحماية المجرم من أية شرطة أو محكمة انسانية ، والمجرم لا يرهب عقابا ، أى عقاب ، لو استطاع ان يفلت من أيدي القانون .

ان الشرع الالهى يستوفى كل هذه الامور ، فعقيدة « الآخرة » التى يحملها الشرع الالهى، هى خير وازع عن ارتكاب الجرائم، وهى تكفى لتبقى احساسا بالجريمة واللوم يعتمل فى قرارة ضمير الانسان لو ادلى بشهادة كاذبة امام القاضى .

لقد اقيم فى فناء محكمة « ويسترن سركىيت » نصب من حجر، يذكر الناس بشاهد ادلى بشهادة زور فى فناء الدار، ثم قال : « وان كنت كاذبا ، فليمتنى الله ، هنا ، فى الحال ! ولم تكذ هذه العبارة تخرج من فم الشاهد حتى سقط على ساحة الارض ، ومات فى الحال » (٢) !

وهناك وقائع أخرى من هذا النوع حدثت لشدة احساس اصحابها باللوم والذنب .

A Text Book of Jurisprudence, p. 16.

(١)

Sir Alfred Denning, The Changing Law, p. 103, (1953).

(٢)

ان قرارات البرلمانات لن تخلق فى الجماهير شعورا بشناعة فعل ما ، الا اذا كانت معتمدة من القانون الالهى ، وراسخة فى معتقدات المجتمع .

والوازع الذى يمنع من ارتكاب الجرائم ليس هو الدين فى حد ذاته ، فانه لا يقدم لنا تشريعا فحسب ، وانما يخبرنا أن صاحب هذا التشريع يشاهد كل أعمالنا من خير وشر .. فنياتنا وأقوالنا وحركاتنا بأكملها تسجل بواسطة أجهزة هذا المشرع ، وسوف نقف بعد الممات امامه ، ولن نستطيع أن نفرض ستارا على أدنى أعمالنا.

ولو اننا استطعنا الهروب من عقاب محكمة الدنيا ، فلن نتمكن بالتأكد - من أن نفلت من عقاب صاحب التشريع السماوى .

ولو اننا حاولنا تفادى عقاب الدنيا . فسوف ندوق عذابا مضاعفا يوم القيامة ، يفوق عقاب الارض ملايين المرات ، قسوة وعنفا .

خامسا - القانون والفرد :

ورد فى التاريخ الانجليزى ان الملك ((جيمس الاول)) اصدر مرسوما يقول بأنه (الملك) يستطيع أن يحكم البلاد مطلق العنان ، كما ان من حقه اصدار احكام دون أن تخضع للمرافعة أو الاستئناف فى المحاكم .

وكان رئيس القضاة حينئذ هو القاضى الشهير ((اللورد كوك)) Coke وكان شديد التمسك بالدين حتى اعتاد ان يقضى ربع يومه فى الكنيسة وذهب اللورد كوك ليقول للملك « ليس من حقك أن تحكم فى أى شىء ولا بد لجميع القضايا ان تذهب الى المحكمة للنظر فيها » .

فقال له الملك : « أننى أرى - وهو ما سمعته - أن القوانين قد وضعت على أساس العقل ، فهل أنا أقل من قضاتك عقلا » ؟

فأجابه رئيس القضاة : « أنه مما لا شك فيه أنكم تتمتعون بعلم وكفاءة مثاليين ، ولكن القانون يتطلب تجربة طويلة ودراسة عميقة . وفوق ذلك هو الميزان الذهبى الذى يزن حقوق الرعية ، وهو الذى يصون شخصيتكم » .

فغضب الملك بشدة وقال : « هل أنا أيضا أخضع للقانون ؟ أن هذا المقال بمثابة تمرد وخيانة ! »

وكان جواب « اللورد كوك » أن ذكر الملك برأى « براكتون » Bracton الذى قال :

« ان الملك لا يخضع لأحد من الناس ، ولكنه خاضع لله وللقانون » (١) . وهنا - لو جردنا القانون من « الله » ، فلن نجد أساسا معقولا للقول بأن : « الملك خاضع للقانون » - لأن الذين صاغوا القانون ، وأصدروه بإرادتهم ، يستطيعون - فى الوقت نفسه - تعديله وتغييره اذا ما أرادوا ذلك ، فكيف - إذن - سيخضعون لذلك القانون (٢) ؟ ..

(١) المرجع السابق ، ص ١١٧ - ١١٨ .

(٢) ومن أمثلته ما حدث فى الهند عقب الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧ ، بعد أن أفلحت مجموعات نيابية التلافية فى الحصول على مقاعد الحكم فى كثير من الولايات الإقليمية ، فحينئذ أجرت الحكومة المركزية (التى يحكمها حزب المؤتمر) تعديلات هامة فى كثير من المجالات ، لتقييد حركة الحكومات (المعارضه) ، ومنها - على سبيل الذكر - منع تقديم الهبات والمعونات المالية الى الاحزاب السياسية . وكانت هذه المعونات المقدمة الى الاحزاب السياسية معفاة من الضرائب ، فضلا عن أصحابها كانوا يتمتعون بتسهيلات عديدة عند دفع الضرائب . وكان حزب المؤتمر ، كحزب حاكم يحصل على هذه الهبات بأكثر من ثمانين فى المائة ، بينما كانت الاحزاب الاخرى لا تتمتع الا بنسب ضئيلة جدا من هذه المعونات ، ولكن بعد

ان الانسان اذا كان هو المشرع ، فهل يحل محل القانون والاله
معا ، وحينئذ يستحيل احتواؤه داخل دائرة القانون ، بأى صورة
من الصور .

وقد أدى هذا العيب فى القوانين الحديثة الى أنه — على الرغم
من أن كل الجمهوريات تقر مبدأ المساواة المدنية — فان هذه المساواة
لا تنفذ فعلا فى أية دولة ، فلو انك كنت تريد أن تحاكم رئيس
جمهورية الهند ، أو أحد حكام الولايات ، فلن تستطيع ذلك ، كما
تستطيع أن تحاكم المدنيين العاديين ، اذ كان لابد لك من الحصول
على موافقة الدولة . قبل الذهاب الى المحكمة ، فقد أضفى الدستور
الهندي (فى المادة ٣٦١) على رئيس الجمهورية ونائبه وحكام
الولايات هالة وامتياز ، بحيث لا تمكن محاكمتهم الا بعد موافقة
البرلمان المركزى . وكذلك لا بد من الحصول على موافقة الحكومة ،
لمحاكمة الوزراء !

نجاح الاحزاب الأخرى فى الوصول الى مقاعد الحكم فى كثير من الولايات تحولت
مصالح الرأسماليين الى الحكام الجدد فأغدقوا على أحزابهم المعونات ، مما آل
بأضرار بالغة بالنسبة لحزب المؤتمر ، فمنعت الحكومة المركزية التسهيلات التى
كانت تقدم الى أصحاب الهبات ، وبالتالي حرمت الاحزاب الأخرى من جنى فوائد
كبيرة ! لقد أصبح نفس الشيء الذى كان مباحا فى الماضى — محظورا فى الحال ، لان
مصالح واضعى الدستور (الذين يتمتعون بأغلبية ضئيلة تمكنهم من فرض آرائهم
على الاقلية الكبيرة) لم يعد لها وجود ، بسبب تصارييف الزمن !

ومنها كذلك أن « الجمعية التشريعية » فى ولاية (أوريسه) الهندية أصدرت
قانونا يحرم على المواطنين تغيير الديانة ، وهذا — كما هو واضح بكل جلاء — لمنع
الهندوس ، وخصوصا المنبوذين ، من قبول الاسلام !! وهذا البند المستحدث
يتعارض تعارضا كليا ، بل يصادم الدستور الهندي الذى يعطى للمواطنين الحرية
الكاملة فى الشؤون المماثلة . ولكن هذا التشريع الجديد جاء ليرضى الرجعيين
الهنداك . وهؤلاء يشجعون ، علانية ، مثل هذه الحركات الشنيعة لمنع الاهالى من
قبول الدعوة الاسلامية ، وهؤلاء الرجعيون هم المسئولون عن الاضطرابات الطائفية
التي يذهب ضحيتها الكثيرون من المسلمين المسالين ، ثم لا يقدم مثيرو الشغب
والفساد الى المحاكمة — اطلاقا — لتمتعهم بعطف ووصاية الرجعيين (العرب) .

والأمر لا يقف بنا عند هذا الحد ، بل تنص المادة ١٩٧ ، من (لوائح العقوبات الهندية) على : « أن قاضيا ، أو وكيلًا للنسابة العامة ، أو أحد الموظفين الحكوميين (من الذين لا يجوز فصلهم من الخدمة الا بعد موافقة الحكومة المركزية) لو اتهم أحدهم بارتكاب جريمة ما ، فليس من شأن المحاكم النظر في قضية أحدهم ، الا بعد الحصول على موافقة الحكومة المركزية أو المحلية . التي تتعلق بها وظيفة المتهم المطلوب محاكمته » !

وبكلمة أخرى : لو أردت أن تحاكم سياسيا كبيرا ، أو أحد أعضاء السلطة التنفيذية العليا - فعليك أن تسأل هؤلاء أنفسهم : « هل تبيحون لنا محاكمتكم » ؟ !

وليس هذا عيب الدستور الهندي بالمرّة ، بل هو عيب القانون البشرى بعامة ، وهو عيب موجود ، حيث يوجد هذا النوع من الدساتير الوضعية .

ليس من الممكن أن يتحقق العدل الكامل الا في ظل القانون الالهي حيث يكون كل انسان مساويا للآخرين امام الدستور . وحيث تمكن مقاضاة أية سلطة سياسية وتنفيذية ، كما يحاكم ابن الشعب لأن الحاكم في هذا القانون هو « الله » سبحانه وحده ، والمحكومون هم سائر أفراد المجتمع دون أدنى تمييز (١) .

(١) لذلك أمثلة رائعة في العصور الاولى لخلافتنا الاسلامية ، حتى كان العاديون من أفراد الشعب يحتكمون الى القضاة ضد الحلفاء وعمال الاقاليم وعمال رجال الدولة . بل وهناك أمثلة في العهود القديمة جدا ، ومنها ، على سبيل المثال وليس الحصر ، أن أفراد الشعب العاديين احتكموا الى المحاكم - عدة مرات ضد الامبراطور المسلم المغولي « جهانكير » ابن الامبراطور « أكبر » - الذي حكم الهند في القرن السابع عشر - (المعرب) .

أقول : ليس هذا أثرا من آثار المبادئ الحمديّة السامية ، وانعكاسا لقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدوية في سمع الزمان : « أتشفعون في حد من حدود الله ؟ » والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ؟ (المراجع) .

سادسا - القانون والعدل :

ان أهم وأكبر أساس في هيكل القانون هو «العدل» الذي يبحث منه خبراء القانون من قرون طويلة ، وهو موجود في القانون الالهي في اتم الصور واكملها . والقول بأن : عدم اهتداء الانسان الى اساس العدل يرجع الى أن بحوثنا لازالت ناقصة ، وتتطلب المزيد من البحث - قول باطل . فهذا الكلام يشبه انه ليس في استطاع انسان أن يحصل على هذا الاساس أبدا .

لقد قطعنا شوطا كبيرا في مضمار البحوث الطبيعية بنتائج باهرة في كل مجال ، ولكننا ، رغم جهودنا المضاعفة في البحث عن القوانين المدنية ، لم نحرز نجاحا ، ولو بنسبة واحد في المائة من الدرجة المطلوبة . وهذه الخيبة تؤكد أن اخفاقنا لا يرجع الى نقص الجهود وإنما سببه الحقيقي أن هذا الامر خارج - على الاطلاق - عن نطاق بحث الانسان .

لقد صور الانسان اول صورة فوتوغرافية في عام ١٨٢٦ م . وقد بذل العالم الفرنسي ، الذي اخترع الجهاز ، ثمانى ساعات متواصلة لتصوير شرفة المنزل . . . والآن تستطيع آلات تسجيل الأفلام أن تصور أكثر من ألف صورة في الثانية الواحدة ، ومعنى ذلك اننا نستطيع اليوم أن نصور أكثر من ستين مليون صورة ، في نفس الوقت الذي استغرقتة عملية التصوير الاولى ، أى أن سرعتنا قد زادت ستين مليون مرة ، في ١٤٠ سنة فقط !

وعند بدء هذا القرن العشرين لم يكن يوجد في شوارع الولايات المتحدة غير أربع سسيارات ، على حين تهرق الآن على شوارعها الفسيحة عشرة ملايين سيارة .

ويمضى الاعجاز العلمى بالانسان الى أن يقسم الزمن الى

١

١٠٠٠٠٠٠٠

جزء من اجزاء الثانية ! وتستطيع المراصد العلمية أن تكشف عن
ادنى فارق فى حركة دوران الارض - حتى ولو بلغ فى مدته

١

١٠٠٠٠٠٠٠

لقد اخترعنا آلات حساسة يمكنها الكشف عن فارق الوزن
الذى يطرأ على كتابة (حرفين) بالحبر ، على ورقة من اوراق
موسوعة من ثلاثين مجلدا !

هذه هى حال الانسان فى حقل البحث العلمى ، على حين لم
يتمكن من احراز أى تقدم - ولو بمقدار (بوصة) - فى مجال
القوانين المدنية .

وسوف أورد هنا بعض الامثلة من مختلف مجالات الحياة ،
لنتبين مدى صدق القول : بأن الدستور الالهى هو وحده الاساس
الحقيقى ، الذى يصلح لأن يكون مصدرا لقوانين الحياة الانسانية .

المرأة والمجتمع :

ان الاسلام لا ينظر الى المرأة والرجل نظرة واحدة ، فهو يحرم
العلاقات الحرة بينهما ، وقد أخذ العلماء عند بدء العصر العلمى
يسخرون من هذه القوانين ، وأطلقوا عليها : « مخلفات العصر
الجاهلى » .

وقالوا بشدة : أن الرجل والمرأة متساويان ، ويرثان النسل
الانسانى بطريقة متساوية ، وسوف تكون جريمة كبرى لو أقمنا
العقبات فى طريق علاقاتهما الحرة .

وقد أنتجت هذه الفكرة مجتمعا جديدا في الغرب . بيد أن التجارب الطويلة المريعة التي مرت بها الانسانية بعد هذه الاباحية الجنسية هي أقسى ما عاناه البشر ، فقد ثبت بعد هذه التجارب ان المرأة والرجل لا يتساويان فطريا ، ولا طبيعيا ، وأى مجتمع يقوم على أساس مساواتهما سوف يسبب خرابا ودمارا عظيمين للحضارة البشرية .

(١) أن أول حقيقة في هذا الامر هي أن الرجل والمرأة يختلفان كل الاختلاف في نوعية كفاءاتهما الطبيعية ، واعتبارهما متساويين انما هو مخالفة كبرى لقوانين الطبيعة في حد ذاتها .

كتب الدكتور « الكسيس كيريل » ، الحائز على جائزة نوبل للعلم - وهو يبين الفارق العضوى بين الرجل والمرأة - يقول :

أن الأمور التي تفرق بين الرجل والمرأة لا تتحدد في الأشكال الخاصة بأعضائهما الجنسية والرحم والحمل ، وهي لا تتحدد أيضا في اختلاف طرق تعليمهما ، بل ان هذه الفوارق هي ذات طبيعة أساسية ، من اختلاف نوع الأنسجة في جسم كليهما ، كما أن المرأة تختلف عن (المرء) كليا ، في المادة الكيماوية التي تفرز من مبيض الرحم داخل جسمها . والذين ينادون بمساواة الجنس اللطيف بالرجل يجهلون هذه الفوارق الأساسية فيدعون أنه لابد أن يكون لهما نوع واحد من التعليم والمسؤوليات والوظائف . ولكن المرأة في الواقع تختلف عن الرجل كل الاختلاف ، فكل خلية من جسمها تحمل طابعا انثويا ، وهكذا تكون أعضاؤها المختلفة بل وأكثر من ذلك هذه هي حال نظامها العصبى .

ان قوانين وظائف الاعضاء محدودة ومنضبطة كقوانين الفلك ، حيث لا يملك احداث أدنى تغيير فيهما بمجرد الامنيات البشرية ، وعلينا أن نسلم بها ، كما هي ، دون أن نسعى الى ما هو غير طبيعى

وعلى النساء أن يقمن بتنمية مواهبهن بناء على طبيعتهن الفطرية ،
وأن يتعدن عن تقليد الرجال (١) .

ولقد صدقت التجارب العلمية نتائج هذه الفوارق الطبيعية ،
فقد فشلت المرأة في أن تحرز أية مساواة مع الرجل في أى ميدان . .
حتى أن الرجل يتقدم المرأة في الميادين التى كانت تعتبر حكرا على
المرأة فى الماضى . ومن ذلك أن المرأة فشلت فى المساواة مع الرجل
فى حقل السينما . وليس الرجل هو الذى يدير اليوم كل ما هو
متعلق بالسينما ، ومع ذلك فهو يتقاضى أجرا أكثر من المرأة .
فمثل كبير يتقاضى اليوم ستة ملايين روبية (٢) فى السنة، على حين
لا يزيد دخل أعظم ممثلة هندية على أربعة ملايين روبية !!

وليس هذا هو كل ما فى الأمر . . فأننا لو أنكرنا القوانين
الطبيعية ، والضوابط الفلكية ، وبدأنا نعمل على عكسها فسوف
نكسر رؤوسنا بأيدينا . وهكذا جلب النظام الذى صاغه الانسان
— متجاهلا الحيشيات الفارقة بين الجنسين — صنوفا من الامراض
والجرائم الى داخل المجتمع . أن شباب هذا المجتمع الجديد يشكو
أنواعا من الأمراض الجنسية والخلقية والنفسية، فضلا عن العصمة
التي أهدرها المجتمع ، نتيجة هذا الاختلاط المروع .

ومن الظواهر التى تتكرر مرارا أمام أطباء هذا المجتمع أن تدخل
فتاة غرفة الطبيب ، وهى تشكو من الصداع وقلة النوم ، وتمضى

Man the Unknown, p. 93.

(١)

(٢) عملة هندية كانت تساوى عشرة منها جنيها مصريا (عند صدور هذا
الكتاب) ، وأما الان فستة عشر (١٦) منها تساوى الجنيه المصرى الواحد ، بعد
تخفيض قيمة العملة الهندية عام ١٩٦٦ ، وبالتالي قفزت دخول الممثلين الهنود الى
أرقام خيالية ، فجاء فى احدى الاحصائيات الحديثة أن أكبر ممثل هندى ، دليب
كومار ، واسمه الحقيقى يوسف خان) يتقاضى ١٠.٦٠٠.٠٠٠ روبية للاشتراك فى
فيلم واحد ، بينما كبر ممثلة لا تتقاضى الا أقل من نصف هذا الاجر — العرب .

بعض الوقت تتحدث عن الآلام . . ثم لاتلبث ان تتكلم عن شاب التقت به صدفة منذ مدة . . وحينئذ يشعر الطبيب أنها تتعثر وتتلعث في كلامها ، فيقول لها :

« Well, then he asked you to his flat, what did you say ? »

حسنا ! ثم دعاك الى شقته ، فماذا قلت له ؟
وتقول الفتاة في دهشة :

« كيف عرفت ذلك ، لقد كنت أريد أن أقول لك ذلك حالا ! » .

ومن الممكن قياس كل ماستقول الفتاة للطبيب بعد هذا الحديث وهذا هو الذى دفع علماء الغرب الى الشعور بخيبة الأمل ، فانتهاوا الى أن الحفاظ على العفة والعصمة « كلام فارغ » فى ظل مجتمع العلاقات الحرة . وقد قال طبيب غربى :

« من الممكن أن يصل الرجل والمرأة الى نقطة يستحيل عندها التحكم فى الأعصاب ، والاحساس بالعواقب » .

وقد بدأت حملة شديدة ضد هذه الظواهر فى صورة المقالات والكتب . وبدأ بعض علماء الغرب يشعرون بالكارثة التى تهدد حضارتهم . ولكنهم ، رغم ذلك كله ، غير قادرين على فهم جذور الموقف .

« ولقد نشرت الطبيبة المعروفة « **ماريون هيليارد** » مقالا عنيفا ضد الاختلاط الحر . فقالت : « اننى لا استطيع أن أسلم ، كطبيبة بأن العلاقات الطاهرة ممكنة بين رجل وامرأة ، ينفردان برضاها وقتا طويلا » .

ولكن الدكتورة « هيليارد » تستطرد قائلة :

« ولست على هذه الدرجة من الغباء ، حتى أنصح الشباب

والفتيات أن يمتنعوا عن التقبيل . ولكن أكثرية الامهات لا تخبرن أولادهن أن القبلة لا تبرد العواطف ، وانما تلهبها » (١) .

وتسلم الدكتورة « هيلارد » ، بهذا القول ، بالقانون الالهي الذي يحرم هذه الظواهر ، حتى لا يصل الانسان الى حافة الجرائم الجنسية القبيحة، ولكن الطبيعة لاتعرف : كيف تحرم هذه الظاهرة التي تنتمي الى الاعمال الشيطانية لا محالة ؟ !

(ب) لقد أباح مشرع الاسلام « تعدد الزوجات » ، وأثيرت ضجة كبرى ضد هذا التشريع ، وأطلق عليه — هو الآخر — أنه « تذكار العصر الجاهلي » ولكن جاءت التجارب العملية لتثبت أنه كان تشريعا مناسبا للطبيعة الانسانية ، لان سد باب تعدد الزوجات انما هو فتح لعشرات الأبواب الفاجرة ، غير الشرعية .

وسوف أشير هنا الى النشرة الاحصائية التي نشرتها هيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٥٩ . لقد أثبتت هذه النشرة بالأرقام والاحصائيات ان العالم يواجه الآن مشكلة « الحرام أكثر من الحلال more out than in » شأن المواليد ! وجاء في هذه الاحصائية أن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت الى ستين في المائة . وأما في بعض البلاد . وعلى سبيل المثال « بناما » فقد تجاوزت هذه النسبة الخمسة والسبعين في المائة ، أي أن ثلاثة عن طريق الحرام من كل أربعة مواليد ، وأرفع نسبة لهؤلاء الأطفال غير الشرعيين موجودة في أمريكا اللاتينية .

وتثبت هذه النشرة أيضا أن نسبة الأطفال غير الشرعيين تصل الى « العدم » في البلدان الاسلامية . وتقول النشرة : ان نسبة هؤلاء الأطفال أقل من واحد في المائة في جمهورية مصر العربية ، مع انها أكثر البلاد الاسلامية تأثرا بالحضارة الغربية .

(١) مجلة « ريدرز دايجست » عدد ديسمبر عام ١٩٥٧ .

فما الأسباب التي تحمى الدول الاسلامية من هذه البلية ؟
يقول محررو هذه النشرة الاحصائية : أن البلدان الاسلامية
محفوظة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام « تعدد الزوجات » (١) .

لقد استطاع هذا القانون الالهى الحكيم أن يحمى بلادنا الاسلامية
من كارثة محققة في هذا العصر .

فقد أكدت تجارب الانسانية ان القانون الالهى القديم هو الذى
كان مبنيا على الحق ، والرحمة بالانسانية (٢) .

التمسك :

شرع الاسلام القصاص ممن قتل عمدا ، الا ان يرضى ورثة
القتيل بالدية ، ولقد تعرض هذا القانون لنقد شديد من جانب
رجال القانون فى العصر الحاضر ، وأهم ما يستدلون به : ان معنى
هذا التشريع أن تضيع نفس اخرى ، بعد ان ضاعت الاولى بالفعل ،
ودفعهم هذا الى الغاء نظام (الاعدام شنقا) فى كثير من البلاد .

ان القانون الذى يقره الاسلام له فائدتان هامتان :

-
- (١) جريدة Hindustan Times عدد ١٢ سبتمبر سنة ١٩٦٠ .
(٢) لم يستطع محررو النشرة الاحصائية أن يشيدوا بالدين الاسلامى وروحه
(وذلك راجع الى تعصبهم أو جهالتهم بالحقائق ، أو الى الاثني معا) ، فمن
مزايا الاسلام أنه يحرم « الزنا » ، وتحريمه هذا هو الذى يحمى المسلمين ، سواء
اكانوا من متعددى الزوجات أم من غيرهم ، وذلك لان ظاهرة تعدد الزوجات آخذة
فى الاختفاء من المجتمع الاسلامى ، بسبب الحملات السخيفة التى تعرضت لها من
جانب علماء الغرب ، والمتفرنجين من أبناء الشرق المبهورين بالحضارة الغربية
(والذين يطلق عليهم مؤلف هذا الكتاب كلمة « الانجليز السود » المتحمسون
للحضارة الغربية أكثر من أصحابها) . وترتبت على هذا الوضع مشكلات خطيرة
- من عائلية واجتماعية الى حضارية - بسبب عدم اكتفاء الكثيرين من الأزواج
بزوجة واحدة ، وكثرة الفتيات والارامل الطالبات للزواج ، وقلة الشبان ، وهذه
مشكلات يعانى منها مسلمو الهند وباكستان بشدة أكثر من اخوانهم العرب - العرب

أولاهما : أن تستأصل جذور هذه الجريمة ، لأن أخذنا من الآخرين لن يندفع الى ارتكابها مرة أخرى نظراً للعاقبة الوخيمة التي نقيها أحد أفراد المجتمع (١) .

وأما الثانية : فهي « الدية » وقد راعى المشرع النتائج مراعاة تامة ، فلو قتل الابن الوحيد لشيخ ، فعلى القاتل أن يدفع لوالد المقتول مبلغاً من المال يرضيه ، فيعفو عن الجريمة لقاء المبلغ الذي تقاضاه . وقد جعل التشريع الاسلامى حقاً للدولة أن تأمر برفع مبلغ الدية ، اخماداً لنار « الثأر » .

ان هذا التشريع حكيم لدرجة عظيمة ، وتجربته تؤكد أن غريزة القتل قد قضى عليها في أى بلاد طبقت ، كما اكدت التجارب ايضاً أن أى بلاد ألغت هذا التشريع قفزت فيها جرائم القتل الى نسب خيالية حتى ان نسبة الاغتيالات قد ارتفعت في بعض هذه الدول الى اثنتى عشرة في المائة .

وهناك أمثلة أخرى عديدة : بلاد ألغت عقوبة القصاص ، ولكنها عادت فأقرته مرة أخرى ، نظراً للعواقب ، فقد أصدر البرلمان السيلانى قانوناً سنة ١٩٥٦ يحرم القصاص في حدود سيلان . . . فارتفعت نسبة جرائم القتل ارتفاعاً مخيفاً بعد صدور القانون ، ولم يستيقظ السيلانيون من سباتهم الا يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٥٩ ، عندما تسلل رجل مسلح داخل منزل رئيس الوزراء السيد بندرانايكه وقتله بكل جرأة في غرفته ، وكان أول ما فعله أعضاء البرلمان السيلانى بعد دفن جثمان رئيس الوزراء المأسوف عليه ، أن عقدوا

(١) الدولة الوحيدة التي تطبق النظام الاسلامى في هذا المجال هي المملكة العربية السعودية ، ومن المعروف لكل المهتمين بالشئون السعودية أن نسبة القتل بها أقل نسبة في العالم كله ، فالمعدل السنوى لحوادث القتل بالمملكة السعودية لا يزداد عن « بضع » حوادث ، وذلك راجع الى العقوبة التي يلقيها المجرمون ، وكذلك تنعدم حوادث السرقة بهذه المملكة ، للسبب نفسه - العرب .

جلسة طارئة استغرقت أربع ساعات، وأعلنوا عند ختامها أن سيلان قررت إلغاء القانون ، وإصدار قانون جديد بتشريع القصاص .

المعيشة :

ان النظام الذى يقره الاسلام فى المعيشة يسلم بالملكية الفردية لوسائل الانتاج الزراعى، وهيكمل المعيشة فى الاسلام يقوم على أساس الملكية الفردية . وقد راج هذا النظام عصورا طويلة فى العالم (١) . ثم تعرض بعد الثورة الصناعية لنقد قاس ، حتى أن المثقفين رضوا بإلغائه .

وقد راج فى أوروبا ، فيما بين النصف الاخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، شعور بأن الملكية الفردية أحد القوانين المجرمة التى تفشت فى عصر الجاهلية المظلم . . . وأنهم قد استطاعوا الآن أن يكشفوا عن نظام « الملكية الجماعية » - التى هى أقوى أساس لتنظيم المعيشة .

ثم بدأت أول تجربة للنظرية الجديدة - الملكية الجماعية، ونفذت على رقعة واسعة من الأرض، وبدأت دعاية كبيرة فى شأنها ، وعقدت عليها آمال كبار ، ولكن التجربة الطويلة أثبتت أن هذا النظام ، رغم الجهود الضخمة التى بذلت فى سبيله ، لم يأت إلا بانتاج أقل من الانتاج الذى يأتى به نظام الملكية الفردية .

هذا ، فضلا عن نقائصه الكثيرة التى تتلخص فى كونها غير طبيعية ، الى استخدام العنف لتنفيذها ، وأنها تمنع التقدم الإنسانى ، وأنها أكثر من الأنظمة الرأسمالية تركيزا ، واستغلالا ، ودكتاتورية .

(١) نظام الملكية الفردية الذى راج فى العالم هو أثر من آثار الدين . ولذلك خالف « ماركس » وأتباعه الأديان بشدة ، حتى يتمكنوا من طرد فكرة الملكية الفردية من أذهان الأفراد .

وسوف أضرب هنا مثالا لروسيا: لقد نفذت الحكومة الروسية نظام (الملكية الجماعية) في جميع أنحاء البلاد ، والدولة تملك جميع الأراضي الزراعية ، فهي تقوم بزراعة أراضيها في صورة « المزارع الجماعية » . وقد منح القانون الزراعى الذى أصدرته الدولة عام ١٩٣٥ الفلاح حقا بملكية الثلث أو نصف الفدان ، أو فدانين فى بعض الأحوال الاستثنائية ، وسمح له أن يربى بعض الأنواع من الحيوانات مثل الأبقار والأغنام والدجاج .

وتثبت الإحصائية الرسمية التى نشرت عام ١٩٦١ أن الأراضي الزراعية فى روسيا فى ذلك الوقت كانت ٢٠٤ مليون هكتار ، منها أراضى قدرها ستة ملايين هكتار فى حوزة الملكية الفردية، أى ثلاثة فى المائة من مجموع مساحة الأراضي الزراعية، ولكن نسبة المحصول الزراعى للبساطس عام ١٩٦١ كانت كما يلى :

نسبة المحصول (بالطن)	نسبة الأراضي المزروعة (بالفدان)	
	٤٣٥٢٠٠٠	المزارع الجماعية
٣٠٠٨٠٠٠٠٠	٤٥٢٦٠٠٠	الأراضى الفردية
٥٣٥٠٠٠٠٠		

وتؤكد هذه الإحصائية أن المحصول الزراعى كان أحد عشر طنا من البساطس فى الأراضي الفردية ، مقابل سبعة اطنان فى الأراضي الحكومية . وهذه النسبة توجد كذلك فى المحاصيل الأخرى ، على حين أن الأراضي الفردية لا تتمتع بتسهيلات الآلات الزراعية ، والسماذ ، والكفاءات التى تتمتع بها المزارع الجماعية الحكومية .

وأما الماشية فهى أسوأ حالا فى المؤسسات الحيوانية الحكومية فهى تموت بكثرة بسبب نقص الكأ ، والاستهتار فى الرعاية ، وقد

مات ١٧.٠٠٠ من الرعوس في اقليم واحد ، في مدة أحد عشر شهرا
عام ١٩٦٢ .

وأما حيوانات الملكية الفردية فهي آخذة في الازدياد والنمو يوما
بعد يوم ، رغم العقبات العديدة ، وهي كذلك أكثر انتاجا من غيرها .
فالمؤسسات الحكومية التي تملك سبعين في المائة من الحيوانات
والدجاج لم تقدم للسوق من اللحوم الا ما يزيد على عشرة في المائة
بالنسبة الى أصحاب الملكية الفردية ، الذين لا يملكون أكثر من ثلاثين
في المائة من الحيوانات والدجاج : ويقدمون انتاجهم للحكومة ، وهو
ما تبقى لديهم بعد استهلاكهم الذاتي . وقد تخلفت المؤسسات
الزراعية الحكومية كثيرا في انتاج البيض . ويمكن استنتاج هذه
الفوارق من احصائية رسمية لعام ١٩٦١ :

المحصول	النسبة الحكومية (بالطن)	النسبة الفردية (بالطن)
اللحم	٤٨٠٠.٠٠٠	٣٩٠٠.٠٠٠
اللبن	٣٤٠٠.٠٠٠	٢٨٥٠.٠٠٠
الصوف	٣٨٧.٠٠٠	٧٩.٠٠٠
البيض	٦٣٠٠ (مليون بيضة)	٧٩.٠٠٠ (مليون بيضة)

انه لمن الطريف أن يقوم الأفراد بسد حاجات حكومة تملك ، بل
تحتكر كل وسائل الانتاج ! أن الاحصائية تدلنا على أن إحدى
الجمهوريات السوفيتية حصلت من الأفراد على ستة وعشرين في
المائة من البطاطس ، واربعة وثلاثين في المائة من البيض ، لسد
احتياجاتها المحلية ، وهكذا اضطرت الى شراء أشياء أخرى مماثلة
من الأفراد ، لاستهلاكها محليا (١) .

ومن العواقب الوخيمة لهذه الملكية الجماعية أن روسيا - التي كانت من بين الدول الكبرى المصدرة لانتاجها الزراعى فى عهد القيصريّة - اضطرت الى شراء خمسة عشر مليوناً من أطنان القمح، من كل من : استراليا ، وكندا، والولايات المتحدة الأمريكية. وهذه الحال مستمرة فى التدهور ، فقد اشترت روسيا ٢٥.٠٠٠ ر. ١٢٥ طناً من القمح من الولايات المتحدة ، فيما بين ١٩٤١ - ٥٦ وهذا هو الذى يجرى فى الصين الشيوعية (١) .

وتؤكد هذه التجارب القاسية التى خاضتها البشرية أن **العقل** **الالهى** - الذى هو منبع القانون الحقيقى - هو أعرف بالطبيعة الانسانية ، وأكثر فهماً لمسائلها ومشكلاتها .

أن فى الدين جواباً محدداً لكل الأسئلة التى تؤرقنا فى كفاحنا الحضارى . انه يوجهنا الى المشرع الحقيقى الطبيعى ، وهو يضع لنا الأساس النظرى للقانون . . فهو يمنحنا أساساً صائباً لكل مسألة فى الحياة البشرية حتى يمكن لها الوصول الى أعلى درجات الازدهار والرقى ، وهو الصورة الوحيدة للمساواة الكاملة بين الحاكم والرعية وهو يهىء الأساس النفسى ، الذى يصبح القانون بدونه مشلولاً بلا حراك ، وهو يخلق لنا ذلك المناخ المناسب الذى لا بد منه لتطور أى مجتمع تطوراً حيويًا وفعالاً .

وهكذا يعطينا الدين كل ما نحتاج اليه لبناء الحضارة ، فى حين لا يتيح لنا الألحاد والكفر شيئاً ما ، سوى الضياع والفاقة ، فهو عقيم لا يجدى نفعا .

* * *

الباب التاسع

الحياة التى ننشدها

كتب ((فريدريك انجلز)) :

« لا بد للانسان أن يجد لباسا يستر به جسده ، وخبز يشبع به بطنه ، حتى يستطيع الخوض فى الفلسفة والسياسة » .

والواقع أن الأسئلة الأولى التى يسعى الانسان الى معرفة جواب عنها فى حياته هى :

من أنا ؟

وما هذا الكون ؟

وكيف بدأت حياتى ؟

والى أين ستنتهى ؟

إنها أسئلة الفطرة الأساسية . فالانسان يفتح عينيه فى عالم يحوى كل شىء غير جواب هذه الأسئلة ، فالشمس توصل اليه الحرارة اللازمة ، ولكن الانسان غافل عن حقيقتها ، وعن أسباب قيامها بهذه العملية لخدمته ، والهواء يعطى الحياة للانسان ، ولكن الانسان غير قادر أن يؤثر فيه ليجيب عن السؤال : من أنت ؟ ولماذا تقوم بهذا العمل ؟

انه يمعن فى وجوده ، ولكنه لا يفهم من هو ولماذا جاء الى هذه الدنيا ؟

والذهن الانسانى غير قادر على وضع اجابات هذه الأسئلة الأساسية فى حياة البشر ، ولكنه لن يتخلى عن بحثه ، ولن يمل هذا البحث عن جواب .

هذه الأسئلة ، وان وردت الفاظا على السنة الجماهير ، فانها تؤلم روحها ، وهى ترد أحيانا بطريقة يصاحبها الانفعال ، حتى يصبح الانسان مجنونا .

لقد عرفنا « انجلز » مفكرا ملحدا ، ولكن الحاده أتى عن طريق المجتمع المصاب بالبلبله وعدم الاستقرار . لقد كان شغوفا بالدين ، وكان يقضى وقتا طويلا فى الكنيسة ، ولكنه بعد ما كبر وتوسع نظره فى الدراسة أعرض عن الدين التقليدى ، وهو يكتب أحوال هذه الفترة فى خطاب له الى أحد أصدقائه ، قال :

« اننى أدعو كل يوم ، وأقضى اليوم كله داعيا أن تنكشف لى الحقيقة . لقد أصبح الدعاء هوايتى ، منذ وجدت الشكوك طريقها الى قلبى ، اننى لا أستطيع أن أقبل عقائدكم . أن قلبى يفيض بالدموع غزار وأنا أكتب هذه السطور ، قلبى يبكى ، عينى تبكى ، وتكننى أشعر أننى لست بطريد من رحمة الله ، بل آمل أن أصل الى الله الذى أتمنى رؤيته بكل قلبى وروحي . وأقسم بحياتى أن عشقى وبحتى هذا لمحبة من روح القدس . ولن أقلع عن تفكيرى هذا ولو كذبه الانجيل المقدس عشرة آلاف مرة ! ! » .

لقد أقلقت غريزة البحث عن الحق روح « انجلز » الشاب ، ولكن الدين المسيحى التقليدى لم يمنحه السكينة التى كان ينشدها فانقلب متمردا عليه ، وانغمس فى الفلسفات السياسية ، والمادية الالحادية .

وجذور هذه الغريزة الانسانية هى احساس البشر بحاجتهم الى الرب الخالق ، ففكرة : « الله خالقى وأنا عبده » منقوشة فى اللاشعور الانسانى ، وهى ميثاق سرى مأخوذ على الانسان منذ يومه الأول ، وهو يسرى فى كل خلية من خلايا جسمه ، وعندما يفتقد انسان ما هذا الشعور يحس بفراغ عظيم ، وتطالبه روحه من

أعماقه أن يبحث عن الهه الذى لم يره قط ، والذى لو وجدته لخر
راكعا على ركبتيه ، ثم ينسى كل شيء .

وليس الاهتداء الى معرفة الله غير الوصول الى المنبع الحقيقى
لهذه الفطرة الانسانية ، والذين لا يهتدون الى المعرفة يقبلون على
أشياء أخرى . فان كل قلب يبحث عن يهدى اليه خير أمانيه .

وعندما رفر ف العلم الوطنى لأول مرة على الأبنية الحكومية فى
الهند بدلا من العلم البريطانى : « اليونيان جاك » ، فى صباح يوم ١٥
أغسطس عام ١٩٤٧ — أغرورقت عيون كثيرة بالدموع ، وهى ترى
الصورة التى طالما حلمت بها . وكانت هذه الدموع مظهرا لعلاقة
أصحابها « بالمعبودة : الحرية » ، التى ضحوا من أجل الحصول
عليها بخير أيام حياتهم .

وهكذا عندما يذهب زعيم وطنى الى ضريح « أبى الوطن » ويضع
عليه أكلیل الزهور ، ثم يقف أمامه لحظة مطأطأ رأسه ، فهو حينئذ
يباشر نفس العمل الذى يقوم به المؤمن أمام معبوده ، حين يركع
ويسجد .

وحين يمر شيوعى أمام تمثال « لينين » ويرفع قبعته عن رأسه
ويبطيء فى سيره ، يكون هو الآخر ، مثل رجل الدين ، يقدم أحسن
تمنياته الى الهه . فكل انسان مجبور على أن يتخذ شيئا ما الها له ،
ويقدم له قرابين أمانيه الصادقة .

ولكن الانسان اذا قدم هذه القرابين لغير الله ، فهو يشرك بمن
يستحق وحده العبادة . . و « أن الشرك لظلم عظيم » (١) ، والظلم
أن تضع الشيء فى غير موضعه ، فلو كنت تريد أن تتخذ من غطاء
الوعاء قبعة فهو « ظلم » ، والانسان عندما يميل الى غير الله للء

(١) لقمان ١٣ .

فراغه النفسى ويتخذ من غير الله ملجأ له ، فهو ينحاز عن مكانه الصحيح ، ويتخذ من غريزته أسوأ أسباب الضلال .

ولما كانت هذه الغريزة فطرية ، فانها تظهر دائما فى صورتها الطبيعية متجهة الى الله ، ولكن المجتمع ، وأحوال البيئة ، يعطيان هذه الغريزة اتجاها مغايرا ، فتبدأ الشكوك تساور الانسان فى أول الأمر ، ولكنه سرعان ما يتخلص من هذه الشكوك ، عمدا أو عفوا ، لأنه يتمتع بحرية أكثر فى الحياة الجديدة ، فيرضى بها ولو ظاهريا .

لقد كان ((برتراندرسل)) شديد العلاقة بالدين فى أول حياته، وكان يواظب على حضور صلوات الكنيسة باهتمام ، وفى يوم من الايام سأله جده : ما تكون دعواتك المفضلة يا « برتى » ؟

فأسرع الشاب برتراند رسل يقول : «لقد سئمت الحياة، وأنا مدفون تحت وطأة ذنوبى - يا الهى ! » وعندما جاوز برتراند الثالثة عشرة من عمره بدأت خواطر التمرد تراود ذهنه ، بفعل البيئة التى أحاطت به ، الى أن تحول ذلك الطفل المواظب على صلوات الكنيسة فأصبح من بعد برتراندرسل الفيلسوف الملحد ، الذى لا يؤمن بالحقائق السماوية . وقد أجرت الاذاعة البريطانية حديثا معه عام ١٩٥٩ ، وعندما سأله « فريمان » - المعلق السياسى بالاذاعة - : « هل وجدت أن هواية الاشتغال بالرياضيات والفلسفة يمكن ان تحل محل المشاعر الدينية عند الانسان ؟ » ، أجاب « رسل » قائلا : « نعم ، لقد وصلت فى سن الأربعين الى الطمأنينة التى قال عنها « أفلاطون » : أنه يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات . انها عالم أبدى ، حر ، لا يقاس بزمان ، ولقد حظيت فى هذا العالم بسكنة تشبه تلك التى يحصلون عليها فى الدين » .

لقد أنكر هذا المفكر البريطانى حقيقة المعبود السماوى ، ولكنه لم يستطع الاستغناء عن ضرورتها القصوى، بسبب الغريزة الفطرية

التي ولد بها الانسان ، فجاء بالرياضيات والفلسفة ، وأجلسهما في المقعد المخصص لله وحده ، بل اضطر أيضا أن يخلع على الرياضيات والفلسفة نفس الصفات التي ينفرد بها الله سبحانه ، وهي : الأبدية ، والتحرر من أبعاد الزمن ، والسرف في ذلك أنه لا يمكن الحصول بدونهما على الطمأنينة التي يبحث عنها الانسان .

((جواهر لال نهرو في حالة الركوع !)) لو كانت الصحف قد نشرت هذا الخبر في يوم من الايام لما صدقها الناس ! ولكن الصورة التي تحملها الصفحة الأخيرة من جريدة « هندوستان تيمس » ، الصادرة في دلهي يوم ٣ أكتوبر من عام ١٩٦٣ ، تصدق هذا الخبر وقد ظهر في تلك الصورة رئيس وزراء الهند السابق في حالة ركوع ، واقفا أمام ضريح المهاتما غاندي في ذكرى ميلاده ، وهو يقدم تمنياته الى « أبى القومية الهندية » !

ان مثل هذه الأحداث تقع كل يوم في كل مكان من العالم ، وآلاف من الناس الذين ينكرون وجود الله يركعون أمام معبوداتهم ، تسكينا لغريزتهم التعبدية ، وذلك لأن « الاله » ضرورة فطرية للانسان . وهذه المظاهر كافية لتأييد هذه الغريزة على انها طبيعية ، لأن الانسان يضطر الى الركوع أمام آخرين كثيرين ، اذا ما امتنع عن السجود أمام « الله الواحد » ، أى أن فطرته لن تتمكن من ملء الفراغ الذي يخلو عند انكار وجود الله ، والالحاد .

وليست الحقيقة أن يتخذ الانسان آلهة آخرين عند الكفر بالله فيسكن غريزته ، بل سوف أقول : ان الذين يتخذون من غير الله الها محرومون من الاستقرار والطمأنينة الحقيقيين ، كالطفل اليتيم الذي يحاول أن يتخذ من مصنوعات البلاستيك ((أما)) له .

وكل ملحد ، مهما بدا له ، أو للآخرين ، أنه ناجح ، يتعرض في حياته لمواجهة لمحات ، يضطر ازاءها ان يفكر فيما اذا كانت الحقيقة التي قبلها - مصنوعة وزائفة ؟

وعندما ختم « جواهر لال نهرو » سيرته الذاتية سنة ١٩٣٥ ،
أى قبل اثنى عشر عاما من استقلال الهند ، كتب فى خاتمتها
قائلا :

« اننى لأشعر أن فصلا من حياتى قد انتهى ، وان فصلا آخر
على وشك البدء ، ترى ماذا سيحوى هذا الفصل ؟ لا يستطيع أحد
أن يتنبأ به ، فان أوراق الحياة القادمة مختومة » .

وعندما ظهرت الأوراق الأخرى من حياة نهرو ، وجد نفسه
رئيسا لوزارة ثالث كبريات دول العالم ، يحكم سدس المعمورة بدون
شريك . ولكن « نهرو » لم يقتنع بهذا ، بل ما زال يشعر ، وهو فى
أوج بروزه السياسى ، أن هناك فصولا أخرى من كتاب حياته
لما تفتح .

لقد كان يعتمل فى قرارة ذهنه نفس السؤال الذى يولد معه
الإنسان ، وقد قال نهرو ، وهو يخاطب مؤتمر المستشرقين الذى
انعقد فى دلهى فى يناير من عام ١٩٦٤ والذى اشترك فيه ألف ومئتان
من الممثلين من جميع أرجاء العالم ، قال :

« اننى سياسى ، ولا أجد وقتا كثيرا للامعان والتفكير . ولكنى
أضطر فى بعض الأحيان أن أفكر : ما حقيقة هذه الدنيا ؟ ومن نحن ؟
وماذا نقوم به ، اننى على يقين كامل أن هناك قوى تصوغ
أقدارنا » (١) .

وهذا هو الشعور بعدم الطمأنينة الذى يسيطر على أرواح الذين
يكفرون بالله معبودا لهم ، ويخيل اليهم فى غمرة الملذات المؤقتة
والأعمال الدنيوية الشاغلة - أنهم قد ظفروا بالاستقرار . . ولكنهم
لا يلبثون أن يحسوا مرة أخرى بأنهم محرومون من الطمأنينة
والسعادة والاستقرار .

(١) جريدة National Herald عدد ٤ يناير عام ١٩٦٤ .

وهذه الحالة التى تنعدم فيها الطمأنينة والاستقرار لدى القلوب المحرومة من رحمة الله ليست مسألة أيام هذه الحياة المؤقتة وسنيها . وإنما هى أهم من ذلك بكثير .

أنها مسألة أزلية وأبدية، تتمثل فيها آثار الحياة المعتمدة الحالكة التى يقف على حافتها هؤلاء الأصحاب .

أنها البادرة الأولى لحياة الخلق الأبدية ، التى سوف يواجهونها بعد موتهم دون شك .

أنها أجراس التنبيه الأولى فى حياتهم ، تنذرهم بالأحوال الرهيبة والظروف المروعة التى سوف تمر بها أرواحهم .

وهى دخان من الجحيم الذى لابد لهم أن يخلدوا فيه .

ولو أن النيران شبت فى منزل أحدهم ، فقد ينبهه الدخان الذى سيدخل فى أنفه الى الخطر الوشيك ، وهو يستطيع أن ينقذ نفسه لو استيقظ فى الوقت المناسب ، ولكن حين تمسك السنة النيران بسريره فسيكون الأوان قد فات . ولات حين مناص ، بل هو الهلاك الذى يحيط به من كل جانب ، فقد قدر له أن يحترق فى النيران ، لبلادة حسه ، وجهالته من أمره .

ترى ، هل يستيقظ الناس فى أبان النجاة ؟ فان اليقظة النافعة هى التى تكون قبل فوات الأوان ، واليقظة عند الهلاك والدمار لاتمنح صاحبها غير القرار فى قاع البوار .

كتب البروفيسور ((مايكل بريتش)) ترجمة لحياة جواهر لال نهرو - وقد سأل المؤلف نهرو فى لقاء له معه بنيودلهى فى ١٣ يونية من عام ١٩٥٦ :

« ما المقومات اللازمة لبيئة صالحة - طبقا لفلسفتكم الاساسية فى الحياة ؟ » .

وأجاب رئيس الوزراء الأسبق قائلا :

« اننى أومن ببعض المعايير ، قل : انها (المعايير الاخلاقية) ، ولا بد لكل فرد وبيئة من التمسك بها ، وعند القضاء على هذه المعايير لايمكنك الوصول الى نتائج مفيدة ، رغم احراز التقدم المادى الهائل ، وأما (سبل) اقامة هذه المعايير والاحتفاظ بها فى المجتمع فاننى لا أعرفها ، وهناك نظرة دينية لاقامة هذه المعايير ، ولكنها تبدو لى ضيقة جدا مع كل طقوسها وطرقها ، فأنا أهتم اهتماما كبيرا بالقيم الاخلاقية الروحية ، بعيدا عن الدين ، ولكننى لا أعرف كيف يمكن الحفاظ على هذه القيم فى الحياة الجديدة انها لمشكلة » (١) .

وهذا السؤال وجوابه يبينان بوضوح الفراغ الذى يواجهه الانسان بشدة فى حياته ، فان اقامة القيم والمعايير الاخلاقية من أهم ضرورات كل مجتمع ، حتى يتاح له حق الاستقرار لمواصلة مسيرة الحضارة . ولكن الانسان بعد أن خذل الاله ، أخذ يخطط خطط عشواء بحثا عن هذه المعايير ، وسبل اقامتها فى حياة افراد المجتمع . . ولا يزال الانسان ، رغم مئات السنين التى مضت ، فى أولى مراحل بحثه عن هذه المعايير المجردة عن الدين .

انهم يحتفلون ، مثلا بأسبوع الكرم Courtes week لا ذابة الحواجز بين الشعب والحكام ، ولكن العقلية البيروقراطية لاتدوب عند المسؤولين ، رغم كل الجهود التى تبذل فى هذه المناسبات باسم « الأخلاق » .

ويعلقون على المحطات وداخل عربات القطارات لافتات كبيرة تقول : « ان السفر بدون تذكرة جريمة اجتماعية » - ولكن نسبة السفر بدون التذاكر لا تقل ، بل تزداد يوما بعد يوم . وذلك يشبه

أن عبارة « جريمة اجتماعية » غير كافية لتحريك ضمير الفرد ،
والحفاظ على النظام (١) .

انهم يبذلون جهودا ضخمة للتغلب من الجرائم ، عن طريق
الصحافة ، قائلين مثلا « الجريمة لا تفيد » Crime does not pay
لكن النسبة المرتفعة للجرائم ، يوما بعد آخر ، دليل على أن «عواقب
الجريمة » في الدنيا ليست رادعة ، حتى تمنع المجرمين من القيام
بجرائمهم .

وكثيرا ما طبعوا على جدران المكاتب عبارات تقول : « ان تقديم
الرشوة ، وقبولها ذنب » ، ولكن المرء ، عندما يشاهد أن جرائم
الرشوة تمضي في طريقها على قدم وساق ، بمشهد من هذه العبارات
نفسها ، يضطر الى أن يعترف بأن الدعاية الحكومية لن تستطيع
أن تمنع هذه الجريمة الاجتماعية القبيحة .

انهم يكتبون في كل عربة من عربات القطار : « ان القطارات ملك
للشعب ، والحق أي ضرر بها جريمة ضد الشعب » . ولكن
المسافرين في نفس هذه العربات يسرقون لمباتها الكهربائية الرخيصة ،
ويحطمون زجاجها ، وربما يثورون فيشعلون النيران وهو دليل
على ان فائدة الشعب ليست بأقوى من فائدة الفرد .

أن كبار الزعماء والسياسيين يعلنون في خطبهم : ان استغلال
الوسائل الحكومية لصالح الاغراض الفردية خيانة في حق الشعب
والدولة » . ولكن المشروعات الكبرى تفشل في تحقيق أهدافها ، لأن

(١) كل ما يقدمه المؤلف من أمثلة للتدليل على افلاس الفلسفات المادية
الاحادية ، غربية وشرقية ، موجود بوفرة في بلاد شرقنا العربي ، وتوحى شواهد
الواقع أن الامور تزداد كل يوم سوءا ، نتيجة سيطرة المنحليين والملاحدة على أجهزة
التوجيه من جانب ، وقعود رجال الدين عن أداء رسالتهم من جانب آخر ، ولا حل
للمشكلة الا بعودة الامة الى الله مرة أخرى - (المراجع) .

النسبة الكبرى من الميزانيات المقررة تأخذ طريقها الى جيبوب المسؤولين القائمين بأمر هذه المشروعات ، بدلا من انفاقها في مكانها الصحيح . وهكذا اختفت المعايير والقيم من الحياة القومية ، رغم كل الجهود التي بذلت من جانبى المصلحين والزعماء ، وباءت كل الوسائل التي استخدموها بالفشل الذريع (١) .

هذه الظواهر هي في الواقع دلائل على أن الحضارة الالحادية قد انتهت بركب البشرية الى الوحل ، وقد ضللتها عن طريقها ، التي لم يكن منها بد لمواصلة المسيرة ، ولا حل لهذه الأزمة الا بالرجوع الى الله ، والتسليم بأهمية الدين للحياة ، فهو الاساس الوحيد الذي يساعد على النهوض بالحياة البشرية على خير وجه ، وليست هناك من أسس أخرى .

كتب البروفيسور تشستر باولز (٢) ، السفير الأمريكى الأسبق لدى الهند ، يقول :

« ان الدول النامية تواجه مشكلات من نوعين ، في طريق نهضتها الصناعية . والنوعان معقدان غاية التعقيد . فأما أولهما : فهو مشكلات الحصول على رأس المال ، والمواد الخام: والخبرة الفنية

(١) ان الامثلة التي ذكرها المؤلف هنا - من أسبوع الكرم الى التلاعب في أموال الدولة - أمور عادية جدا في الهند ، وهي تحدث على مسمع ومشهد من الجمهور والمسؤولين ، وترتب على ذلك أن الحالة الاخلاقية للشعب الهندى آخذة في التدهور بشكل يخيف للسياسيين من عواقبها على المدى البعيد ، وهؤلاء (الوثنيون منهم أو الملحدون) لا يعرفون كيف يسدون هذا السيل الخطر ، فغالبيتهم العظمى تجرى وراء مصالحها الداتية ، ولذلك قد تفشى الفساد وعمت الرشوة وسادت اعتبارات المحسوبية في كل وسط ، من أدناه الى أرقاه - وهي حال تدمى قلوب الساسة الوطنيين المخلصين ، ولكنهم مغلوبون على أمرهم .

(٢) Chester Bowles هو من اشهر الخبراء الاقتصاديين في الولايات المتحدة

الامريكية . العرب .

وطرق استخدامها أفضل استخدام . **وأما النوع الثانى** من هذه المشكلات فيتعلق بالشعب والإدارة الحكومية . فعلىنا قبل المضي فى ثورتنا الصناعية أن نتيقن من أن هذه الصناعة لن تخلق مشكلات أكثر مما تقضى عليه (من المشكلات) فعلا . ومن كلمات المهاتما غاندى : أن المعلومات العلمية والكشوف سوف تزيد من شراهة الإنسان ، على حين أن الإنسان هو الشيء الأهم من كل الأشياء» (١)

فالشعب مجتمع يخضع للبرامج التقدمية ، ولكن عناصر التقدم ، وهى رأس المال والخبرة الفنية ، لا تجدى نفعا فى مجتمع يسوده الفراغ السياسى والحضارى (٢) .

ما الطريق الى سد هذا الفراغ لبناء مجتمع يضطلع فيه الشعب والحكام ، كل بواجبه ، لرفع شأن البلاد ؟

أنه سؤال بدون جواب لدى المفكرين المحدثين ، والحق أن الإنسان لن يستطيع الوصول الى جوابه فى ظل المجتمع الالهادى فكل مشروع تقدمى يصاب بتناقض مثير ، يتجلى فى أن العقائد الشخصية لدى أفرادها تخالف العقيدة الاجتماعية . فبرنامج التقدم الاجتماعى مثلا يهدف الى إقامة مجتمع رفاهى يتمتع بالأمن والسلام ، ثم يقول المفكرون : « أن هدف الإنسان الأساسى هو الحصول على السعادة المادية ! » فهم بذلك ينكرون المبدأ الأول لبرنامجهم . لأنهم يحرضون الافراد على عمل هو عكس ما يحتاج اليه المجتمع .

ويرجع هذا التناقض الى أن برنامجا من هذا النوع لم يحقق أهدافه الى يوم الناس هذا ، وفشلت جميع الفلسفات المادية للنهوض بالحياة الاجتماعية .

The Makings of a Just Society, Delhi 1963, pp. 68-69 (١)

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١ .

ان معنى الحصول على السعادة المادية هو أن يسعى الانسان بكل قواه الى تحقيق كل ما تصبو اليه أمانيه ، ولكن تحقيق الأهداف الشخصية ، في هذا العالم المحدود ، لا طريق اليه دون التأثير على الآخرين . ولذلك ، فعندما يسعى الفرد الى تحقيق مطالبه يتحول الى رزء بالنسبة للآخرين . . فأمنية الفرد تدمر أمانى المجتمع . وحين يجد فرد ، يتقاضى مرتبا بسيطا ، أن موارد لا تكفى لتحقيق سعادته الشخصية فإنه يسعى الى تحقيق ذلك بكل الصور الممكنة ، حتى **ليقدم** على السرقات . والرشاوى والغش ، والتزوير ، والاستيلاء على حقوق الغير بالقوة . . وعندئذ يبدأ المجتمع في أن يعانى نفس المشكلات التى كان يعانى منها أحد افراده .

ان العالم الحديث يعانى من مشكلة ، لم يجربها الانسان طوال تاريخه هى مشكلة « **جرائم الأطفال** » ، التى أصبحت جزءا من المجتمع الحديث ! من أين يأتى هؤلاء المجرمون الصغار ؟ انهم ضحايا « السعادة المادية » . . فكثير من الفتيان والفتيات يسأمون حياة الزواج بعد وقت قليل ، وحينئذ يبدأون فى البحث عن وجوه وأجساد جديدة ، ويحصلون على الطلاق ، بيد أن المجتمع هو الذى يدفع ثمن الطلاق ، حين يلطم فى رحابه « أطفالا يتامى فى حياة آبائهم وأمهاتهم » ، وما دام المجتمع المنحل هو الآخر لا يستطيع أن يهيىء لهؤلاء الأطفال الطعام واللباس والمأوى ، فهم أحرار من كل قيد ، وهم ثائرون على المجتمع الذى أنجبهم . وتبدأ هذه الحال بالصعلكة ، ثم تنتهى الى الجرائم القذرة التى كانوا ثمرتها .

ولقد صدق السير الفريد ديننج في مقاله : « ان أكثرية الأطفال غير البالغين تخرج من أنقاض « أسر محطمة » (١) .

هذا التناقض بين الفلسفة الاجتماعية وأهداف الأفراد هو أصل كل المشكلات الاجتماعية . فجميع الحوادث التي نسميها في قواميسنا « جريمة وذنبا » هي محاولة قوم للحصول على أمانهم الذاتية في الحياة ، بعد أن أخفقوا في تحقيقها لسبب أو آخر . وهذه الحوادث تظهر في أغلب الأحيان في صور : الاغتيال ، والخطف والتدليس ، والتزوير ، والقرصنة ، والحروب ، والزنا ، وما الى ذلك من الجرائم التي تعاني منها الانسانية .

وهذا التناقض يبين بجلاء أن هدف الحياة الأساسي هو الحصول على رضا الله في الآخرة ، لا غير . أنه هو الهدف الوحيد الذي يمكنه انقاذ المجتمع والفرد من التناقض الكبير ، والسير بهما في طريق الرخاء والسعادة المتبادلة ، لأن الفرد في هذا الهدف لا يصادم أمانى المجتمع ، بل يشترك في كفاحه بطريقة ايجابية فعالة ..

فميزة نظرية (الآخرة) تأكيدها على أنها هي الأساس الوحيد لنجاح المشروعات الاجتماعية في حين تبين في نفس الوقت ، أنها هي الهدف الوحيد للانسان الفرد أيضا ، لأن أى شيء لا علاقة له بالواقع لا يمكنه أن يصبح بهذا القدر العجيب من الأهمية ، والموافقة لاهداف البشرية .

لقد تقدم الطب الحديث والجراحة الى أقصى حدودهما في هذا القرن ، وبدأ الاطباء يقولون : « أن العلم يستطيع القضاء على كل مرض ، غير الموت والشيخوخة » !! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب ، وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » التي هي نتائج أعراض التناقض الشديد الذي يمر به الفرد والمجتمع .

لقد حاول العلم الحديث أن يغذى كل الجوانب المادية في الجسم الانسانى ، ولكنه فشل في تغذية الشغور ، والأمانى ، والارادة ،

وكانت حصيلة ذلك جسما طويل القامة ممتلىء النواحي ، ولكن الجانب الآخر من الجسم ، وهو أصل الانسان ، أصبح يعاني من أزمات لا حد لها .

لقد أكدت **إحصائية** : ان ثمانين في المائة من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضا ناتجة عن الأعصاب ، من ناحية أو أخرى . ويقول علماء النفس الحديث : ان من أهم جذور هذه الأمراض النفسية . الكراهية ، والحقد ، والجريمة ، والخوف ، والارهاق ، واليأس ، والترقب ، والشك ، والاثرة ، والانزعاج من البيئة . وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الايمان بالله .

ان هذا الايمان بالله يمنح الانسان يقينا جبارا ، حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب ، فهو يجاهد في سبيل هدف سام أعلى ، ويفض بصره عن الأهداف الدنيئة القدرة .

ان الايمان بالله يعطى الانسان محركا هو أساس كل الأخلاق الطيبة ، ومصدر قوة العقيدة ، العقيدة التي عبر عنها « السير وليام أوسلر » William Osler بقوله : « **إنها قوة محركة عظيمة ، لا توزن بأي ميزان ، ولا يمكن تجربتها في المعامل** » .

ان هذه **العقيدة** هي سر مخزن الصحة النفسية الموفورة ، التي يتمتع بها أصحابها ، وأية نفسية محرومة من هذه **العقيدة** لن تنتهي الا بالامراض ، أقساها وأعتاها .

ومن شقوة الانسان ان علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود في الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة ، ولكنهم في نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول الى علاج هذه الأمراض ، وهذه الظاهرة تثير شعورا كئيبا بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا في

الميدان الاخير ، ولذلك اكبوا على الميدان الثانى ، يسترون خيبتهم ، ويظهرون بطولتهم أمام العالم !

والى ذلك اشار أحد العلماء المسيحيين قائلا : « ان علماء الطب النفسى يبذلون كل جهودهم فى كشف أسرار القفل الدقيقة الذى سوف **يفلق** علينا كل أبواب الصحة ! » .

المجتمع الجديد يسير فى اتجاهين فى وقت واحد . فهو يحاول من جهة الحصول على جميع الكماليات المادية ، على حين يتسبب - لتركه الدين - فى خلق أحوال تجعل من الحياة جحيما . أنه يعطيك دواء الشفاء من الفم . ويحقنك السم فى العضل !

وسوف أنقل هنا شهادة لهذه الظاهرة رواها الدكتور بول أرنست أدولف ، يقول :

« تعرفت اثناء دراستى بالكلية الطبية على التغيرات التى تطرأ على أنسجة الجسم بعد الإصابة بالجراح ، وشاهدت اثناء التجارب بالمنظار المكبر أن أمراضا محددة تطرأ على هذه الأنسجة ، مما يؤدى الى اندمال الجروح وشفائها ، وعندما أصبحت طبيبا بعد اتمام دراستى كنت جد مقتنع بكفاءتى وأنى أستطيع أن احقق نتيجة موفقة بالتأكيد ، باستعمال الوسائل الطبية اللازمة ، ولكن سرعان ما أصبت بصدمة كبيرة ، حيث فرضت على الظروف أن اشعر أننى اعرضت عن أهم عنصر فى علم الطب ، ألا وهو : الله . » .

« كانت بين المرضى الذين كنت مشرفا على علاجهم فى المستشفى عجوز فى السبعين من عمرها ، أصيب أعلى فخذها بصدام ، وأكدت صور الأشعة أن أنسجة جسمها تلتئم بسرعة ، فقدمت لها تهنئاتي لسرعة شفاؤها ، وأشار لى كبير الجراحين : أن أطلب منها العودة الى بيتها بعد أربع وعشرين ساعة ، لأنها استطاعت أن تمشى دون أن تستند الى شيء . » .

« وكان ذلك يوم أحد ، حين جاءت ابنتها تزورها على عاداتها الاسبوعية ، فقلت لها : أن والدتك تتمتع بصحة جيدة الآن ، عليك أن تحضري غدا لترافيها الى البيت . ولم تلفظ الفتاة بشيء أمامي بل توجهت الى أمها ، وقالت لها : انه تقرر بعد مشورة زوجها أنهما لن يستطيعا تدبير عودتها (الأم) الى بيتها ، وخير لها الآن ان تنظم لها سكنى باحدى « دور العجزة » .

وبعد بضع ساعات مررت بسرير العجوز ، فشاهدت أن انهيارا سريعا يطرأ على جسمها ، ولم تمض أربع وعشرين ساعة حتى ماتت العجوز ، لا بسبب فخذ مكسور ، بل جراء قلب كسير .

« وقد حاولت أن أقوم بجميع الاسعافات اللازمة لانقاذها ، ولكن حالتها لم تتحسن . كانت عظام فخذها المكسور ، قد تحسنت كثيرا ، ولكنني لم أجد علاجاً لقلبها الكسير . . أعطيتها كل ما عندي من الفيتامينات ، والمعادن ، ووسائل التئام العظم المكسور ، ولكن العجوز لم تستطع أن تنهض مرة أخرى ، لقد أنجبرت عظامها دون شك ، وكانت تملك فخذاً قوية ، ولكنها لم تقوى على الحياة ، لأن الزم عنصر لحياتها لم يكن الفيتامينات ، والمعادن ، ولا انجبار العظم ، وإنما كان (الأمل) ، الأمل في أن تعيش على نحو معين ، فمتى ذهب الأمل في الحياة ، ذهبت معه الصحة » .

« وكان لهذا الحادث تأثير عميق في نفسي ، لاحساسى بأن هذا الحادث كان من المستحيل وقوعه ، ولو كانت هذه العجوز تعرف « إله الأمل » ، الذى أو من به لكونى مسيحياً » (١) .

هذا المثال يعطينا صورة من التناقض الذى يعانى منه العالم فى كل جانب من جوانب حياته ، فالعالم يحاول اليوم بكل قوة أن

تمحى الأحاسيس والمشاعر الدينية من قلوب الناس ، وهو فى هذه المحاولة يسعى الى نهضة الانسان ، متجاهلا (الروح) ، عنصره الأسمى .

ومن نتائج هذه المحاولة أن الطب يستطيع أن يجبر عظام فخذ مكسورة ، ولكن حرمان الانسان من العقيدة الالهية يفضى به الى الموت ، رغم كون جسمه فى صحة جيدة .

لقد دمر هذا التناقض الانسانية تدميرا ، فالاجسام تحت الأتواب البراقة أحوج ما تكون الى الهدوء والسعادة الحقيقيين ، والأبنية الفخمة تسكنها قلوب محطمة ، والمدن المتلألئة ببريق الحضارة هى بؤر الجرائم ، ومصانع المصائب ، والحكومات الجبارة مصابة بالدسائس الداخلية وعدم الثقة ، والمشروعات الضخمة تبوء بالفشل نتيجة لخيانة القائمين بها . . لقد أصبحت الحياة غير مرغوب فيها رغم التقدم المادى الهائل ، وكل هذا وذاك يرجع الى حرمان الانسان من نعمة الايمان بالله ، لقد حرمانا أنفسنا من المنبع والأساس الذى هياه لنا خالقنا ومالكنا .

ان سبب الأمراض النفسية، التى اشرت اليها ، حقيقة واضحة جلية اعترف بها علماء النفس ، وقد لخص عالم النفس الشهير البروفيسور يانج C.G. Jung تجاربه عنها فى الكلمات التالية :

« طلب منى أناس كثيرون ، من جميع الدول المتحضرة ، مشورة لأمرضهم النفسية ، فى السنوات الثلاثين الأخيرة . ولم تكن مشكلة أحد هؤلاء المرضى - الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم ، وهو ما بعد ٣٥ سنة - الا الحرمان من العقيدة الدينية . ويمكن أن يقال : أن مرضهم لم يكن الا أنهم فقدوا الشيء الذى

تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر ، ولم يشف أحد من هؤلاء المرضى الا عندما استرجع فكرته الدينية (١) .

وانها لكلمات جلية : « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » (٢) .

ولو أردنا المزيد من الايضاح ، فلسوف أقتبس من الاستاذ (١. كريسي موريسون) رئيس اكاديمية نيويورك (سابقا) ، قوله :

« ان الاحتشام ، والاحترام ، والسخاء ، وعظمة الاخلاق ، والقيم والمشاعر السامية ، وكل ما يمكن اعتباره « نفحات الهية » لا يمكن الحصول عليها من طريق الالحاد » .

« فالالحاد نوع من الأنانية ، حيث يجلس الانسان على كرسى الله

« لسوف تقضى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين .

« سوف يتحول النظام الى فوضى .

« سوف يتعدم التوازن ، وضبط النفس ، والتمسك .

« سوف يتفشى الشر في كل مكان .

« انها لحاجة ملحة ان نقوى من صلتنا وعلاقتنا بالله » (٣) .

(انتهى)

* * *

Quoted by C.A. Coalson, Science & Christian Belief p. 110. (١)

(٢) : ق ٣٧ .

Man Does not Stand Alone, p. 123.

(٣)

٧	مقدمة الطبعة العربية بقلم الدكتور عبد الصبور شاهين
٢٤	تمهيد

الباب الأول

٣٢	قضية معارضى الدين
٣٥	الأساس الأول - البيولوجيا
٣٦	الأساس الثانى - علم النفس
٣٧	الأساس الثالث - التاريخ

الباب الثانى

نقد قضية المعارضين

٤١	أولا : حقيقة الطبيعة
٤٥	ثانيا : اللاشعور ودليل علم النفس
٤٩	ثالثا : الاستدلال بالتاريخ والاجتماع

الباب الثالث

طريقة الاستدلال العلمى

٦٠	حقيقة التجربة والقياس
٦٥	نظرية التطور العضوى
٦٧	مشكلة تعيين حقائق الأمور
٦٨	حقيقة النظريات العلمية

الباب الرابع

٧١	الطبيعة تشهد بوجود الله
٧١	أولا : نظرية التشكيك فى الوجود
٧٢	الوجود والخلق
٧٣	الأزلى - الخالق أم المادة ؟
٧٩	الأنظمة المعقدة

٧٥	ثانيا : الكشف الفلكية
٨٢	تقليد الطبيعة
٨٤	ثالثا : روح الكون الغريبة
٨٤	التوازن المدهش في الأرض
٩٠	قانون الضغط والتوازن
٩٣	السنن الرياضية المحكمة
٩٤	نظام العناصر والدورية
٩٦	خصائص حكمة
٩٨	صدفة أم عمليات حكمة

الباب الخامس

١١٠	دليل الآخرة
١١٠	أولا : امكان الآخرة
١١١	مسألة الموت
١١٣	ظواهر وأمثلة طبيعية
١١٦	الحياة بعد الموت
١٢٠	ثانيا : ضرورة الآخرة
١٢٢	مسألة القول
١٢٤	مسألة العمل
١٢٧	ثالثا : الحاجة الى الآخرة
١٢٧	الجانب النفسى
١٣٣	الضرورة الاخلاقية
١٣٦	مشكلة السلوك
١٣٩	الضرورة الكونية
١٤١	رابعا : الشهادة التجريبية
١٤٢	خامسا : البحث النفسى
١٤٤	سادسا : البحوث الروحية

الباب السادس

١٥٠	اثبات الرسالة
١٥٤	أولا : ضرورة الرسالة
١٥٧	ثانيا : مقياس الرسالة

الباب السابع

القرآن - صوت الله ١٧٠

أولا : اعجاز القرآن ١٧٠

ثانيا : نبوءات القرآن ١٧٥

ثالثا : القرآن والكشوف الحديثة ١٩١

تقسيم لآيات القرآن :

النوع الأول من الآيات ١٩٦

النوع الثاني من الآيات ١٩٩

أولا : علم الفلك ١٩٩

ثانيا : علم طبقات الأرض ٢٠٤

ثالثا : علم الأغذية ٢٠٨

الباب الثامن

الدين ومشكلات الحضارة ٢١٣

التشريع ٢١٣

أولا : مصدر التشريع ٢١٩

ثانيا : العناصر الأساسية للتشريع ٢٢١

ثالثا : تحديد مفهوم الجريمة ٢٢٣

رابعا : القانون والأخلاق ٢٢٥

خامسا : القانون والفرد ٢٢٧

سادسا : القانون والعدل ٢٣١

المرأة والمجتمع ٢٣٢

التمدن ٢٣٧

المعيشة ٢٣٩

الباب التاسع

الحياة التي ننشدها ٢٤٣

مطابع المختار الاسلامي
دار السلام

الكتاب والدار

ما أندر الأقلام التي تنبض بالصدق وهي تكتب دفاعا عن مستقبل الحياة كما يتصوره الاسلام .. متحملة في ذلك ضغط الفساد وسلطانه ، ومتحدية في المجتمع مراكز استيراد الأفكار ، وعناصر اللامبالاة ..

صحيح أن هذه الأقلام قليلة ، لكن أرض الله تعالى لا تخلو منهم ، يكتبون بكل لغة ، ويحاربون في كل معركة ، إيماننا منهم بوحدة المقاتلين أمام الخطر الزاحف .

من هؤلاء القلة وحيد الدين خان .. المسلم الهندي العالم والمفكر الانساني الحر .. وهو يقدم في كتابه هذا ((الاسلام يتحدى)) عرضا لأحدث آراء المفكرين الأوروبيين ويرد عليها ، وهو يمضي بأسلوبه المقتع الهادئ فينتقد قضية المعارضين للدين ، ويثبت أنها متهاوية ولا تقف على أرض صلبة .

وبين يدي القارئ الطبعة السابعة بعد أن نفذت الطبعة السادسة خلال أيام من صدورها ..

ولقد آثرت دار المختار الاسلامي أن يكون هذا الكتاب أول عمل تقدمه لقرائها ، وإذا كانت الدار تدقق كثيرا في اختيار ما تنشره ، فانما تهدف الى الدفاع عن الاسلام وبيان حقيقته من خلال أكثر الكتابات احتراما ووعيا ..

ذلك أن دار المختار الاسلامي تؤمن أن الاسلام في جوهره هو السبيل الوحيد لانقاذ الانسانية .. غير أن أسلوب الاتصال بهذا الجوهر النقي هو الذي يحتاج الى طريقة عرض جديدة .. ويحتاج الى لغة معاصرة تجعله قريبا من العقل قريبا من القلب .

المختار الاسلامي

للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ١٧٠٧ - القاهرة
هاتف ٩٣٦٤٩٦

Bibliotheca Alexandrina



0546596

